الحيوان

في القرآن الكريم

رسالة

مقدمة

١٠٠٢٩٩٧ ر

الى

كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى

إعداد

فوزية يوسف بغدادي

تحت إشراف

الدكتور عبد العظيم المطعني

جامعة أم القرى - مكة المكرمة
عمادة شؤون المكتبات
قسم المخطوطات
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

٩٤١

الغرض البياني والتربـــوى
من ذكـــر الناقـــة في القرآن

١ - لقد كان ذكر الناقه في القرآن في قصة ثمود هو : " كونهـا آية أرسلها الله لثمود ليؤمنوا به سبحانه " حيث أن ثمود خلفـــت عاد وعمرت بلادها - كما عرفنا - وكثروا في البلاد وعمّروا أعمـارا طوالا وكانوا في سعة ورخاء من العيش وبنوا القصور ونحتـــوا الجبال لكن عقيدتهم كانت فاسده فقد عبدوا الأوثان وتنكـــــروا للواحد الديان ولفساد عقيدتهم فسدت أخلاقهم وفسد كل شيء، فأراد الله أن ينقذهم من هذا الفساد والضلال والظلام فبعث اليهم نبيا اختاره من بينهم ومن بين الموحدين فيهم حيث كـان أكثر الموحدين أنذاك توحيدا ونقاءا وصلاحا فقال لهم : (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) فكذبه قومه وقالوا : (يا صالـح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنـــا واننا لفي شك مما تدعونا اليه مريب ، قال يا قوم أرأيتم ان كنـت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله ان عصيتـه فما تزيدونني غير تحسير) فطلبوا منه أن يأتيهم بآية من اللـــه اذا كان مرسلا حقا من عند الله : " فأت بآية ان كنت من الصادقين "(١)

---

(١) ١٥٤ ك الشعراء ٢٦

فقال لهم : " هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب " لكن قلوبهم كانت مغلقة عن الايمان بالله وما كان طلبهم هذه الآية (الناقة) الا هروبا من تصديق صالح - عليه السلام - وتعجيزا له أو هروبا من الايمان بالله ولم تكن الناقة وسيلة ليعرفوا من خلالها مدى صحة رسالته فاذا ما تأكدوا آمنوا .... لا .... فالذى فى قلوبهم هو الأساس عندهم ، والذى يضمرونه هو العقيدة الصحيحة فى نظرهم ... هو اعتقادهم بصحة ما يعبد آباؤهم وأجدادهم يتضح ذلك من تعجبهم من دعوة صالح التى تدعوهم لأن يتركوا عبادة الأوثان ويتجهوا الى عبادة الرحمن : (أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا) !! لا .. فهذا هو ما نعتقد بصحته ، أما ما تدعونا اليه فهو موضع شكنا : " واننا لفى شك مما تدعونا اليه مريب " .. اذا فالمسألة ليست مسألة محاولة لاقناع أنفسهم بصحة رسالة صالح وللبحث عن الحقيقة حينما طلبوا : آية تكون لهم من عند الله .. وانما المسألة هى مسألة اصرارهم على الكفر لا لشىء سوى أنهم وجدوا عليه آباءهم لذا فان الآية التى طلبوها لم تغن عنهم شيئا بل كانت وسيلة الى هلاكهم ، حملتهم جميعا على ظهرها وألقت بهم الى الجحيم حين عقروها تكذيبا للرسول وللرسالة التى يحملها أتتهم صيحة من السماء بسبب

عقرهم لها وزلزلت بهم الأرض لأنهم لم يؤمنوا بصحة رسالة صالح ، لم يصدقوه فيما دعاهم اليه من توحيد الله ، ولم يكفيهم تكذيبهم لصالح وانما تعدوا على حرمة الله التى جعلها فى الآية التى أرسلها لهم (ناقة الله) فعقروها وكأنهم يقولون :

أرسلت صالحا فلم نؤمن بك . .

وأرسلت (الناقة) فلن نؤمن بك أيضا !!

عقرناها (يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين) يريدون الدليل الثانى ليصدقوا صالحا فيؤمنوا بالله ، ان كان صالح مرسل من عند الله فلينزل بهم العذاب الذى وعدهم به ان هم مسو الناقة بسوء (ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب) (ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم) (ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم) ها نحن قد عقرناها والقينا بكل هذه التحذيرات وراء ظهورنا فاتنا بما تعدنا من العذاب ان كنت من الصادقين !!

فأنزل الله عليهم عذابه وسخطه وعقابه جزاء وفاقا فالهدف البيانى من ذكر الناقه فى قصة ثمود فى القرآن هو الدعوة الى الايمان بالله واحدا أحدا حيث استطاع - سبحانه - أن يرسلها اليهم من غير وساطة ومن غير أسباب معتاده وهم يعرفون أن النوق تأتى من النوق لكن هذه

لم تلد ها ناقه وانما وجدت أمامهم بغير الأسباب المعتاده فهى خارقة هى معجزة بل هى آية من عند الله لكنهم لم يصدقوا بتلك الآية ... لم تكن مطية يمتطونها الى الجنة وانما كانت مطية يمتطونها لتقذف بهم الى جهنم .

٢ - ثم ان ذكرها فى القرآن كآية أرسلها الله فكذب بها القوم وحل ما حل بهم يحتم ضرورة التصديق بآيات الله مهما كانت .

٣ - كانت سببا فى عدم استحباب طلب الآيات من الله حيث قال عليه الصلاة والسلام : (لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فأخذتهم الصيحة فلم يبق منهم الا رجل واحد كان فى حرم الله ، قالوا : من هو ؟ قال ذاك أبو رغال فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه)[١].

.....

(١) مسند الامام أحمد ٢٩٦/٣

الملامح البلاغية للنظم الحكيم

في " ناقة الله "

في قول الله تبارك وتعالى :

" والى ثمود أخاهم صالحا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ، واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ، قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا انا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا انا بالذى آمنتم به كافرون ، فعقروا الناقه وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين ، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ، فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين "(١).

---

(١) ٧٣ - ٧٩ الأعراف ٧

١ - الايجاز بالحذف فى " والى ثمود أخاهم صالحا " أى وأرسلنا الى ثمود أخاهم صالحا . وأخر المفعول فى هذا النظم الحكيم (صالحا) ليمكن وصفه بأنه أخا المرسل اليهم مضافا الى ضميرهم " أخاهم " ولولا تقديم معمول حرف الجر " والى ثمود " لما أمكن ارجاع الضمير اليهم ، لأنه يكون حينئذ متأخرا لفظا ورتبة . ولكان التركيب هكذا : وأرسلنا صالحا الى ثمود أخاهم . وليس فيه ما فى التركيب القرآنى من الاحكام والفخامة وفى التعبير بـ " أخاهم" اشعار بأنه منهم يعرفون صلاحه وسيرته ولغته فهو ليس بغريب عنهم .

٢ - تعميم النفى الشامل لكل أفراد الآلهة المتوهمين وهذا مستفاد من دخول " من " على النكرة " اله " والقاعدة أن النكرة فى سياق النفى تفيد العموم فاذا دخلت عليها " من " هذه ازدادت عموما والمقصود وليس لكم اله أى اله غير الله فالله وحده هو (الهكم) .

٣ - التفصيل بعد الاجمال ، أو البيان بعد الايهام فى قول الله تعالى : " قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية " فقد أبهم أمر البينة ثم بينها بأنها " ناقة الله " وأشار اليها

باسم الاشارة الموضوع للقريب " هذه " للدلالة على وضوحهـــا وجلاء شأنها فليست لديهم مشقة فى الوقوف على حقيقتها وأضاف الناقة الى اسم الجلاله " الله " ليبين لهم أنها من صنع اللـه وتدبيره وحكمته . وذلك له مدخل عظيم فى تحقيق الايمـــان بالله . وهو أصل الدعوة الى الخير .

٤ - تجسيم المعنى وتقريره وتهويل شأنه فى اسناد الأخذ الى العذاب " فيأخذكم عذاب أليم " لأن الشيء المأخوذ لا يبقى له أثر وهذه استعارة عن " الاهلاك " وقد زاد من هول الموقف وصف العذاب بأنه أليم . أى مؤلم .

٥ - مراعاة الشمول فى جواب المؤمن على سؤال الكافرين . فهم قد سألوهم سؤال انكار واستبعاد : " أتعلمون أن صالحا مرسل من ربـه " فقد سألوهم عن العلم بالرسالة والعلم لا يكفى فى تحقيق الايمان . لذلك قال المؤمنون : " انا بما أرسل به مؤمنـون " وفى هـذا الجواب اعراض عن ظاهر السؤال وقد تحقق منه : الاعتراف بالرسالة . ثم الايمان بها . فهم لم يقولوا نعلم أنه مرسل لأن العلم غـــير الايمان لذلك كان جوابهم أشمل وأوفى ففيه : اثبات العلـــم المسئول عنه مع الاقرار والايمان بموضوع الرسالة . وعبروا عـــن

ايمانهم بالاسم " مؤمنون " دون الفعل : " نؤمن " للدلالة على أن ايمانهم ثابت ومستمر ، لأن الاسم يدل على الثبوت مع الاستمرار والفعل يدل على التجدد والحدوث .

٦ - تعريف الناقة بالألف واللام " فعقروا الناقة " ولم يعرفها بالاضافة كما سبق " ناقة الله " لأن فى التعريف بالألف واللام وفاء بالمعنى المراد مع الايجاز وأل هذه للعهد الذكرى ، لأن المعرف بها هنا قد سبق ذكره . وفى عطف الفعل بالفاء " فعقروا " دلالة على أنهم ارتكبوا هذه الجريمة ، فور قولهم للمؤمنين :

" انا بما آمنتم به كافرون " .

أما الجريمة الثانيه وهى عتوهم عن أمر ربهم ،

والجريمة الثالثة وهى تحديهم لنبى الله صالح : " ائتنا بما تعدنا " فقد عطفت بالواو على " فعقروا " للاشارة على أنهم جمعوا بين هذه المقابح الثلاثة :

عقر الناقه - عتوهم عن أمر الله - تحديهم نبى الله صالحا - عليه السلام .

٧ - وفى عطف أخذهم بالرجفة بالفاء المشعرة بمعنى السببيـــة ايذان بأن أخذ الرجفة اياهم كان مسببا عن جرائمهـــــم وانه وقع بدون تراخ لشناعة افعلوا . وفى اسناد الأخذ الـى الرجفة والآخذ هو الله مجاز عقلى علاقته السببيـــة .

والله أعلم .

---

*

١٣ - نملة سليمان - عليه السلام -

التى نادت على النمل أن يدخل مساكنه

فى قول الله تبارك وتعالى :

" حتى اذا أتوا على وادى النمل قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون "(١).

تأتى قصة هذه المعجزة (معجزة حديث النملة وفهم سليمان لها) قبل قصة معجزة الهدهد الذى تكلم مع سليمان وفهم له أيضا) وكلا المعجزتين تدوران حول حديث الحيوان والطيور والحشرات وفهم سليمان عليه السلام لهم - لذا فاننى سأتحدث عن المعجزتين معا : معجزة النملة .

١٤ - معجزة الهدهد

فى قول الله تبارك وتعالى :

" وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين . فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين . . . . "(٢)

---

(١) ١٨ النمل ٢٧

(٢) ٢٠ - ٢٢ النمل ٢٧

ان الطيور والحيوان والحشرات عالم نجهل الكثير عنه ،

وان كان العلم الحديث قد كشف الكثير عنه لكننا لا نزال نعتقد أن هذا العالم لا يفهم شيئا ونعامله دون أى اعتبار لمتطلباته وأكثر من هذا فان البعض يعتقد أنه لا يحس وهذا كله جهل أو تجاهل منا عن حقيقة ذلك العالم وما يجب أن نعرفه هو : (أننا نحن الذين لا نفهم لغته ومنطقه وليس هو الذى لا يفهم بدليل/حين نحاول أن نتقرب من ذلك العالم ونفهم شيئا عنه فاننا نستطيع ذلك . .

اذا فالطيور والحيوان والحشرات عالم خاص وبمعنى آخر الطيور والحيوان والحشرات أمم أمثالنا . . . هكذا أخبرنا - سبحانه - عنهم حين قال : " وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم "(١) أى أنهم يأكلون ويشربون ويتزاوجون وبينهم الألفة والعداء ولهم روابط معينة تربط بعضهم ببعض وعالم لا ندركه وحياة يعيشونها مثلما لنا حياة نعيشها وهذا حتما لا يتم الا بالتفاهم فيما بينهم والتفاهم لا يتم الا بوسائل - هى لغاتهم ومنطقهم فيما بينهم - ونحن نلاحظ ذلك (فى حياة أنواع كثيرة من الطيور والحيوان والحشرات ويجتهد علماء هذه الأنواع فى ادراك شىء من لغاتها ووسائل التفاهم بينها عن طريق الحدس والظن لا عن الجزم واليقين . فأما ما وهبه الله لسليمان - عليه السلام -

---

(١) ٢٠ - ٢٢ النمل ٢٧

فكان شأنا خاصا به على طريق الخارقة التى تخالف مألوف البشر . لا على طريق المحاولة منه والاجتهاد لتفهم وسائل الطير وغيره فى التفاهم، على طريق الظن والحدس ، كما هو حال العلماء اليوم ...)[1]

ويضيف الأستاذ سيد قطب :

(أحب أن يتأكد هذا المعنى ويتضح لأن بعض المفسرين المحدثين ممن تبهرهم انتصارات العلم الحديث يحاولون تفسير ما قصه القرآن عن سليمان - عليه السلام - فى هذا الشأن بأنه نوع من ادراك لغات الطير والحيوان والحشرات على طريق المحاولات العلمية الحديثة ، وهذا اخراج للخارقة عن طبيعتها ، وأثر من آثار الهزيمة والانبهار بالعلم البشرى القليل ! وانه لأيسر شىء وأهون شىء على الله ، أن يعلم عبدا من عباده لغات الطير والحيوان والحشرات هبة لدنية منه ، بلا محاولة ولا اجتهاد وان هى الا ازاحة لحواجز النوع التى أقامها الله بين الأنواع. وهو خالق هذه الأنواع !)[2] .

اذا فالخارقة ذات شقين فهى من جهة سليمان - عليه السلام - تبدو فى أنه فهم لغة تلك الأنواع من الطير والحيوان والحشرات التى سجل

---

(١) ١٣٨/١٩ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

(٢) ١٣٨/١٩ المصدر نفسه .

القرآن ذكرها والتى هى موضع بحثنا . .

أما من جهة تلك الأنواع التى فهم لغتها سليمان فما هو وجه الاعجـــاز فيها ؟ هل يختلف ادراكها عن ادراك نظائرها فى أمتها ؟

نعم . . لقد وهبها الله - سبحانه - ادراكا خاصا أعلى من ادراك نظائرها فى أمة النمل وفى أمة الطير يبدو ذلك فى قصة النملة الـــتى فهمت أن هذا سليمان وجنده ونادت على النمل أن يدخل مساكنه ، كما (يبدو ذلك فى قصة الهدهد الذى أدرك من أحوال ملكة ســبـأ وقومها ما يدركه أعقل الناس وأذكاهم وأتقاهم)[1] ، فكلاهما حتما على طريق الخارقة والاعجاز، صحيح (ان سنة الله فى الخلق جرت على أن يكـون للطير ادراك خاص يتفاوت فيما بينه ، ولكنه لا يصل الى مستوى ادراك الانسان ، وان خلقة الطير على هذا النحو حلقة فى سلسلة التناســق الكونى العام . وانها خاضعة - كحلقة مفردة - للناموس العام ، الـذى يقتضى وجودها على النحو الذى وجدت به .

وحقيقة أن الهدهد الذى يولد اليوم، هو نسخة من الهدهد الذى وجد منذ ألوف أو ملايين من السنين ، منذ أن وجدت الهداهد . وأن هناك عوامل وراثة خاصة تجعل منه نسخة تكاد تكون طبق الأصل من الهدهـــد

---

(١) ١٣٩/١٩ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

الأول . ومهما بلغ الأول . ومهما بلغ التحوير فيه ، فهو لا يخرج من نوعه ، ليرتقي الى نوع آخر . . وان هذا - كما يبدو - طرف من سنة الله في الخلق ، ومن الناموس العام المنسق للكون)[1] . هاتين حقيقتين ثابتتين معروفتين لدى البشر ولكن ! ألا يمكن أن تقع في هاتين الحقيقتين الخارقة فيصبح هذا المألوف لدى الانسان غير مألوف ؟

يجيب الأستاذ سيد قطب بأن (هاتين الحقيقتين الثابتتين لا تمنعان أن تقع الخارقة عندما يريدها الله خالق السنن والنواميس ، وقد تكون الخارقة ذاتها جزءا من الناموس العام ، الذي لا نعرف أطرافه . جزء يظهر في موعده الذي لا يعلمه الا الله ، يخرق المألوف المعهود للبشر ، ويكمل ناموس الله في الخلق والتناسق العام . وهكذا وجد هدهد سليمان وربما كل الطائفة من الطير التي سخرت له في ذلك الزمان)[2] .

ولنرى هاتين المعجزتين : معجزة النملة ومعجزة الهدهد مع سليمان ما هي قصتهما وكيف وقعتا وما هو قول القرآن فيهما ؟

يبدأ التمهيد في القرآن لهذه النعمة أو هذه المعجزة التي وهبها الله سليمان - عليه السلام - من قوله تعالى :

---

(١) ١٣٩/١٩ في ظلال القرآن لسيد قطب .

(٢) نفس المصدر السابق .

" ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين . وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء ان هذا لهو الفضل المبين "(١) .

كان داود نبيا قبل سليمان - عليهما السلام - وقد آتاهما الله نعما عظيمة ومن أبرزها نعمة العلم . (فأما عن داود فقد ورد تفصيل ما آتاه الله من العلم فى سور أخرى . منها تعليمه الترتيل بمقاطع الزبور ، ترتيلا يتجاوب به الكون من حوله فتؤوب الجبال معه والطير ، لحلاوة صوته ، وحرارة نبراته ، واستغراقه فى مناجاة ربه ، وتجرده من العوائق والحواجز التى تفصل بينه وبين ذرات هذا الوجود . ومنها تعليمه صناعة الزرد وعدة الحرب ، وتطويع الحديد له ، ليصوغ منه هذا ما يشاء . ومنها تعليمه القضاء بين الناس ، مما شاركه فيه سليمان .

وأما سليمان ففى هذه السورة تفصيل ما علّمه من منطق الطير وما اليه ، بالاضافة الى ما ذكر فى سور أخرى من تعليمه القضاء ، وتوجيه الرياح المسخرة له بأمر الله .)(٢) .

وما يهمنا من تلك النعم التى أنعم الله بها على سليمان هى نعمة

---

(١) النمل ٢٧ - ١٥ - ١٦

(٢) فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١ ١٣٦/١٩

تعليمه منطق الطير فهذه معجزة ترتبت عليها معجزات :

" وورث سليمان داود " قد تكون هذه الوراثة هى وراثة النبوة والملك والعلم اضافة الى علمه (ولكن الملك لا يذكر فى صدر الحديث عن نعمة الله عليه وعلى سليمان . انما يذكر العلم . لأن الملك أصغر من أن يذكر فى هذا المجال !)[1] .

لم توضح الآية الكريمة نوع هذه الوراثة الا أن المفهوم انها وراثة العلم (لأنه هو القيمة العليا التى تستأهل الذكر ويؤكد هذا اعلان سليمان فى الناس : " قال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شىء ان هذا لهو الفضل المبين " فيظهر ما علمه من منطق الطير ويحمل بقية النعم مع اسنادها الى المصدر الذى علمه منطق الطير وليس هو داود فهو لم يرث هذا عن أبيه وكذلك ما أوتيه من كل شىء انما جاء من حيث جاءه ذلك التعلم "[2]

المهم أن سليمان أعطى ملكا لم يعط لأحد غيره كما طلب من ربه حيث قال : " رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى "[3] وأعطى النبوة وأعطى العلم فهذه نعم جليله أرادها سبحانه أن تكون اختبارا لعبده

---

(١) ١٣٧/١٩ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

(٢) ١٣٧/١٩-١٣٨ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

(٣) ٣٥ ك ص ٣٨

وقد عرف سليمان ذلك فقابلها بأجمل ما تقابل النعم قابلها بالشكر لله والاعتراف بأنها نعم . وكتب التفاسير مليئة بالتفاصيل التى تحكى تلك النعم التى وهبها الله لسليمان منها ما روى من (أن معسكره كان مائة فرسخ فى مائة : خمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للانس ، وخمسة وعشرون للطير ، وخمسة وعشرون للوحش ، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلثمائة منكوحة وسبعمائة سريه ، وقد نسجت له الجن بساطا من ذهب وابريسم (١) فرسخا فى فرسخ وكان يوضع منبره فى وسطه وهو من ذهب فيقعد عليه وحوله ستمائة ألف كرسى من ذهب وفضة فيقعد الأنبياء على كراسى الذهب ، والعلماء على كراسى الفضة وحولهم الناس ، وحول الناس الجن والشياطين وتظلله الطير بأجنحتها حتى لا يقع عليه الشمس ، وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر ، ويروى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله ويأمر الرخاء تسيره فأوحى الله اليه وهو يسير بين السماء والأرض انى قد زدت فى ملكك لا يتكلم أحد بشىء الا القته الريح فى سمعك فيحكى أنه مر بحراث فقال : لقد أوتى آل داود ملكا عظيما ، فألقته الريح فى أذنه ، فنزل ومشى الى الحراث وقال : انما مشيت اليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه ، ثم قال : لتسبيحة واحدة

---

(١) الابرسيم : أحسن أنواع الحرير .

يقبلها الله خير مما أوتى آل داود)[1] .

هذه التفاصيل في ملك سليمان وأكثر منها وردت في كتب التفاسير لكن ما يهمنا هو ما جاء في القرآن وما يخص الحيوان منها ، كهذا الاعلان الذى أعلنه سليمان - عليه السلام - في الناس : " وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ان هذا لهو الفضل المبين " انه يشهر بنعمة الله وينوه بها اعترافا بمكانها (ودعاء للناس الى التصديق بذكر المعجزة التى هى علم منطق الطير وغير ذلك مما أوتيه من عظائم الأمور ، والمنطق كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف المقيد وغير المقيد ... والذى علمه سليمان من منطق الطير هو ما يفهم بعضه من بعض من معايشه وأغراضه)[2] . وتعليم منطق الطير لانسان لا يملكه الا الله ومن ثم قال سليمان - عليه السلام : " ان هذا لهو الفضل المبين" . ثم يبين - سبحانه - مظاهر هذه النعم التى أنعم بها على سليمان فيقول : " وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون."

انه لموكب عظيم يدل على عظمته قوله (حشر) فهو محشود محشور من

---

(١) ٣/ ١٤٠ - ١٤١ الكشاف للزمخشرى - الطبعة الأخيرة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م.

(٢) ٣/ ١٤٠ المصدر السابق

جنود مجنيد تحت امرة سليمان كما يدل على عظمته أنه مؤلف من ثلاثة أمم هم : الجن والانس والطير !

(والانس معروفون أما الجن فهم خلق لا نعرف عنهم الا ما قصه علينا من أمرهم فى القرآن وهو أنه خلقهم من مارج من نار أى من لهيب متوج من النار . وأنهم يرون البشر والبشر لا يرونهم)(١) . وقد كان لهم شأن كبير مع سليمان حيث صنعوا له العجائب وفعلوا ما لم يستطع الانس فعله وكانوا يخضعون لأوامره ولا يستطيعون معصيته .

أما الطير فقد كانت طائفة منه مسخرة لسليمان ولم يكن جميع الطير فى الأرض مسخرين لسليمان كما لم يكن جميع الانس وجميع الجن مسخرين له،ذلك (أن ملكه لم يتجاوز ما يعرف الآن بفلسطين ولبنان وسوريا والعراق الى ضفة الفرات)(٢) انما كانت طائفة من كل أمة على السواء .

ويستدل الأستاذ سيد قطب على ذلك بقوله :

(ونستند فى مسألة الطير الى أن سليمان حين تفقد الطير علم بغيبة الهدهد . ولو كانت جميع الطيور مسخرة له ،محشورة فى موكبه ، ومنها جميع الهداهد ،ما استطاع أن يتبين غيبة هدهد واحد من ملايين الهداهد فضلا على بلايين الطير . ولما قال : مالى لا أرى الهدهد ؟

---

(١) ١٩/ ١٣٩ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

(٢) ١٩/ ١٤٠ المصدر السابق

فهو اذن هدهد خاص بشخصه وذاته، وقد يكون هو الذى سخر لسليمان من أمة الهداهد أو يكون صاحب النوبه فى ذلك الموكب من المجموعة المحدودة العدد من جنسه . ويعين على هذا ما ظهر من أن ذلك الهدهد موهوب ادراكا خاصا ليس من نوع ادراك الهداهد ولا الطير بصفة عامة . ولا بد أن هذه الهبة كانت للطائفة الخاصة التى سخرت لسليمان ، لا لجميع الهداهد وجميع الطيور ، فان نوع الادراك الذى ظهر من ذلك الهدهد الخاص فى مستوى يعادل مستوى العقلاء الأذكياء الأتقياء من الناس)(١)

ومع ضخامة هذا الموكب وعظمته وتنوع جنوده من ثلاث أمم (فهم يوزعون) أى (توقف سلاف العسكر حتى تلحقهم التوالى فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد وذلك للكثرة العظيمة)(٢) . فلا يتفرقوا وتشيع فيهم الفوضى بل يبدو منظمين محتشدين ومن ثم سماهم سبحانه جنود حين قال :

" وحشر لسليمان جنوده " اشارة الى الحشد والتنظيم .

ويسير هذا الموكب العظيم من الجن والانس والطير فى ترتيب ونظام " حتى اذا أتوا على واد النمل " أى مروا على واد يكثر فيه النمل

---

(١) ١٩/ ١٤٠ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

(٢) ٣/ ١٤١ الكشاف للزمخشرى الطبعة الأخيرة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م .

ولكثرة النمل فيه اضافة التعبير الى النمل فسماه (وادى النمل) قيل أن هذا الوادى بالشام فحينما مر سليمان وجنده على هذا الوادى .

" قالت نملة (١) : يا أيها النمل أدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون "

وهنا نأتى الى المعجزة الثانية (معجزة ادراك النملة أن هذا سليمان وجنده ومناداتها للنمل بأن يدخل مساكنه)

والنمل - كما لوحظ - أنه يعيش فى مملكة (كمملكة النحل دقيقة التنظيم تتنوع فيها الوظائف وتؤدى كلها بنظام عجيب ، يعجز البشر غالبا عن اتباع مثله ، على ما أتوا من عقل راق وادراك عال) (٢) . وربما أن لهم ملكة كما أن للنحل ملكة يبدو ذلك من تلك النمله التى تأمر النمل أن يدخل مساكنه فكأن لها صفة الاشراف والتنظيم وهى أنثى وليست ذكرا أثبت ذلك أبو حنيفة - رحمه الله - فعن (قتاده أنه دخل الكوفه فالتف عليه الناس فقال : سلوا عما شئتم ، وكأن أبو حنيفة - رحمه الله - حاضرا

---

(١) النملة : حشرة خفيفة ضئيلة الجسم من رتبة غشائيات الأجنحة وقسم ذوات الحمه ، تتخذ سكنها تحت الأرض وتعيش فى جماعات من أفراد نوعها دائبة متعاونه (ج) نمل ونمال ٢/٩٩٥ المعجم الوسيط ط ٢

(٢) ١٩/١٤١ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

وهو غلام حدث ، فقال سلوه عن نملة سليمان أكانت ذكرا أم أنثى ؟ فسألوه فأفحم فقال أبو حنيفة : كانت أنثى . فقيل له من أين عرفت ؟ قال : من كتاب الله وهو قوله ـ قالت نملة ـ ولو كانت ذكرا لقال : قال نملة ، وذلك أن النملة مثل الحمامة والشاة فى وقوعها على الذكر والأنثى فيميز بينهما بعلامة نحو قولهم حمامة ذكر وحمامة أنثى وهو وهى)[1] .

وكان قول النملة للنمل : " يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون " بالوسيلة التى تتفاهم بها أمة النمل ، وباللغة المتعارفة بينها . .

ويأتى الشق الثانى من المعجزة (معجزة ادراك سليمان لما قالت النملة) وهذا تطبيق لما قاله سليمان : " علمنا منطق الطير " قيل أنه سمع كلامها من ثلاثة أميال وليس هذا مهما انما المهم أنه سمع كلامها وفهم ما تقوله بدليل أنه تبسم ضاحكا من قولها : " فتبسم ضاحكا من قولها " ومعنى تبسم ضاحكا : (تبسم شارعا فى الضحك وآخذ فيه يعنى أنه قد تجاوز حد التبسم الى الضحك)[2] . وكان الداعى الى ذلك هو انشراح صدره من ناحيتين :

الناحية الأولى : انشراح صدره لادراكه قول النمله فهذه معجزة تحققت فيه ونعمة من الله من عليه بها حيث وصله بهذه العوالم المحجوبة

---

(١) ٣/١٤٢ الكشاف للزمخشرى الطبعة الأخيرة ١٣٨٥ هـ ١٩٦٦م

(٢) المصدر السابق

المعزولة عن الناس لاستغلاق التفاهم بينها وقيام الحواجز لكن سليمان اخترق هذه الحواجز بقدرة الله حين أراد له ذلك فعلمه منطق الطير بلا محاولة ولا اجتهاد وأزاح حواجز النوع التى أقامها بين الأنواع فهو خالق هذه الأنواع وليس صعبا عليه أن يعلم عبدا من عباده لغات الطير والحيوان والحشرات أو أن يعلم هذه الأنواع من الطير والحيوان والحشرات لغة الانسان كل ما هنالك أنه اذا أراد شيئا يقول له (كن فيكون) .

الناحية الثانية : انشراح صدره لأن ادراك النمله - أن هذا سليمان وجنوده - فى حد ذاته بهذه الصوره وفهم النمل ما قالته شئ عجيب من العجائب حيث أن من الممكن أن (تدرك النملة أن هؤلاء خلق أكبر، وأنهم يحطمون النمل اذا داسوه ، وقد يهرب النمل من الخطر بحكم ما أودع الله فيه من القوى الحافظة للحياة . أما أن تدرك النملة أن هذه الشخوص هى سليمان وجنوده ، فتلك هى الخارقة الخاصة التى تخرج على المألوف وتحسب فى عداد الخوارق فى مثل هذه الحال .)(١)

هذا ما أدركه سليمان وهذا ماهز مشاعره ورد قلبه الى ربه الذى أنعم عليه بهذه النعمة فبادر قائلا : " رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى

---

(١) ١٩/ ١٤٢ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين " طلب من الله أن يجمع جوارحه ومشاعره ولسانه وجنانه وخواطره وخلجانه وطاقاته أولها على آخرها وآخرها على أولها ، كل ذلك يتلخص فى قوله (أوزعنى) فهذا هو المدلول اللغوى لها ، ليكون كل ذلك فى شكر نعمة الله عليه وعلى والده فما منّ عليه به ليس شيئا يسيرا بل هى معجزة عظيمة فى سلسلة معجزات وقعت لسليمان - عليه السلام - ومن هذه المعجزات قصة الهدهد الذى أدرك من أحوال ملكة سبأ وقومها ما يدركه أعقل الناس وأذكاهم وأتقاهم وأخبر به سليمان - عليه السلام - وقد وردت قصة الهدهد مع سليمان - عليه السلام - فى كتب التفاسير بطرق مختلفه منها : (أن سليمان حين تم له بناء بيت المقدس تجهز للحج بحشره ، فوافى الحرم وأقام به ما شاء وكان يقرب كل يوم طول مقامه بخمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة ، ثم عزم على السير الى اليمن ، فخرج من مكة صباحا يؤم سهيلا فوافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر ، فرأى ارضا حسناء أعجبته خضرتها ، فنزل ليتغدى ويصلى فلم يجدوا الماء ، وكان الهدهد قناقه ، وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى الماء فى الزجاجة ، فيجئ الشياطين فيسلخونها كما يسلخ الاهاب ويستخرجون الماء فتفقد ،

لذلك ، وحين نزل سليمان حلق الهدهد فرأى هدهدا واقفا فانحط عليه ، فوصف له ملك سليمان وما سخر له من كل شيء ، وذكر له صاحبه ملك بلقيس وأن تحت يدها اثنى عشر ألف قائد تحت كل قائد مائة ألف ، وذهب معه لينظر فما رجع الا بعد العصر ، وذكر أنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان فنظر فاذا موضع الهدهد خال ، فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده علمه ، ثم قال لسيد الطير وهو العقاب : علىّ به ، فارتفعت فنظرت فاذا هو مقبل فقصدته ، فناشدها الله وقال : بحق الله الذى قوّاك وأقدرك علىّ الا رحمتنى ، فتركته وقالت : " ثكلتك أمك ان نبى الله قد حلف ليعذبنك ، قال : وما استثنى ؟ قالت بلى قال : أو ليأتينى بعذر مبين فلما قرب من سليمان أرخى ذنبه وجناحيه يجرّها على الأرض تواضعا له ، فلما دنا منه أخذ برأسه فمدّه اليه فقال : يا نبى الله أذكر وقوفك بين يدى الله ، فارتعد سليمان وعفا عنه ثم سأله تعذيبه : أن يؤدب بما يحتمله حاله ليعتبر به أبناء جنسه)[1] .

ولنعد الى قصة الهدهد فى القرآن لنرى كيف جاءت فهذا ما يهمنا :

---

(١) ٣/١٤٣ الكشاف للزمخشرى الطبعة الأخيرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م

بعد أن ذكر السياق القرآنى قصة النملة مع سليمان وما تلى ذلك من شكر لله على نعمته استمر فى الحديث عنه فى مجال تعلم سليمان منطق الطير: " وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين . انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما يخفون وما يعلنون . الله لا اله الا هو رب العرش العظيم . قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين اذهب بكتابى هذا فالقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون "(١) وهنا ينتهى دور الهدهد ويكمل السياق القصة التى بدأها الهدهد الى أن ينتهى الأمر باسلام تلك الملكة مع سليمان : قالت رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين "(٢) .

---

(١) ٢٠ - ٢٨ النمل ٢٧

(٢) ٤٤ النمل ٢٧

ان قصة الهدهد مع سليمان وملكة سبأ (مقطعة الى ستة مشاهد ، بينها فجوات فنية ، تدرك من المشاهد المعروضة ، وتكمل جمال العرض الفنى فى القصة ، وتتخللها تعقيبات على بعض المشاهد تحمل التوجيه الوجدانى المقصود بعرضها فى السورة وتحقق العبرة التى من أجلها يساق القصص فى القرآن الكريم وتتناسق التعقيبات مع المشاهد والفجوات تنسيقا بعيدا من الناحيتين : الفنية الجمالية ، والدينية الوجدانية ، ولما كان افتتاح الحديث عن سليمان قد تضمن الاشارة الى الجن والانس والطير ، كما تضمن الاشارة الى نعمة العلم ، فان القصة تحتوى دورا لكل من الجن والانس والطير ويبرز فيها دور العلم كذلك . وكأنما كانت تلك المقدمة اشارة الى أصحاب الأدوار الرئيسية فى القصة . . وهذه سمة فنية دقيقة فى القصص القرآنى .

كذلك تتضح السمات الشخصية والمعالم المميزة لشخصيات القصة : شخصية سليمان ، وشخصية الملكة ، وشخصية الهدهد ، وشخصية حاشية الملكة . كما تعرض الانفعالات النفسية لهذه الشخصيات فى شتى مشاهد القصة ومواقفها)[1] . لكننا سنكتفى من القصة بشخصية الهدهد وشخصية سليمان حيث وقعت لهما المعجزة (معجزة حديث الهدهد لسليمان

---

(١) ١٤٣/١٩ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

وادراكه لكل الأحداث ، ومعجزة فهم سليمان لما قاله الهدهد) وان كان ما حدث بعد ذلك فى بقية القصة التى بدأها الهدهد هو أحداث مشوقه بين ملكة سبأ وسليمان - عليه السلام - لكنها ليست هى المعجزة التى هى مدار بحثنا : ويكون التمهيد للمعجزة بتفقد سليمان للطير :

" وتفقد الطير فقال : مالى لا أرى الهدهد ؟ أم كان من الغائبين؟ لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين " يتفقد الطير وهو الملك النبى الذى أزاح الله عنه حاجز النوع المقام بين الأنواع فكان له شأن مع تلك الأنواع ، يتفقد الطير وهو فى مركبة الفخم الضخم الذى يسير فى عرض عسكرى عام والذى يتألف من الجن والأنس والطير . . .

وحين تفقده للطير لم يجد الهدهد . (ونفهم من ذلك أنه هدهد خاص ، معين فى نوبته فى هذا العرض. وليس هدهدا ما من تلك الألوف أو الملايين التى تحويها الأرض من أمة الهداهد . كما ندرك من افتقاد سليمان لهذا الهدهد سمة من سمات شخصيته : سمة اليقظة والدقة والحزم . فهو لم يغفل عن غيبة جندى من هذا الحشر الضخم من الجن والانس والطير ، الذى يجمع آخره على أوله كى لا يتفرق وينتكث)[1] ، ويتساءل عن سبب غيابه : " مالى لا أرى الهدهد ؟ أم كان من الغائبين ؟"

---

(١) ١٤٣/١٩ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

فعلا انه غائب ولم يكن يعلم بغيابه ذلك الحشر ولكنهم تفطنوا لذلك عندما سأل سليمان عن غيابه وتحقق من ذلك وهنا يجب أن يؤخذ الأمر بالحزم والشدة كى لا تراود لأحد نفسه من هذا الحشر أن يتغيب دون اذن سليمان كما فعل هذا الهدهد ومن ثم نرى سليمان الملك القائد الذى يعرف كيف يسوس هذا الحشر نراه يتهدد هذا الجندى الغائب المخالف فيقول : " لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه " فأرعدت هذه الشدة بقية الجنود فى موكبه وتم المطلوب منها وهو ألا يتغيب جندى بغير اذن سليمان فليس الأمر فوضى ولكن بالنسبة للهدهد لم يكن موجودا فلم يسمع هذا التهديد ولم يكن من العدل أن يأخذه بالعقاب دون أن يعرف سبب غيابه وسليمان هو الملك النبى الذى لم يبعث جبارا فى الأرض ولم يضع سبحانه تحت امرته هذه الجنود من الجن والانس والطير ليبطش بها لا . . . لذا نراه يستثنى فيقول : " أو ليأتينى بسلطان مبين " أى لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليتأتينى بحجة قوية توضح سبب غيابه وتكون مقنعه لتصرفه . .

وفى هذه الأثناء يحضر الهدهد ، يحضر ومعه السلطان المبين يحضر ومعه الحجة القوية التى تبرر سبب غيابه بغير عذر يحضر ومعه أنباء عظيمة لها علاقة قوية بسليمان النبى الذى يدعو الى عبادة الله وترك كل

عبادة دون عبادة الله . ترى ما هى هذه الأنباء التى حصل عليها طائر ضعيف كبقية الطيور ؟ لقد حط هذا الهدهد بالقرب من سليمان ولم يظل مكوثه بالقرب منه بل سارع قائلا : (أحط بما لم تحط به " (ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على اسراعه خوفا من سليمان وليعلم كيف كان الطير مسخرا له ، ولبيان ما أعطى من المعجزه الدالة على نبوته وعلى قدرة الله) (١) .

" فمكث غير بعيد فقال : أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين . انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السماوات والأرض ويعلم ما يخفون وما يعلنون . الله لا اله الا هو رب العرش العظيم " انها لمفاجأة عظيمة لسليمان ولمن سمع بهذا الحدث لأول مرة فى القرآن !! هدهد يأتى بكل هذه الأخبار !

هدهد يدرك ما لم يدركه سليمان وهو الذى قد أعطاه الله ملكا لا ينبغى لأحد بعده فسخر له الجن والأنس والطير والريح هدهد يسبق هؤلاء

---

(١) ٣/ ١٤٣ الكشاف للزمخشرى - الطبعة الأخيرة ١٣٨٥هـ-١٩٦٦م

جميعا بما فيهم الجن ويأتى سليمان بنبأ الملكة! لا شك انها أكثر من مفاجأة انها المعجزة التى أرادها الله لأن تقع فى هذا الهدهد وهو أحد جنود سليمان : " أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين" لقد اضطر الملك لأن يسمع له بهذه البداية التى بدأ بها حديثه قبل أن يثار موضوع غيبته حيث أنه يعرف ضعفه كطائر ويعرف قوة سليمان وشدته وحزمه فألهمه الله أن يبدأ حديثه بتلك البداية ابتلاء لسليمان (فى علمه وتبنيها على أن فى أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علما بما لم يحط به لتتحاقر اليه نفسه ويتصاغر اليه علمه ويكون لطفا له فى ترك الاعجاب الذى هو فتنة العلماء وأعظم بها فتنة . .)(١)

ثم أخذ الهدهد فى تفصيل النبأ اليقين الذى أحاط به وجاء به الى سليمان من سبأ - وسبأ مملكة تقع فى جنوب الجزيرة باليمن - وقد كان هذا الاسم لمدينة مأرب وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث :(٢)

ماذا رأى هذا الهدهد فى هذه المملكة ؟

لقد وجد امرأة تحكم هذه المملكة " وأوتيت من كل شيء " كناية عن عظمة ملكها وما هى فيه من ثراء وحضارة وقوة ومنعة ، ويناسب ذلك كله أن لها

---

(١) ٣/١٤٣ الكشاف للزمخشرى . الطبعة الأخيرة ١٣٨٥هـ-١٩٦٦م

(٢) ٣/١٤٣ المصدر السابق بتصرف .

عرشاً عظيماً : " ولها عرش عظيم " أى كرسى ملك فخم ضخم وعظمته تكمن فى جماله وارتقاء صناعته وما بذل فيه من جهد ومال وقد قيل فى وصف هذا العرش أنه (كان ثمانين ذراعا فى ثمانين وسمكه ثمانين وقيل ثلاثين مكان ثمانين ، وكان من ذهب وفضة مكللا بأنواع الجواهر ، وكانت قوائمه من ياقوت أحمر وأخضر ودر وزمرد ، وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق)(١) .

كما قيل أن هذه المرأة هى (بلقيس بنت شراحيل ، وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها)(٢) ولم يرد اسمها فى السياق القرآنى دليلا على عدم أهميته وما ذكر هو المهم من أنها امرأة وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم وانها وقومها كانوا مجوسا يعبدون الشمس : " وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون " حقا انها لمعجزة عظيمة أن يدرك الهدهد كل هذا وأكثر من هذا أن يعلل ضلال القوم بأن الشيطان زين لهم أعمالهم فأضلهم ، فهم لا يهتدون الى عبادة الله أو ربما تكمن المعجزة فى اعلام سليمان أن الهدهد كغيره من بقية نوعه من الطيور وكالأنواع الأخرى من الحيوان والحشرات يدركون أن المستحق للعبادة هو الله

---

(١) ٣/١٤٤ الكشاف للزمخشرى الطبعة الأخيرة ١٣٨٥ هـ ١٩٦٦م

(٢) ٣/١٤٤ المصدر السابق .

الواحد الأحد لأنهم باقون على الفطرة التى خلقهم الله عليها - على عكس الانسان الذى يضل ويبتعد عن عبادة الله - ومن ثم استنكر هذا الهدهد أن يجد تلك الملكة وقومها يسجدون للشمس من دون الله وعلل ذلك بأن الشيطان هو الذى زين لهم تلك العبادة وأضلهم عن عبادة الله .

وهناك تعليلات لطيفة أوردها الزمخشرى (١) حول قصة الهدهد مع سليمان وما جاء فى كلامه لسليمان عن الملكة فيعلل أولا سبب استعظام الهدهد لعرش الملكة عندما قال : " ولها عرش عظيم " فيقول : (يجوز أن يستصغر حالها الى حال سليمان فاستعظم لها ذلك العرش . ويجوز أن لا يكون لسليمان مثله وأن عظمت مملكته فى كل شىء كما يكون لبعض امراء الأطراف شىء لا يكون مثله للملك الذى يملك عليهم أمرهم) (٢) .

ثم يعلل قول الهدهد أيضا : " وأوتيت من كل شىء " مع قول سليمان وأوتينا من كل شىء كأنه سوّى بينهما ؟

بقوله أن بين القول (فرق بين ، لأن سليمان - عليه السلام - عطف قوله على ما هو معجزة من الله وهو تعليم منطق الطير ، فرجع أولا ما أوتى من النبوة والحكمة وأسباب الدين ، ثم الى الملك وأسباب الدنيا وعطفه

---

(١) فى كتابه الكشاف ٣/ ١٤٣- ١٤٥ الطبعة الأخيرة ١٣٨٥هـ-١٩٦٦م

(٢) ٣/ ١٤٤ المصدر السابق

الهدهد على الملك ، فلم يرد الا ما أوتيت من أسباب الدنيا اللائقة بحالها فبين الكلامين بون بعيد)[١] .

ويرد على من يقول : كيف خفى على سليمان مكانها وكانت المسافة بين محطه وبين بلدها قريبة وهى مسيرة ثلاث بين صنعاء ومأرب ؟ بقوله :

(لعل الله عز وجل أخفى عنه ذلك لمصلحة رآها كما أخفى مكان يوسف على يعقوب)[٢] .

أما من يستغرب لاهتداء الهدهد الى معرفة الله ووجوب السجود له وانكار سجودهم للشمس واضافته الى الشيطان وتزيينه .

فيرد عليه بقوله :

(لا يبعد أن يلهمه الله ذلك كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوان المعارف اللطيفة التى لا يكاد العقلاء الرجاح العقول يهتدون لهـــا ، ومن أراد استقراء ذلك فعليه بكتاب الحيوان ، خصوصا فى زمن نبى سخرت له الطيور وعلم منطقها وجعل ذلك معجزة له)[٣] .

أما الهدهد فيختم كلامه مع سليمان بقوله : " الله لا اله الا هو رب العرش العظيم " وكأنه يقول حسبى أن أختم كلامى بهذا القول بعد

---

(١) ٣/١٤٤ الكشاف - الطبعة الأخيرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م

(٢) ٣/١٤٤ المصدر السابق

(٣) ٣/١٤٤ - ١٤٥ المصدر السابق .

أن أفاض فى التعبير والتعليق على الملكة وما وجدها عليه وهو يشعر فى نفس الوقت بأنه مذنب وأن الملك لم يقض فى أمره بعد ، وكأنه يذكر سليمان بعظمة الله الذى لا تقاس اليه عروش البشر فهو وحده صاحب العرش العظيم (ذلك كى يطامن الملك من عظمته الانسانية أمام هذه العظمة الالهية . . . فيلمس قلب سليمان - فى سياق التعقيب على صنع الملكة وقومها - بهذه الاشارة الخفية !

ونجد أنفسنا أمام هدهد عجيب . صاحب ادراك وذكاء وايمان وبراعة فى عرض النبأ ، ويقظة الى طبيعة موقفه ، وتلميح وايماء أريب . . . فهو يدرك أن هذه ملكة وأن هؤلاء رعية . ويدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله . ويدرك أن السجود لا يكون الا لله الذى يخرج الخبء فى السماوات والأرض وانه هو رب العرش العظيم . . . وما هكذا تدرك الهداهد ، انما هو هدهد خاص أوتى هذا الادراك الخاص ، على سبيل الخارقة التى تخالف المألوف)[1] .

وينتهى كلام الهدهد وينتظر رد الفعل من سليمان ترى ما عساه أن يفعل به بعد هذا النبأ العظيم الذى أتاه به من سبأ ؟ ويبادره سليمان بقوله : " سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب

---

(١) ١٩/١٤٥ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

بكتابى هذا فألقه اليهم ، ثم تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون "

أن سليمان نبى كريم آتاه الله الملك والحكمة والعلم والنبوة ولكنه ظل بشرا كبقية البشر لا يعلم من الأمور الاّ ما علّمه الله وعجز عن أن يعلم ما علمه الله للهدهد !

ومن ثم لم يكن له بد من أن يجرى اختبارا يتبين منه مدى صحة كلام الهدهد . ترى ما هو هذا الاختبار الذى سيجريه :

" قال : سننتظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابى هذا فألقه اليهم ثم تولّ عنهم ، فانظر ماذا يرجعون " أرسله بكتاب الى الملكة وقومها ولكن ترى ماذا كتب فى الكتاب ؟ انه سر لم يعلن عنه الا فى موعده المناسب ولم يذكر السياق أن الهدهد قد أخذ كتاب سليمان وما الذى جرى بعد ذلك ، لكنه يفهم من قول الملكة بعد ذلك أن الهدهد قد فعل كما أمره سليمان فأخذ كتابه وألقاه الى الملكة وقومها وهنا ينتهى دور الهدهد وتستمر القصة التى بدأها بين سليمان والملكة : " قالت : يا أيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم . انه من سليمان ، وانه باسم الله الرحمن الرحيم . الا تعلوا على وأتونى مسلمين" وفعلا يخبرنا السياق القرآنى بعد ذلك باسلام الملكة مع سليمان لله رب العالمين بعد اقتناع منها بعظمة الله الذى أعطى ذلك الملك لسليمان

فلا شك انه هو المستحق للعباده ومن ثم ناجته سبحانه معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره . معلنة اسلامها " مع سليمان " وليس لسليمان وان كانت قد رأت قوة الله فيما يملك من عجائب ولكنها اهتدت الى أن الله هو المسخر له تلك القوى فأسلمت : " لله رب العالمين " .

وقد علمنا فيما سبق من السياق القرآني ان هذه الملكة كانت صاحبة قوة وسلطان فى قومها وانها أوتيت من كل شيء وأن قومها حين استشارتهم فى أمر سليمان وقالت لهم : " يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون " فوضوا لها الأمر وأبدوا استعدادهم لعمل ما تريده ، فلاشك اذن من قوم هذا تصرفهم مع ملكتهم ، ومن ملكة هذه قوتها وعظمتها فى قومها لا شك أنهم سيسلمون معها ومع سليمان " لله رب العالمين " .

كل ذلك بفضل الهدهد الذى أطلعه الله على أمرهم فجاء به لسليمان وأخبره به .

انه الهدهد المعجزة فسبحان من يضع سره فى أضعف خلقه . .

. . . . . .

الغرض البياني والتربـــــــوى

من ذكر نملة سليمان التي نادت على النمل أن يدخل مساكنه

وهدهد سليمان الذى جاء لسليمان من سبأ بنبأ يقـــين

كان الغرض البيانى والتربوى من ذكر النملة فى القرآن هـو :

بيان حكمة الله فى خلقه حيث لم يخلق خلقا عبثا مهما صغر ومهما ضعـــف، بل ما دام انه كائن حى فلابد أن تكون له حياة وأن تكون له وسائل للتفاهم فيما بينه ولغة قائمة بين أفراد جنسه وهكذا كشف لنا القرآن هذه الحقيقـة وأعلمنا بأننا لسنا وحدنا - نحن البشر - الذين نملك لغة نتفاهم بها ، بل أن جميع الطيور والحيوان والحشرات لها لغات ووسائل للتفاهم فيمـا بينها ، وذلك فى مجال تعداد النعم التى أنعم الله بها على سليمان - عليه السلام - ومن جملتها تعليمه منطق الطير فكانت هذه المعجزة لسليمان - عليه السلام - وكشفت لنا هذه المعجزه - تعليم سليمان منطق الطـير - حقيقتين من قصتين : قصة النملة التى نادت على النمل أن يدخل مساكنه لئلا يحطمنهم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون .

وقصة الهدهد الذى غير مجرى حياة ملكة سبأ وقومها حيث أتى بخبرهم الى سليمان فكشفهم له فدعاهم الى عبادة الله فأسلموا .

أما الغرض البياني والتربوى من ذكر النملة فى القرآن فهو ـ كما ذكرنا ـ أن الله سبحانه جعل لكل الأنواع التى خلقها لغة ومنطق ووسائل للتفاهم ، فقصة النملة وان كانت معجزة الا أن الاعجاز لا يكمن فى أن النملة لها أسلوب للتفاهم مع بقية أفراد جنسها ولكن فى الطريقة التى أدركت بها ما أدركت حيث كان ادراكها ادراكا خاصا أعلى من ادراك نظائرها فى أمة النمل من ناحية ثم فهم سليمان وادراكه لمنطقها من ناحية أخرى .

اذن فمعجزة سليمان ـ تعليمه منطق الطير ـ كشفت لنا تلك الحقيقة : حقيقة أن لكل أمة لغة ووسائل للتفاهم فيما بينها وان كنا نجهلها نحن البشر فلأن الله سبحانه جعل بيننا وبين تلك الأنواع وتلك الأمم حواجز والدليل على أن التفاهم قائم واللغة قائمة بين أفراد تلك الأمم هو أن الله سبحانه حين علم سليمان منطق الطير فأزال ما بينه وبين تلك الأنواع من حواجز فهم سليمان وأدرك منطق تلك الأفراد وكانت النملة ـ وهى حشرة ضعيفة ضئيلة يستهين بها الانسان ويقتلها بطرف اصبعه ـ هى مثال على أن لكل أمة لغة .

أما الحقيقة الثانية التى كشفها لنا سليمان ـ عليه السلام ـ من تعليمه منطق الطير فهى : ـ

أن هذه الأمم (أمة الطير والحيوان والحشرات) تعرف الله حق قدره وتؤمن بأنه المستحق للعبادة ويظهر ذلك في قصة الهدهد الذى جاء لسليمان ـ عليه السلام ـ من سبأ بنبأ يقين وأعلمه أنه وجد في سبأ ملكة وقومها " يسجدون للشمس من دون الله " واستغرب الهدهد من هذه العبادة الباطلة وعللها بأنها من عمل الشيطان حيث قال : " وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون " ويزيد في استغرابه ويتساءل لم لا يتوجهون في عبادتهم لمن يستحق العبادة فيقول : " ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما يخفون وما يعلنون . وبعد أن ضمن أحقية الله في العبادة أعلنها صريحة واضحة فقال : " الله لا اله الا هو رب العرش العظيم ".

وهذا الهدهد وان كان معجزة حيث أدرك بتلك الطريقة وأظهر ذكاء وايمانا وبراعة في عرض النبأ ويقظه لا يمكن أن تكون لهدهد مثله فأدرك أن هذه ملكة وأن هؤلاء رعية وأنهم يسجدون للشمس من دون الله وأدرك (أن السجود لا يكون الاّ لله الذى يخرج الخبء في السماوات والأرض وانه هو رب العرش العظيم . . وما هكذا تدرك الهداهد انما هو هدهد خاص أوتى هذا الادراك الخاص على سبيل الخارقة التى تخالف المألوف)(١)

---

(١) ١٩/١٤٥ في ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

الا أن الحقيقة التى أراد السياق القرآنى أن يكشفها لنا من خلال قصة الهدهد مع سليمان لا تدخل فى الاعجاز وانما تبقى حقيقة جارية ثابته بعد أن ثبتها القرآن وهى : أن هذه الأنواع أو هذه الأمم توحد الله وتسبحه دون جحود أو عصيان أو تمرد كما يفعل الانسان وما يؤيد هذه الحقيقة هى قول الله عز وجل : " تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وان من شىء الّا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا " (١) .

فلفظ " شىء " فى قوله تعالى : " وان من شىء " يشمل المخلوقات والنبات والجماد وغير ذلك فمن باب أولى أن يكون الحيوان والحشرات والطيور تسبح لله فضلا عن أن قوله تعالى : " ومن فيهن " فى قوله : " تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن " يشمل الحيوان والحشرات والطيور أيضا ، وأخيرا فان قوله تعالى :

" لا تفقهون تسبيحهم " دليل على أن لهذه الأشياء - ومنها الحيوان والطيور والحشرات - لغة ومنطق لا نفقه نحن البشر . اذن فهذه أدلة الى جانب ما كشفه لنا سليمان أو ما أراد أن يكشفه لنا سبحانه حين علم سليمان منطق الطير تثبت أن لهذه المخلوقات لغة ودين

---

(١) ٤٤ الاسراء ١٧

ومنطق وزيادة فى الأدلة فان قوله تعالى : " علمنا منطق الطير " دليل على أن للطير منطق ..

والى جانب هاتين الحقيقتين اللتين استفدناهما من ذكر النملة والهدهد فى القرآن الكريم فان هناك أغراض تربوية أخرى من ذكر النملة والهدهد فى القرآن وهى : -

ابراز قيمة العلم وعظمة المنة به من الله على العباد وتفضيل من يؤتاه على كثير من عباد الله المؤمنين .

ثم وجوب شكر الانسان لمن وهبه هذه النعمة وهو الله كما فعل سليمان - عليه السلام - : " ولقد آتينا داود وسليمان علما . وقالا : الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ، وورث سليمان داود وقال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء ان هذا لهو الفضل المبين " ثم ان فى قصة النملة والهدهد مع سليمان (استعراض لنعم الله على العباد وآياته فى الكون ، واستخلافه للناس وهم يجحدون بآيات الله ، ولا يشكرونه ، وفى القصة نموذج للعبد الشاكر ، الذى يسأل ربه أن يوفقه الى شكر نعمته عليه ، المتدبر لآيات الله الذى لا يغفل عنها ، ولا تبطره النعمة ، ولا تطغيه القوة ..)(١)

---

(١) ١٣٥/١٩ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

القسم الثانـــى

الحيوانات التى وقعت فيهـا خـــوارق (١)

١ - دابة الأرض التى أكلت عصا سليمان - عليه الســـلام - وهو ميت فخر على وجهـــــه

فى قول الله تبارك وتعالى :

" فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأتـه فلما خر تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين (٢) " .

لقد مر بنا الحديث عن سليمان عليه السلام فى معجزتى نملة وهدهـــد سليمان وعرفنا أنه - عليه السلام - أوتى من كل شىء وأعطاه الله ملكـــا لا ينبغى لأحد غيره من بعده بناء على طلبه حيث قال : " رب اغفـر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى (٣) " والى جانب الملك كـــان نبيا وزيادة على ذلك أعطاه الله العلم والحكمة وعلمه منطق الطير وجعـــل الرياح مسخرة لأمره وجعل الجن والانس والطير جنودا له يأمرهم كمـــا يشاء فلا يعصون له أمرا قال سبحانه :

---

(١) الخوارق : جمع خارقة ، والخارقة هى الأمر غير العادى فى مألوف البشر ولا تقترن بنسبى ولا بتحدى بل قد تحدث لاناس عاديين ممن يريد الله لهم ذلك ، وعلى هذا فكل معجزة خارقة لأنها خارجـة عن مألوف البشر ولكن ليست الخارقة معجزة لأنها غير مقرونة بنسبى ولا بتحدى .

(٢) ١٤ سبأ ٣٤

(٣) ٣٥ ك ص ٣٨

" وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون "(١).

وما يزيد التركيز عليه من تلك القوى التى سخرت لسليمان أو الجنود الذين حشروا له هو : الجن الذين كانوا من جنده . والجن خلق لا نعرف عنهم الا ما قصه الله علينا من أمرهم فى القرآن وهو أنه خلقهم من مارج من نار . أى من لهيب متموج من النار . وأنهم يرون البشر والبشر لا يرونهم وقد ظلوا مسخرين لسليمان طوال حياته بأمر من الله فكانوا يبنون له المحاريب والتماثيل والجفان الكبيرة للطعام ، ويغوصون له فى البحر ، ويأتمرون بأمره وبالطبع لم يكن جميع الجن فى الأرض مسخرين لسليمان كما لم يكن كل أهل الأرض من الانس جندا له - اذ أن ملكه لم يتجاوز ما يعرف الآن بفلسطين ولبنان وسوريا والعراق الى ضفة الفرات - وانما كانت طائفة من الجن وطائفة من الانس وطائفة من الطير مسخرة له - عليه السلام -(٢).

وعاش عليه السلام ما عاش فى ذلك الملك العظيم وتلك القوة تخدمه الجن وتأتى له بالعجائب .

عاش نبيا تقيا شاكرا لله تلك النعم التى أنعم بها عليه ليختبره ويرى

---

(١) ١٧ النمل ٢٧

(٢) ١٣٩/١٩ - ١٤٠ فى ظلال القرآن لسيد قطب بتصرف ط ١

أيشكر ويعترف بأنها من عند الله أم يكفر ولكن حاشا أن يكفر ذلك النبى الذى اختاره الله لأن يكون نبيا اعترف بتلك النعم أنها من عند اللـــه وشكر ربه أتم شكر .. كان مؤمنا بحقيقة البشر : ضعاف مهما أوتوا من قوة ومن عظمة ومن ملك يعيشون فترة محدودة فى الحياة ثم يموتـون مهما طالت تلك الفترة ومهما كانت تلك الفترة ..

ان سليمان بشرا نبيا اذن لابد أن تكون له نهايـة ..

وهكذا فقد مات هذا النبى .. مات هذا الملك ..

مات من أوتى كل شىء من هذه الدنيا ..

مات من سخرت له طوائف من الجن والانس والطير ..

مات لأنه بشر فالبقاء والخلود لله الواحد الأحد ..

ولكن كيف مات هذا النبى الملك ؟

يخبرنا القرآن عن نهاية سليمان - عليه السلام - فى قول الله تبارك وتعالى :

" فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الأرض (١) تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين "

---

(١) الدابة : كل ما يدب على الأرض وقد غلب على ما يركب من الحيوان (للمذكر والمؤنث) (ج) دواب . وتصغيره : (دويبة) ولما أضاف السياق القرآنى الدابه الى الأرض فجاء (دابة الأرض) كانت هذه الدابه مخصوصة بالأرض وعلى هذا فقد تكون دابة الأرض هى =

ان مناسبة ذكر موت سليمان - عليه السلام - مرتبط بحقيقة الجن ، فالجن كل مستور لا يراه البشر ولما قضى الله بأن يكون فى خلقه طائفة لا يراهم البشر فقد سماهم جنا ولأننا لا نراهم - نحن البشر - فلا نعرف عنهم شيئا - الا ما ذكره الله عنهم - وقد ذكرهم سبحانه فى مجال تعداد الفضائل والنعم التى أنعم بها على سليمان قال سبحانه : " ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وا سلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا ، وقليل من عبادى الشكور ، فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين "(١).

= ما تسمى بالأرضه - وهو الأرجح - حيث يناسب ذكرها فى القرآن تعريف الأرضه فدابة الأرض أكلت عصا سليمان والعصا لا تكون - غالبا - الا من الخشب والأرضة : (بفتح الراء والضاد) دودة أو دويبة تأكل الخشب ونحوه ١٤/١ ، ٢٦٨ المعجم الوسيط ط ٢ بتصرف .

(١) ١٢ - ١٤ سبأ ٣٤

لقد سخر ـ سبحانه ـ هذه الطائفة من الجن " يعملون بين يديه باذن ربه " أى يعملون لسليمان ما يشاء وما يصعب على الأنس عمله وهم بالرغم من قوتهم وما يأتون به من عجائب وما يصنعون من أشياء خارجة عن طاقة البشر فهم خلق من خلق الله خاضعون لأمر الله ولا يمكنهم الخروج عن أمره ـ سبحانه ـ ومن تسول له نفسه ذلك نال عذاب الله الأليم : " ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير " ، (ولعل هذا التعقيب ـ قبل الانتهاء من قصة التسخير ـ يذكر على هذا النحو لبيان خضوع الجن لله ـ وكان بعض المشركين يعبدهم من دون الله . وهم مثلهم معرضون للعقاب عندما يزيغون عن أمر الله) (١) .

كما أن فى هذا التعقيب دليل على أن الجن لم تكن تعمل لسليمان باراداتهم وانما هم " مسخرون " شاؤا أم أبوا سخرهم الله ـ سبحانه ـ لسليمان كالآلات يعملون له ما يشاء هو . .

هذا هو ما كان من أمر الجن مع سليمان ـ عليه السلام ـ فى حياته ـ مسخرون له بأمر الله .

ولكن بعد موته ترى ماذا كان موقف الجن من سليمان وهل كانوا يعلمون بأنه سيموت ؟

---

(١) ٦٩/٢٢ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

ظل سليمان فى محرابه فترة طويله وقد جرت العاده أنه حين يكون فى محرابه فلا أحد يتجرأ بالدخول عليه سواء من الانس أو الجن أو الطير وطال انتظار هؤلاء له ولم يخرج اليهم كانت دابة الأرض - الأرضه - فى هذه الأثناء قد تسربت الى محراب سليمان - عليه السلام - بقصد أو دون قصد منها . والأرضه كما هو معروف عنها تتغذى بالأخشاب وتلتهم أسقف المنازل وأبوابها وقوائمها بشراهة فظيعة ، فى الأماكن التى تعيش فيها لكن محراب سليمان - عليه السلام - كما يفهم من الآية لم يكن به أخشاب بل كان من الأبهة والجمال بحيث يناسب ما كان لسليمان من ملك تبارت الجن والأنس فى بنائه بما لا يخطر على بال بشر ~~فقد قيل بأن أرض المحراب كانت من الرخام المغطى بالذهب . الجدران من الكريستال الشفاف وكرسى سليمان من الذهب وجدران المعبد من الأخشاب الثمينة المغطاة بصفائح الذهب~~ (١) ولم يبق أمام هذه الدوده آكلة الخشب - دابة الأرض - الا عصا سليمان - عليه السلام - المصنوعة من الخشب فأقبلت عليها تلتهمها بشراهة ~~والجرذان كانوا خاصة مع الحيوانات والحشرات~~ وكما يبدو فقد كان أكلها للعصا على مرات لأنها واحدة

---

(١) ~~ص ١٥١ قصص الحيوان فى القرآن ، أحمد بهجت يتصرف~~

فقط كما صرح القرآن بذلك : " فلما قضينا عليه الموت ما دلهم علـــى موته الا دابة الأرض " ولا يعقل أن تلتهم هذه الدابة الواحدة جزءا من عصا سليمان فى مرة واحدة . . . ظلت تنخر وتنخر فى العصا حتى اختل توازن الجسد العظيم فجأة ، جسد الملك العظيم ، جسد النـــبى الكريم وخر - عليه السلام - على الأرض اذن فقد كان - عليه الســـلام - ميتا طوال هذه الفترة ولم يعلم بموته أحد حتى خر على الأرض كانـــوا فى انتظار خروجه من المحراب كعادته لكنه فى هذه المرة لم يخرج - عليه السلام - الا محمولا فهو وان كان ملك عظيم ونبى كريم لكنه بشر قضى عليه الموت كما قضى على غيره من الناس :

" فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكـــل منسأته " أى تأكل عصاته .

وهنا نقف أمام قضيتين : -

قضية (دابة الأرض) الأرضه التى أكلت عصا سليمان

قضية : الجن حين علمت بموته بعد ما خر على الأرض .

أما القضية الأولى فهى خارقه حيث صنعت تلك الدودة ما لم يصنعـــه ولا يستطيع أن يصنعه أقوى المخلوقات .

أكلت العصا فخر سليمان على الأرض واسدلت هذه الدوده الستار على أعظم

ملك شارك فيه أعظم المخلوقات وأكبرها واعتاها فاسدلت الستار وهي أصغر المخلوقات وأبسطها وأدناها .

وكان ذلك بتدبير من الله جل جلاله حيث جعل هذه الدودة الضعيفة التى لا تكاد ترى تفعل ذلك ليقضى على خرافة انتشرت بين الناس ويصحح عقائدهم حيث اعتقد الناس فى الجن اعتقادات باطلة خاصة حين شاهدوا ما يفعله الجن لسليمان من أمور خارقة يعجز عنها الآدميون . (وكان المفروض أن يزداد الناس ايمانا بالله ، وان يزدادوا ادراكا لقدرته سبحانه ولكن الذى حدث هو انتشار الخرافة واستعلاء الوهم ، ازداد الناس اعتقادا فى قدرة الجن . . . حتى لقد قال الجهلاء ان الجن يعلمون الغيب)[1] .

ومن هنا نصل الى القضية الثانية قضية عدم اطلاع الجن على الغيب بدليل هذه الحادثة . . حادثة وقوع سليمان وعندها وبعد وقوعه تبينت الجن أن سليمان ـ عليه السلام ـ قد مات : " فلما خر تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين " .

---

(١) ١٤٨ قصص الحيوان فى القرآن . أحمد بهجت

(وقد روى انه كان متكئا على عصاه حين وافاه أجله ، والجن تروح وتجيء مسخرة فيما كلفها اياه من عمل شاق شديد ، فلم تدرك أنه مات ، حتى جاءت دابة الأرض)(١) وأكلت عصاه عليه السلام وعندها فقط وبعد فعلة هذه المخلوقة الضعيفة تبينت الجن ان سليمان قد مات!

فأين علم الغيب ذهب عن الجن فى هذا الموقف ؟

لم لم يدركوا ان سليمان قد مات ؟

لقد خدعهم منظره وهو جالس على كرسيه متكئا على عصاه . . كان ميتا - عليه السلام - وافاه أجله وهو على تلك الحال ليكشف للناس الحقيقة الكبرى : حقيقة رد الغيب لعلام الغيوب وحده وكانت هذه الحادثة مع الجن - وهم أقوى المخلوقات وثبت أنهم يأتون بالعجائب وما لا يستطيع فعله الأدميون فى زمن سليمان - عليه السلام - ليبين سبحانه أن هؤلاء الخلق الأقوياء قد اخفقوا فى أن يكون لهم علم غير ما علمهم الله اياه فما بالنا بغيرهم من المخلوقات ممن يدعى علم الغيب ؟

لقد خدع منظر سليمان وهيئته وهو جالس الجن فلم يتبينوا أنه مات لم يكن لهم الا الظاهر الا المنظر وعندما خر ذلك المنظر على الأرض تبينوا ان ذلك الجسد الطاهر قد وافاه أجله :

---

(١) ٢٢/ ٧٠ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

" فلما خر تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين" لو أنهم كانوا يعلمون الغيب أو حتى شيئا منه لعرفوا ان ذلك الملك الماثل أمامهم ميت ولفروا من خدمته ولم يؤدوا ما سخرهم له وما كلفهم به من عمل شاق لأنهم كانوا يخشون سليمان وهو حى وقد أعطاه سبحانه قوة وسلطان عليهم وجعلهم يعملون بين يديه باذنه سبحانه (ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير " فلم يكن لهم بد من الافلات مما سخروا له ولكن كان يمكنهم الافلات من ذلك التسخير الشاق لو أنهم علموا بموته حيث أن الله سخرهم له وهو حي أما بعد أن مات فلا سلطان له ولا قوة له عليهم لكنهم لم يتبينوا موته ظلوا فى خدمته حتى سقط - عليه السلام - على الأرض وعندها فقط تبينوا أنه قد مات . .

وهكذا فقد كان الغرض البيانى والتربوى من ذكر (دابة الأرض) فى القرآن الا وهو : -

١ - عدم الاستهانة بالمخلوقات الضعيفة فقد تأتى بما لا يأتى به أقوى المخلوقات فكل شيء بأمره وتدبيره سبحانه .

٢ - تصحيح العقائد فقد اعتقد الناس منذ زمن سليمان حتى نزول هذا القرآن على محمد - صلى الله عليه وسلم - أن الجن لهم معرفة واطلاع على علم الغيب فذكرت هذه الحادثة مع أضعف المخلوقات لتبين وتصحح تلك المعتقدات وتقضى على تلك الخرافات الشائعة

منذ زمن سليمان حتى نزول القرآن خاصة وقد أثيرت تلك الاعتقادات ، وانتشرت تلك الخرافات بشكل واسع بين العرب ومنهم قريش أيام النبى - صلى الله عليه وسلم - فأراد سبحانه تصحيح تلك المفاهيم ورد علم الغيب لله وحده فأورد هذه الحادثة فى القرآن وذكر دابة الأرض دليلا على فساد تلك المعتقدات حيث جعل تلك الدودة الضعيفة هى التى تدل على تلك الطائفة القوية من الجن على موت سليمان فاخضعهم بذلك لعلمه وتدبيره سبحانه . . وكأنه يقول للناس - خاصة ممن يعتقدون فى الجن القوة وعلم الغيب - ان هؤلاء الجن خلق ضعاف لا يملكون لأنفسهم شيئا لأنهم خاضعون لأمر الله ولو أنهم كانوا يملكون شيئا لاستطاعوا أن يتبينوا بأنفسهم موت سليمان ولكن الله أخضعهم لتلك الدودة الضعيفة فدلتهم على موت سليمان ليبين لهم أنهم خاضعون لتصرفه سبحانه علام الغيوب .

. . . . . .

٢ - الطير الأبابيل (١)

٣ - فيل (٢) أبرهة

الذى كلف بهدم الكعبة فقذف الله فى قلبه الرعب والخوف فسمره فى مكانه فلم يتقدم

فى قول الله تبارك وتعالى :

" ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول " (٣) .

لقد احتوت هذه السور القصيرة خارقتين وقعتا للحيوان :

خارقة الطير الأبابيل ، وخارقة فيل أبرهة حيث جرت هاتين الخارقتين فى قصة واحدة ، وقد حدثت هذه القصة عام مولد النبى محمد - صلى الله عليه وسلم فسمى ذلك العام بعام الفيل اشارة الى تلك الخارقة التى حدثت فيه وهى خارقة فيل أبرهة .

---

(١) طير وأطيار وطيور جمع طائر ، والطائر من الحيوان كل ما يطير فى الهواء بجناحين .

والأبابيل : الجماعات ويجى فى موضع التكثير كما فى قوله تعالى :

" وأرسل عليهم طيرا أبابيل " أى جماعات جماعات من الطيور ١ / ٣ المعجم الوسيط ط٢ بتصرف .

(٢) الفيل : حيوان ضخم الجسم . من الحواشب الثديية ، ذو خرطوم طويل يتناول به الأشياء كاليد ، وله نابان بارزان كبيران يتخذ منهما العاج . (ج) أفيال وفيلة وهى فيلة ٢ / ٧٠٩ المعجم الوسيط ط٢

(٣) سورة الفيل ١٠٥

أما قصة هاتين الخارقتين فتبدأ مع بداية تفكير ملك اليمن (أبرهة) فى بناء كنيسة يصرف اليها الحجيج عن الكعبة التى بناها ابراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام بأمر من الله فى مكة المكرمة فأراد هذا الملك الطاغى أن يضاهى بكنيسته هذا البناء العظيم الذى أراده الله لأن يكون قبلة للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها وأن تكون البقعة التى بها هذا البناء هى البقعة المقدسة التى تستقبل النور الأخير وتحتضن العقيدة الجديدة وينطلق منها الزحف المقدس لمطاردة الجاهلية فى أرجاء الأرض. فما هى قيمة ارادة أبرهة الطاغى أمام ارادة الله هذه ؟ وما هى قوته أمام قوة الله ؟

انها العصف المأكول !!

لقد كانت اليمن تخضع للفرس ثم طرد الفرس منها وخضعت لحكم الحبشة وكان فى هذه الفترة أبرهة هو الذى تولى الحكم على اليمن من قبل ملك الحبشة وأهم ما كان يشغله هو : توجه العرب من جميع الأقطار الى الكعبة فى مكة ففكر فى صرف العرب عن الكعبة واهتدى الى بناء كنيسة فى اليمن باسم ملك الحبشة فجمع وزراءه ومهندسيه وقال لهم :

(أريد ان ابنى معبدا يحج اليه العرب بدلا من الكعبة . .

انحنى الوزراء وقالوا سمعا وطاعة . .

التفت أبرهة الى كبير المهندسين ينتظر قراره . . قال كبير المهندسين :

يا مولاى . . نحن على استعداد لبناء معبد أكبر من الكعبة وأعظم . . .

ولكن المشكلة كلها أن العرب لا يحجون الى الكعبة لأنها بناء عظيم . .

انتفض أبرهة واقفا وسأل : لماذا يحجون الى الكعبة اذن ؟

قال كبير المهندسين : ان الكعبة بناء قائم فى الصحراء . .

والصحراء من بين كل الأمكنة التى خلقها الله هى العرى النظيف

الذى لا يقبل أنصاف الحلول . . انها تجرف من القلب كل النزوات ،

والأوهام التى تسلم الى التفكير الخاطىء ، وبهذا العرى يتحرر الانسان

من نفسه ويسلم نفسه الى " كلى " مجرد لا صورة له . . " كلى " أبعد

من كل ما هو بعيد ، ومع ذلك فهو أقرب من كل ما هو قريب . .

قال أبرهة حانقا : لا أفهمك أيها المهندس . . لماذا يحجون الى

الكعبة . .

قال كبير المهندسين : الكعبة يا مولاى هى أبسط أثر معمارى فى العالم

انها مجرد مكعب من الحجر ، وقد عرف من بنى الكعبة أن أى جمال فى

تناسق البناء أو كمال فى خطوطه أو عظمة فيه لا يمكن أن يوفى الفكرة

الالهية حقها ، وهكذا قصر نفسه على أبسط شكل يمكن أن يتصوره العقل . .

مكعب من الحجارة . .

هذا المكعب البسيط رمز لضعف الانسان وعجزه أمام الله هى رمز التوحيد (١)

وقد أغضب هذا الكلام أبرهة وانتهى الأمر الى زج كبير المهندسين فى السجن وأتى أبرهه بمهندسين آخرين وبدأ البناء يرتفع وكان معبدا مبنيا من الحجارة المطعمة بالفضة وكانت محاريبه من خشب الصندل المعطر . .

وكانت أبوابه من الذهب الابريز البندقى الأحمر وهيأ أبرهة هذا المعبد بجميع أسباب الفخامه وأسباب الراحة وفتحه لاستقبال الناس لعل كل ما فعله يصرفهم عن الكعبة ويجعلهم يقبلون على معبده هذا . .

وانتظر طويلا فلم يحج لمعبده أحد . .

فأمر السدنة والكهنة فى المعبد بأن يطلقوا فى المعبد أثمن أنواع البخور فكانوا يعطرون جوه بأجمل العطور ، وكان العطر الناعم لخشب الصندل يمتزج بأريج البخور فيصنع جوا أسطوريا . . ولكن !! كل هذا لم يأت بفائدة . . لم يجذب جمال المعبد النفوس . .

ولم تجذب روائحه العطرية القلوب والأرواح . .

مرت سنوات على افتتاحه ولم يدخله أحد من العرب بل ولا حج اليه عربى

---

(١) ١٩٥ قصص الحيوان فى القرآن ، أحمد بهجت الطبعة الأولى ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م .

واحد وبدأ أبرهه يتحول من الحزن الى الغضب الحزن لفشل كل جهوده ، والغضب لانهزامه أمام العرب وغير العرب بعد ما عمل وفى أثناء ذلك ، وبينما أبرهة يفكر فى خطة أخرى لجذب الناس الى معبده أو بالأحرى صرف الناس عن الكعبة حدث حادث بسيط فى المعبد لكنه عظيم بالنسبة لأبرهة وسيسجل اسمه فى صفحات التاريخ السوداء ان لم ينتقم لنفسه ولمعبده الذى أنشأه ولكنه لو علم بأن انتقامه سيسجل اسمه بأسوأ مما كان سيسجل لآثر عدم الانتقام :

دخل أحد البدو المعبد ذات يوم . . لم يكن أحد من الناس يعرف هذا البدوى . . ولكن دخوله المعبد كان خبرا طيرته الألسنة لأبرهة ، وانصرف البدوى من المعبد ، وفوجىء كهنة المعبد أن هذا الزائر قد قضى حاجته فى المعبد . . لا أحد يعرف هل كان الفعل ارادیا هدفه احتقار أبرهة ، أم أن الزائر فعل ما فعل بشكل عفوى نتيجة اضطراره وغربته لا أحد يعرف حقيقة نوايا هذا الزائر البدوى المجهول ، ولكن أبرهة استحال الى عاصفة حين بلغه الخبر . . حمل أبرهة ما وقع على أنه احتقار له وتهوين من شأن معبده ورفض لفكرته . . وظل أبرهة يدور فى قصره يومين وهو يهدد ويتوعد ، وفى نهاية اليومين أصدر قراره الخطير وهى المرحلة الثانية لتدمير أبرهة وجيشه .(١)

---

(١) قصص الحيوان فى القرآن . أحمد بهجت بتصرف ، ط١ - ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م .

لقد قرر أن يهدم الكعبة فيضع العرب أمام الأمر الواقع فلا يجدوا مكانا يحجون اليه فيتوجهوا الى معبده .

ولكن هيهات لأبرهة ذلك . . تلك أمانيه . .

بدأ في الاستعداد لهذه الفكره . . أعد جيشه وأتى بفيلة من الغابة وعلى رأسهم فيل قوى ضخم عرف بقوته وتم تدريب الفيلة واعتنى واهتم بذلك الفيل الكبير الضخم وتم تدريبه بشكل خاص على هدم البناء الحجـــرى وبعد أن تأكد أبرهة من استعداده واستعداد جيشه واستعداد الفيله وعلى رأسهم ذلك الفيل القوى الضخم تأكد من استعدادهم لهدم الكعبة خرجوا من اليمن وتوجهوا الى مكة . .

واعترضته بعض القبائل العربية التى أرادت أن توقفه عن قصده لكن أبرهة هزمها وبعث (رسولا الى مكة يسأل عن سيد هذا البلد ويبلغه أن الملك لم يأت لحربهم وانمـا جاء لهدم هذا البيت ، فان لم يتعرضوا له فـلا حاجة له فى دمائهم ! فاذا كان سيد البلد لا يريد الحرب جاء به الى الملك . . فلما كلم عبد المطلب فيما جاء به قال له : والله ما نريد حربه ومالنا بذلك من طاقة . هذا بيت الله الحرام . وبيت خليله ابراهيم - عليه السلام - . فان يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وان يخل بينه وبينـــه فوالله ما عندنا دفع عنه . . فانطلق معه الى أبرهة . .

قال ابن اسحاق : وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم . فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه وأكرمه عن أن يجلسه تحته وكره أن تـــراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس علـى بساطه وأجلسه معه الى جانبه . ثم قال لترجمانه : قل له ما حاجتك ؟ فقال : حاجتى أن يرد على الملك مئتى بعير أصابها لى . فلما قـال ذلك ، قال أبرهة لترجمانه : قل له : قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى !

أتكلمنى فى مئتى بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه ؟

قال له عبد المطلب : انى أنا رب الابل . وان للبيت ربا سيمنعه . قال ما كان ليمتنع منى . قال : أنت وذاك ! .. فرد عليه ابله)[1] .

وانصرف عبد المطلب ، وتوجه أبرهة بجيشه يتقدمه الفيل المدرب والذى عقد عليه الأمل فى هدم الكعبه وقلبه يخفق فرحا ووجهه يتهلل بشرا فمن كان يعتقد فيه أنه سيقف فى وجهه ويصده عن هدم الكعبة خلى له السبيل وقال له ان للبيت ربا سيمنعه اذن فلن يعترض طريقه أحد ولن يحول بينه

---

(١) ٣٠/٢٥٠ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

وبين تحقيق الأمل الذى راوده طويلا أحد واقترب وجيشه الى الكعبة وحدثت الخارقه من الواحد الأحد الذى لم يعمل له أبرهة حساب ، حسب حساب الناس ونسى أن هناك من يمهل ولا يهمل ..

أراد أن يكيد للكعبة ولم يعلم أن فوقه من يكيد له أعظم من كيده " انهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا " رويدا يا أبرهة فلتفرح ولتزهو بما أعددت من قوة وبما دربت من فيلة فالجميع فى انتظار نتيجة كيدك ، الناس فى شعاب مكة والعرب الذين تريد أن تحولهم الى كنيستك بهدم الكعبة . القارئين لهذه الحادثة فى القرآن والسامعين لها الكل يريد أن يعرف نتيجة كيدك هذا الذى دبرت له طويلا وخطط له كثيرا وفكرت فيه وأعددت له كل ما تملك ..

تقدم أيها الفيل العظيم لهدم الكعبة فقد خلى لك ولأصحابك الطريق اليها فلا ملك يردكم ولا سيد يصدكم ..

ولكن الفيل الضخم الكبير المدرب على هدم الكعبه يرفض أن يتوجه الى الكعبة .. ولا أحد غيره من الفيله أو من الناس يستطيع أن يقوم بالمهمة التى درب من أجلها وعليه وحده تنعقد الآمال فى تحطيم الكعبة وعليه وحده تتجه الأنظار وأول واحد من هؤلاء أبرهة أن عينيه تكادان تخرجان من مكانهما وقلبه يكاد يطير من بين أضلاعه وهو ينظر

الى الفيل ويتمنى له النجاح فى أداء مهمته .. ولكن ما الذى جـــرى للفيل ؟ !

انه لا يتحرك !!

تسمر فى مكانه ..

لا بل قد برك فى مكانه فلا يستطيع الحراك وهو يرفض أن يتحرك فيصرخ أبرهة ارغموه على النهوض والهجوم فهذه هى اللحظة الحاسمة اقتلـوه ضربا لينهض ولكن لا فائدة فالفيل أقوى الجميع .. والفيل أضخم من الجميع لذا فقد وقعت فيه الخارقة !!

نعم الخارقة التى سمرته فى مكانه فلم يتحرك وهو الوحيد سيد الموقف .. تدخلت القدرة الالهية لتحمى الكعبة من الهدم فهى التى بنتها ..

وتحقق كلام عبد المطلب : ان للبيت ربا سيمنعه ..

نعم لقد منع بيته - سبحانه - فأوقع الخارقة فى هذا الفيل الضخم وتوقف عن السير فتوقف الدم فى جسم أبرهة وانشل الجيش كله وكاد أبرهـــة أن يسقط من هول المفاجأة .

لا عجب فهى القدرة الخارقة التى لا يقف أمامها أحد فى السماء ولا فى الأرض ، مهما علت وعظمت وتجبرت القوى فانها فى لحظة ما وعندما يريد الله تصبح لا شىء !!

فهل تكفي هذه الخارقة لتأديب ذلك الطاغي أبرهة الذي أراد هدم الكعبة ؟

لا يا أبرهة فهناك خارقة أخرى تنتظرك ترى ما هي ؟ لقد اسودت السماء فجأة فما هي تلك الخارقة التي ستحدث بعد ؟

لنسمعها فمن دبرها لأبرهة وأصحابه ..

نسمعها من الله جل جلاله في قوله سبحانه :

" ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل " سؤال للتعجيب من الحادث ، والتنبيه الى دلالته العظيمة " ألم يجعل كيدهم في تضليل " استفهام تقريري أي قد جعل سبحانه كيدهم مضللا فلم يصلوا الى مبتغاهم ، وأصحاب الفيل هم أبرهة والنظام الحاكم وقد نسبهم - سبحانه - الى الفيل والبشر أعظم من الحيوان لأن الفيل في حالهم تلك كان أعلى مرتبة منهم كبشر هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن الفيل كان هو قائدهم ومناط آمالهم ومحط أنظارهم فنسبهم جميعا اليه فقال سبحانه :

" أصحاب الفيل "

نعم لقد جعل كيدهم في تضليل حال بينهم وبين هدفهم شأن من يضل الطريق فلا يصل الى ما يبتغيه .

الفيل مسمر لا يتحرك ، والسماء مسودة لا يكادون يرون بعضهم ايذانا

بوقوع الخارقة الثانية ! فيمن ؟

في الحيوان أيضا : " وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول " نعم لقد جعل كيدهم في تضليل في ذلك الجو المعتم وخاب ظنهم في كل ما يتوقعون بل لقد جرت خوارق بما لا يألوف وتكتمل صورة التضليل بعد بروك الفيل أو تسمره وعدم قدرته على التقدم لهدم الكعبة . . يكمل السياق هذا التضليل في صورة وصفية رائعة : " وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول "

حدثت الخارقة الثانية (ارسال الطير الأبابيل ترميهم بحجارة من سجيل" ونقف قليلا عند هذه الخارقة خارقة الطير الأبابيل ما هو نوع هذا الطير بعد أن عرفنا أن كلمة (أبابيل) جماعات جماعات لقد اختلفت الروايات في تحديد نوع هذه الجماعات من الطير وأشكالها ، وأحجامها ، وأحجام هذه الحجارة ونوعها وكيفية فعلها . كما أن بعضها يروى أن الجدري والحصبة ظهر في هذا العام في مكة .

يقول الأستاذ سيد قطب : (ويرى الذين يميلون الى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات ، والى رؤية السنن الكونية المألوفة تعمل عملها ،

ان تفسير الحادث بوقوع وباء الجدرى والحصبة أقرب وأولى . وان الطير قد تكون هى الذباب والبعوض التى تحمل الميكروبات ، فالطير هو كل ما يطير)[1] .

ويأتى الاستاذ سيد قطب بقطعة للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده فى تفسيره للسورة فى جزء عم حيث يثبت فيها الامام محمد عبده أن الطير الأبابيل هى تلك الميكروبات الصغيرة التى لا ترى بالعين المجردة لينتهى الى أن ذلك الحيوان الضخم (الفيل) قد هلك بحيوان صغير لا يظهر للنظر ولا يدرك بالبصر ، حيث ساقه القدر . لا ريب عند العاقل أن هذا أكبر وأعجب وأبهر .[2]

وقد رد الأستاذ سيد قطب على تلك الروايات - بما فيها رواية الشيخ محمد عبده - ردا شافيا وافيا - جزاه الله خيرا على حسن تأويله وتحريه الصواب فى تأويل كتاب رب العباد وأثبت أن الأقرب الى الصواب هو أن الطير الأبابيل طيرا من الطيور التى تطير فى السماء وترى بالعين المجردة وليست هى الميكروبات كما قال بذلك بعض المفسرين .

يقول الأستاذ سيد قطب : (ونحن لا نرى أن هذه الصورة التى افترضها

---

(١) ٣٠/٢٤٩ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

(٢) انظر ج ٣٠/٢٥١- ٢٥٢ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

الأستاذ الامام - صورة الجدرى أو الحصبة من طين ملوث بالجراثيم - أو تلك التى جاءت بها بعض الروايات من أن الحجارة ذاتها كانت تخرق الرؤوس والأجسام وتنفذ منها وتمزق الأجساد فتدعها كقشات ورق الشجر الجاف و" العصف" .. لا نرى أن هذه الصورة أو تلك أدل على قدرة الله ، ولا أولى بتفسير الحادث . فهذه كتلك فى نظرنا من حيث امكان الوقوع ، ومن حيث الدلالة على قدرة الله وتدبيره ، ويستوى عندنا أن تكون السنة المألوفة للناس ، المعهودة المكشوفه لعلمهم ، هى التى جرت فأهلكت قوما أراد الله اهلاكهم . أو أن تكون سنة الله قد جرت بغير المألوف للبشر وغير المعهود المكشوف لعلمهم (١) الى أن يقول : (فأما فى هذا الحادث بالذات ، فنحن أميل الى اعتبار أن الأمر قد جرى على أساس الخارقة غير المعهودة ، وأن الله أرسل طيرا أبابيل غير معهودة (٢)) .

وأنا أرجح رأى الأستاذ سيد قطب من أن الطير الأبابيل التى أرسلها سبحانه على أصحاب الفيل هى على أساس الخارقه غير المعهودة فهذا ما يوحى به النص القرآنى : " فجعلهم كعصف مأكول " خاصة وأن الأمر

---

(١) ٣٠/٢٥٢ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

(٢) ٣٠/٢٥٣ المصدر السابق .

الذى حدثت هذه الحادثة من أجله ليس أمرا سهلا وانما هو أمر عظيم (هدم الكعبة بيت الله الحرام) فليس ببعيد أن تحدث الخوارق لمنع الهدم عن هذا البيت المقدس.

لقد كانت هذه الطير الأبابيل التى أرسلها سبحانه ترمى أصحاب الفيل بحجارة من سجيل " ترميهم بحجارة من سجيل " أى أن الحجارة التى ترميهم ليست حجارة عادية فحسب وانما هى مؤلمه لأن المقصود بها اهلاك من رميت عليهم وتعذيبهم والاّ لما أثّرت فيهم ولما كانت الخارقة . (وعن ابن عباس رضى الله عنهما : من طين مطبوخ كما يطبخ الآجر)[1] .

وقيل ان (سجيل) كلمة فارسية مركبة من كلمتين تفيدان : حجر وطين . أو حجارة ملوثة بالطين . .

وجميع المعانى لكلمة (سجيل) تبين أن هذه الحجارة ليست حجارة عادية وانما فيها نوع من العذاب لتؤدى مهمتها مما جعل من أرسلت عليهم كورق الشجر الجاف " فجعلهم كعصف " وليس كورق الشجر الجاف فحسب وانما ورق الشجر الجاف المأكول أى الذى فتتت وطحن حين تأكله الحشرات وتمزقه أو حين يمضغه الحيوان ويطحنه !

---

(١) ٢٨٦/٤ الكشاف للزمخشرى - الطبعة الأخيرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م.

هذا ما فعلته بهم الطير الأبابيل وهذه هى عاقبة المعتدين المتعدين على حدود الله (انها صورة حسية للتمزيق البدنى بفعل هذه الأحجار التى رمتهم بها جماعات الطير)[١] .

وبعد .. فان حادثة الفيل حادثة مشهورة فى التاريخ الاسلامى ويكفيها شهرة ان القرآن قد سجلها لتبقى ما بقى حتى تقوم الساعة ، وبتسجيل هذه الحادثة فى القرآن كان لنوعين من الحيوان حظ طيب فى تسجيل اسمهما فى القرآن وأن يكون اسمهما قرآنا يتلى حتى تقوم الساعة وهما (الفيل) و (الطير) .

ولكن ما هو الغرض من ذكرهما أو ما هو الغرض من كونهما صاحبى الخارقتين ؟

أولا : الغرض من كون الفيل صاحب خارقة هو : بيان أن قدرة الله - سبحانه - فوق كل شىء فرغم قوة هذا الفيل وضخامته وما أوتى من تدريب انشل وعجز وبرك أمام قدرة الله فاذا وجّهوه الى الحرم رفض واذا وجّهوه الى اليمن أو الى غيره من الجهات هرول .

ثانيا : الغرض من كون (الطير) صاحب خارقة فهو أيضا لبيان قدرة الله فحين يريد شيئا يقول له كن فيكون فاذا بأضعف المخلوقات

---

(١) ٢٥٧/٣٠ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

تكون سلاحا فتاكا تزعج وتدمر بل وتقتل فهى جند من جنده سبحانه - كما كان من أمر الضفادع والقمل والجراد ، حين سلطهم سبحانه على آل فرعون ليكونوا عذابا لهم فكانوا كما أراد سبحانه - وهكذا كان(الطير) عذابا على أصحاب الفيل رماهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول وطويت صفحتهم من سجل الدنيا . وأصبحوا مجرد خبر يذكر فى التاريخ يدل على الكراهية والعناد ويذكر فى القرآن - وهو أصغر من أن يذكر فى كتاب الله - لأخذ العظة والعبرة منه وليكون خبرهم مثلا لمن يتعدى حدود الله ويريد أن يحارب الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

أما الغرض البيانى والتربوى من ذكر (الفيل) و (الطير) فى القرآن فهو : -

١ - أخذ العظة والعبرة من الخارقتين فى الحادثة .

٢ - ورود قصتهما - الفيل والطير فى القرآن تذكيرا لقريش بنعمة الله عليهم فى حماية هذا البيت وصيانته (فى الوقت الذى عجزوا هم عن الوقوف فى وجه أصحاب الفيل الأقوياء لعلهم بهذه الذكرى يستحون من جحود الله الذى تقدمت يده عليهم فى ضعفهم وعجزهم ، كما يطامنون من اغترارهم بقوتهم اليوم فى مواجهة محمد - صلى الله عليه وسلم - والقلة المؤمنة معه فقد حطم الله

الأقوياء حينما شاءوا الاعتداء على بيته وحرمته ، فلعله يحطم الأقوياء الذين يقفون لرسوله ودعوته)[1] .

٣ - ان ورود قصة الفيل والطير تذكير للمؤمنين جميعا بنعمة الله عليهم فى حماية هذا البيت وصيانته فى كل زمان وتطمينا لهم بأن الله سيمنع بيته من كل كيد كما قال بذلك عبد المطلب .

٤ - كما أن هناك دلالات وعبر كثيرة مستفادة من ذكر حادث الفيل والطير الأبابيل فى القرآن منها : -

أ - أن الله - سبحانه - لم يرد أن يكل حماية بيته الى المشركين ولو أنهم كانوا يعتزون بهذا البيت ، ويحمونه ويحتمون به . فلما أراد أن يصونه ويحرسه ويعلن حمايته له وغيرته عليه ترك المشركين يهزمون أمام القوة المعتدية وتدخلت القدرة سافرة لتدفع عن بيت الله الحرام ، حتى لا تكون للمشركين يد على بيته ولا سابقة فى حمايته ، بحميتهم الجاهلية .

ب - كان من مقتضى هذا التدخل السافر من القدرة الالهية لحماية البيت الحرام أن تبادر قريش ويبادر العرب الى الدخول فى دين الله حينما جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - وألا يكون اعزازهم بالبيت وسدانته وما صاغوا حوله من

---

(١) ٢٥٦/٣٠ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

وثنية هو المانع لهم من الاسلام!

وهذا التذكير بالحادث على هذا النحو هو طرف من الحملة عليهم ، والتعجيب من موقفهم العنيد !

جـ - كما أن حادث الفيل والطير يوحى بأن الله لم يقدر لأهل الكتاب - أبرهة وجنوده - أن يحطموا البيت الحرام أو يسيطروا على الأرض المقدسة - حتى والشرك يدنسه ، والمشركون هم سدنته ليبقى هذا البيت عتيقا من سلطان المتسلطين مصونا من كيد الكائدين ، وليحفظ لهذه الأرض حريتها حتى تنبت فيها العقيدة الجديدة ، حرة طليقة لا يهيمن عليها سلطان ، ولا يطغى فيها طاغية ولا يهيمن على هذا الدين الذى جاء ليهيمن على الأديان وعلى العباد ، ويقود البشرية ولا يقاد . وكان هذا من تدبير الله لبيته ولدينه قبل أن يعلم أحد أن نبى هذا الدين قد ولد فى هذا العام .(١)

. . . . . .

---

(١) ٣٠/٢٥٧ - ٢٥٨ فى ظلال القرآن لسيد قطب بتصرف ط ١

٤ - الذبح العظيم

الذى فدى الله به اسماعيل - عليه السلام -

فى قول الله تبارك وتعالى :

" وفديناه بذبح عظيم " (١)

وهذه حلقة رئيسية فى قصة ابراهيم - عليه السلام - أتت بعد حلقة رئيسية أخرى - حيث أن قصته - عليه السلام وردت فى حلقتين رئيسيتين فى القرآن :

(حلقة دعوته لقومه ، وتحطيم الأصنام ، وهمهم به ليقتلوه وحماية الله له وخذلان شانئيه - وهى حلقة تكررت من قبل فى سورة القرآن - وحلقة جديدة لا تعرض فى غير هذه السورة وهى الخاصة بحادث الرؤيا والذبح والفداء ، مفصلة المراحل والخطوات والمواقف فى أسلوبها الأخاذ وأدائها الرهيب ! ممثلة أعلى صور الطاعة والتضحية والفداء والتسليم فى عالم العقيدة فى تاريخ البشرية الطويل) (٢) .

وما يهمنا هنا هى الحلقة الثانية من قصة ابراهيم - عليه السلام - والتى تتعلق بحادث الرؤيا والذبح والفداء حيث أن الفداء كان حيوانا أفدى الله به اسماعيل - عليه السلام - لقد انتهت الحلقة الأولى من قصة ابراهيم

---

(١) ١٠٧ ك الصافات ٣٧

(٢) ٢٣/٥٨ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

بعد أن كسر أصنام قومه ومعهم أبوه فوضعوه فى النار وحماه الله - سبحانه - من النار ومن كيدهم فاستدبر ابراهيم هذه المرحلة من حياته وذهب الى ربه ليستقبل مرحلة جديدة فى حياته : " وقال : انى ذاهب الى ربى سيهدين " . . فهاجر وترك قومه واتجه الى ربه الذى ذهب اليه يسأله الذرية المؤمنة والخلف الصالح : " رب هب لى من الصالحين " واستجاب الله دعاء عبده الصالح الذى تجرد له وترك وراءه كل شىء : " فبشرناه بغلام حليم " وهذه هى بداية الحلقة الثانية فى حياته : رزقه الله باسماعيل - لم يرد اسم اسماعيل صراحة بأنه المبشر به فى هذه الآية ولكن سياق السيرة والسورة يرجح ذلك - ويصفه علام الغيوب بأنه حليم وأى حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فقال : ستجدنى ان شاء الله من الصابرين " وذلك حين بلغ معه السعى أى حين تفتح صباه وأصبح رفيقا له فى الحياة لقد كانت فرحة ابراهيم عظيمة أولا لأن الله قد استجاب له فرزقه هذا الغلام وهو وحيد مفرد مهاجر مقطوع من أهله وقرابته الا زوجته .

ثانيا : لأن هذا الغلام الذى رزقه الله اياه " حليم " هذا ما انطوت عليه البشرى لابراهيم ومعنى كون الغلام حليم أى من الصالحين المطيعين

وبهذا يكون قد استجاب ربه له فى تحديد طلبه " رب هب لى من الصالحين " لم يطلب خلفا فقط وانما طلب أن يكون من الصالحين وهكذا تكاملت فرحة ابراهيم - عليه السلام : (غلام - حليم) ولكن .. حدث موقف عظيم كريم فريد بالنسبة لهذا الغلام فى حياة ابراهيم بل فى حياة البشر أجمعين : " فلما بلغ معه السعى قال : يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى قال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين ".

قيل أنه لما بلغ معه السعى كان ابن ثلاث عشرة سنة يا لله ! ويا لروعة الايمان والطاعة والتسليم كلا الموقفين عظيم يدل على عظمة الايمان بالله فى النفوس ويدل على الحلم الذى وصفهما - ابراهيم واسماعيل - الله فى قوله تعالى : " ان ابراهيم لأواه حليم " وقوله : " فبشرناه بغلام حليم" بالموقف الأول هو موقف ابراهيم - عليه السلام - ابراهيم (الشيخ المقطوع من الأهل والقرابة . المهاجر من الأرض والوطن ها هو ذا يرزق فى كبرته وهرمه بغلام . طالما تطلع اليه ، فلما جاءه جاء غلاما ممتازا يشهد له ربه بأنه حليم ، وها هو ذا ما يكاد يأنس به ، وصباه يتفتح ، ويبلغ معه السعى ويرافقه فى الحياة .. ها هو ذا ما يكاد يأنس ويستروح بهذا

الغلام الوحيد ، حتى يرى فى منامه أنه يذبحه ويدرك انها اشارة من ربه بالتضحية. فماذا ؟ انه لا يتردد ولا يخالجه الا شعور الطاعة ، ولا يخطر له الا خاطر التسليم .. نعم انها اشارة مجرد اشارة وليست وحيا صريحا ولا أمر مباشرا . ولكنها اشارة من ربه .. وهذا يكفى هذا يكفى ليلبى ويستجيب . ودون أن يعترض . ودون أن يسأل ربه .. لماذا يا ربى اذبح ابنى الوحيد ؟! (١)

يلبى فى هدوء واطمئنان دون جزع أو اضطراب .

" قال : يا بنى انى أرى فى المنام انى أذبحك . فانظر ماذا ترى " وقيل أن (رؤيا الأنبياء وحى كالوحى فى اليقظة فلهذا قال : " انى أرى فى المنام انى أذبحك " فذكر تأويل الرؤيا كما يقول الممتحن وقد رأى انه راكب فى سفينة رأيت فى المنام انى ناج من هذه المحنة . وقيل رأى ليلة التروية كأن قائلا يقول له : ان الله يأمرك بذبح ابنك هذا ، فلما أصبح روّى فى ذلك من الصباح الى الرواح أمن الله هذا الحلم أو من الشيطان ؟ فمن ثم سمى يوم التروية ، فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله فمن ثم سمى يوم عرفه ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة فهم بنحره فسمى اليوم يوم النحر ، وقيل أن الملائكة حين بشرته بغلام حليم قال هو اذن ذبيح الله ، فلما ولد وبلغ حد السعى معه قيل له أوف بنذرك (٢) .

---

(١) ٢٣/ ٦٣ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

(٢) ٣/ ٣٤٧ - ٣٤٨ الكشاف للزمخشرى - الطبعة الأخيرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م.

أما الموقف الثانى فهو موقف الابن اسماعيل :

يستقبل هذا الخبر بهدوء ورضى وكأنما الذبح ليس له أو كأنما الذبح ليس ذبحا وانتهاء للحياة : " قال : يا أبت افعل ما تؤمر . ستجدنى - ان شاء الله - من الصابرين " ولا تعجب من ذلك اذا تذكرنا وصف ربه له بأنه " غلام حليم " نعم انه الحلم الذى جعله يرتقى الى الأفق الذى ارتقى اليه من قبل أبوه يتلقى الأمر فى طاعة واستسلام بل وفى رضى ويقين وكأنه رجل فى الثمانين من عمره وهو لم يبلغ بعد سن الثلاثة عشر سنة - كما تروى الروايات - وكما يدله عليه قوله تعالى :

" فلما بلغ معه السعى " .

والى جانب تلك الطاعة والاستسلام والرضى واليقين ذلك الأدب الرفيع والأخلاق العاليه : " يا أبت " يجيب أباه فى مودة وقربى رغم الخطب الجلل الذى أعلمه به - ذبحه - فهذا الشبح لا يزعجه ولا يفزعه ولا يفقده رشده بل لا يفقده أدبه ومودته .(١)

ولا عجب فى ذلك كله فهو يملك الضابط لهذا كله - حبه لله - وهذا هو الدليل : " افعل ما تؤمر " فهو يحس أن الرؤيا اشارة وأن الاشارة

---

(١) ٢٣/٦٤ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

أمر بطريق غير مباشر ولا بد من التلبية والتنفيذ لا يريد أن يكون أبـــوه عاصيا لله أو أن يكون هو سبب المعصية افعل أنت يا أبت ما يأمرك به ربك ولا تتردد في التنفيذ وأنا من ناحيتي ستجدني من الصابريـــــن ويزيد في الأدب مع الله - جل جلاله - بقوله : - ان شاء الله - أي اذا أراد الله . فهو لم يأخذ هذه التضحية على أنها بطولة (ولم يأخذها شجاعة . ولم يأخذها اندفاعا الى الخطر دون مبالاة ولـــم يظهر لشخصه ظلا ولا حجما ولا وزنا .. انما أرجع الفضل كله للـــــه ان هو أعانه على ما يطلب اليه ، واصبره على ما يراد به : " ستجدنـــي - ان شاء الله - من الصابرين ".

يا للأدب مع الله ! ويا لروعة الايمان ، ويا لنبل الطاعة ويا لعظمـــــة التسليم)[1] .

وهناك رواية تحكى قصة هذا الذبيح حين أراد ابراهيم ذبحه يظهر ذلك الحلم وذلك الأدب مع الله ومع أبيه ويظهر ثبات الايمان ونبل الطاعـــة ولا ينسى مع هذا كله الرحمة بالأم والشفقة عليها : قال ابراهيم حـــين رأى الرؤيا - وقبل أن يطلع عليها ابنه - (يا بني خذ الحبل والمديـــة وانطلق بنا الى الشعب نحتطب ، فلما توسطا شعب ثبير أخبره بما أمر

---

(١) ٢٣/ ٦٤ في ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

فقال له : أشدد رباطي لا أضطرب ، وأكفف عني ثيابك لا ينتضخ عليها شيء من دمي فينتقص أجري وتراه أمي فتحزن ، واشحذ شفرتك واسرع امرارها على حلقي حتى تجهز عليّ ليكون أهون فان الموت شديد ، وأقرأ على أمي سلامي وان رأيت أن ترد قميصي على أمي فافعل فانه عسى أن يكون أسهل لها ، فقال ابراهيم عليه السلام : نعم العون أنت يا بنيّ على أمر الله ، ثم اقبل عليه يقبله وقد ربطه وهما يبكيان (١) وسواء صحت هذه الرواية أم أنها غير صحيحة فان في القرآن ما يغطي ذلك وأكثر فلنرى ماذا حدث بعد اخبار الأب ابنه بما رأى واعانة الابن لأبيه على تنفيذ الأمر :

قال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني - ان شاء الله - من الصابرين .

فلما أسلما وتله للجبين " (أسلما) كلاهما اسلما فهذا هو الاسلام في حقيقته ثقة وطاعة وطمأنينة ورضى وتسليم وتنفيذ فالاسلام هو الاستسلام لله .

أسلم ابراهيم ابنه لله طاعة لله .

واسلم الابن نفسه لأبيه طاعة لله .

وبدأ في تنفيذ حكم الله .. يا لله " وتله للجبين" طرح ابنه على جبينه

---

(١) ٢٣/٣٤٩ - ٣٥٠ الكشاف للزمخشري - الطبعة الأخيرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م.

استعدادا لذبحه والابن لا يتحرك ولا يتمنع وقد وصل الأمر الى مرحلة التنفيذ !!

اغيثهما يا الله اغث الأب الذى سيفقد ابنه الوحيد واغث الابن الذى سيذبح كما يذبح الحيوان ..

واغث المسلمين من أن تكون هذه سنة فيهم ..

الرحمة يا الله أرحم هذين الطائعين المنفذين لأمرك ..

وكان الله سميعا عليما .. تأتى النجدة من عنده وتأتى الرحمة لعباده ينادى خليله ابراهيم ليوقف التنفيذ وقد صرع ابنه على شقه فوقع أحد جنبيه على الأرض ووضع السكين على رقبته انتظر يا ابراهيم توقف عن التنفيذ لقد اثبتّ بما لا يدع مجالا لأدنى شك أنك من المطيعين فلم يبق الاّ اسالة الدم فلا تسل الدم : " وناديناه ان يا ابراهيم . قد صدقّت الرؤيا انّا كذلك نجزى المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين ".

لقد تم الغرض من الابتلاء (كان الابتلاء قد تم . والامتحان قد وقع. ونتائجه قد ظهرت وغاياته قد تحققت . ولم يعد الاّ الألم البدنى . والاّ الدم المسفوح . والجسد الذبيح والله لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء . ولا يريد دماءهم وأجسادهم فى شىء ومتى خلصوا له واستعدوا

للأداء بكلياتهم فقد أدوا وقد حققوا التكليف ، وقد جازوا الامتحان بنجاح ..

وعرف الله من ابراهيم واسماعيل صدقهما . فاعتبرهما قد أديا وحققا وصدقا (١) .

فكانت الخارقة :

" وفديناه بذبح عظيم " اذا كنت يا ابراهيم قد جدت بأعز شيء عندك في هدوء ورضى وطمأنينة ويقين فان هناك وفوقك من هو أكرم منك انه أكرم الأكرمين سيعطيك بديلا لهذا الذى جدت به ..

واذا كنت يا اسماعيل قد رضيت بحكم الله فيك حبا لله وامتثالا لأمره فلن يخذلك الله أبدا سينقذك من الذبح سيفديك بذبح غيرك سيحدث من أجلك الخارقة !!

يأتى الفداء من عند الله ليذبحه ابراهيم بدلا من ابنه لأنه قد صدّق الرؤيا وحققها فعلا ولم يبق الا اللحم والدم فليكمل فى هذا الذبح العظيم الذى أتى به الله اليه وليسيل دمه ..

ما أعظمك يا الله وما أشد كرمك وما أرحمك بخلقك انقذت ذلك الشيخ الكبير من أشد بلاء يمكن أن يواجه انسان أنقذته من أن يذبح فلذة كبده

---

(١) ٢٣/٦٥ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

وأنقذت ذلك الغلام من الذبح الذى لا حياة بعده وأنقذت ذريـــة ابراهيم من أن تكون تلك الحادثة سنة فيهم كما قال ابن عباس :

(لو تمت تلك الذبيحة لكانت سنة وذبح الناس ابناءهم)[1] .

انه الاختبار البين الذى تميز فيه المخلصون من غيرهم " ان هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم "

ولكن ترى ما هو ذلك (الذبح العظيم) الذى فدى الله به اسماعيـــل وأنقذ به ابراهيم من اعتصار قلبه بذبحه فلذة كبده ؟

قيل : (انه كبش وجده ابراهيم مهيأ بفعل ربه وارادته ليذبحه بدلا من اسماعيل)[2] .

(وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هو الكبش الذى قرّبه هابيل فقبل منه وكان يرعى فى الجنة حتى فدى به اسماعيل . وعن الحسن : فدى بوعـل اهبط عليه من ثبير)[3] .

وقيل ان اسماعيل لما قال لابراهيم " افعل ما تؤمر ستجدنى ـ ان شاءالله من الصابرين " .

---

(١) ٣٤٩/٣ الكشاف للزمخشرى ـ الطبعة الأخيرة ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م

(٢) ٦٥/٢٣ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

(٣) ٣٤٩/٣ الكشاف للزمخشرى ـ الطبعة الأخيرة ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٦م

(اقبل عليه يقبله وقد ربطه وهما يبكيان ثم ، وضع السكين على حلقه فلم تعمل ، لأن الله ضرب صفيحة من نحاس على حلقه ، فقال له : كبنى على وجهى فانك اذا نظرت وجهى رحمتنى وأدركتك رقة تحول بينك وبين أمر الله ، ففعل ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين ونودى : يا ابراهيم قد صدّقت الرؤيا ، فنظر فاذا جبريل عليه السلام معه كبش أقرن أملح ، فكبر جبريل والكبش وابراهيم وابنه وأتى المنحر من منى فذبحه . وقيل لما وصل موضع السجود منه الى الأرض جاء الفرج ، وقد استشهد أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية فيمن نذر ذبح ولده أنه يلزمه ذبح شاة)[1] .

فاذا صحت هذه الرواية يكون اتيان جبريل ـ عليه السلام ـ بالكبش هى الخارقة ومن ملابسات الخارقة ان الله ضرب صفيحة من نحاس على حلق اسماعيل حتى لا تعمل السكينة فيه .

ومعظم الروايات تفيد بأن هذا الذبح العظيم الذى فدى به الله اسماعيل هو الكبش .

وبصرف النظر عن نوع ذلك الذبح فان القرآن يخبرنا بأنه " ذبح عظيم " وهذا ما يهمنا من حيث وقوع الخارقة فيه حيث فدى الله به اسماعيل فذبح بدلا من اسماعيل . ومعنى عظيم : أى ضخم الجثة سمين طيب لحمه .

---

(١) ٣/ ٣٥٠ الكشاف للزمخشرى ـ الطبعة الأخيرة ١٣٨٥ هـ-١٩٦٦م

الغـرض البيانـى والتربـوى

من ذكر الكبش (الذبح العظيم) فى القـرآن

١ - لقد ذكره سبحانه فى قصة ابراهيم مع ابنه ليبين كيف تكون الطاعـة لله وكيف يكون الحب لله بحيث لا يكون حبا قبله حتى ولو كان لفلذة الكبد .

وكيف يكون الاسلام والاستسلام لله وكيف يكون الرضى والطاعـة لأمر الله حتى ولو كان ذلك الأمر هو ذبح النفس وازهاق الروح .

٢ - كما أن ذكر الذبح العظيم فى القرآن هو لبيان كيف تكون رعاية الله لأولياءه المخلصين وكيف تكون عنايته بهم وانه سبحانه أقرب اليهـم من حبل الوريد فالسكينة على حلق اسماعيل والنداء فى أذن ابراهيم : أن

" وناديناه يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انّا كذلك نجزى المحسنين . ان هذا لهو البلاء المبين" .

وانه سبحانه اذا أراد شيئا يقول له كن فيكون فتكون الخوارق والمعجزات الخارجة عن مألوف البشر والتى لا يفكروا فى حدوثهـا ولا يحسبوا لها أى حساب " وفديناه بذبح عظيم " .

أحدث سبحانه هذه الخارقة وفدى اسماعيل بذبح عظيم ولا عجب فى ذلك فانه سبحانه على كل شيء قدير .

٣ - كانت الخارقة جزاء لما مضى من طاعة ابراهيم ورضى اسماعيل وسنة لما سيأتى سنة فى ذرية ابراهيم استنّ بها محمد - صلى الله عليه وسلم - فنحر يوم العيد وهو اليوم الثانى بعد الوقوف فى عرفه من أيام الحج وعرف بيوم النحر ، نحر (ذكرى لهذا الحادث العظيم الذى يرتفع منارة لحقيقة الايمان . وجمال الطاعة . وعظمة التسليم . والذى ترجع اليه الأمة المسلمة لتعرف فيه حقيقة أبيها ابراهيم ، الذى تتبع ملته ، والذى ترث نسبه وعقيدته . ولتدرك طبيعة العقيدة التى تقوم بها أو تقوم عليها ، ولتعرف أنها الاستسلام لقدر الله فى طاعة راضية واثقة ملبية لا تسأل بها لماذا ؟ ولا تتلجلج فى تحقيق ارادته عند أول اشارة منه وأول توجيه ولا تستبقى لنفسها فى نفسها شيئا ، ولا تختار فيما تقدمه لربها هيئة ولا طريقة لتقديمه الا كما يطلب هو اليها أن تقدم !

ثم لتعرف أن ربها لا يريد أن يعذبها بالابتلاء ، ولا أن يؤذيها بالبلاء ، انما يريد أن تأتيه طائعة ملبية وافية مؤدية . مستسلمة لا تقدم بين يديه ، ولا تتألى عليه فاذا عرف منها الصدق فى هذا أعفاها من التضحيات والآلام واحتسبها لها وفاء وأداء . وقبل منها وفدّاها وأكرمها كما أكرم أباها (١) بذبح عظيم .

---

(١) ٦٦/٢٣ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١ .

٥ - كلب (١) أهل الكهف (٢)

الذى نام معهم ثلاثمائة عام وتسعا

فى قول الله تبارك وتعالى :

" وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد " (٣)

وقوله تعالى :

" سيقولون : ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون : خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب . ويقولون : سبعة وثامنهم كلبهم " . (٤)

لقد ورد ذكر كلب أهل الكهف ضمن قصة أهل الكهف التى أوردها القرآن الكريم كنموذج للايمان فى النفوس المؤمنة كيف تطمئن به ، وتؤثره على زينة الأرض ومتاعها وتلجأ به الى الكهف حين يعز عليها أن تعيش به مع الناس وكيف يرعى الله هذه النفوس المؤمنة ، ويقيها

---

(١) الكلب : حيوان أهلى من الفصيلة الكلبية ورتبة اللواحم ، فيه سلالات كثيرة ، تربى للحراسة أو للصيد ، أو للجرّ وكل سبع عقور ، وربما وصف به ، (ج) كلاب ، واكلب ، ٢/٧٩٤ المعجم الوسيط ط ٢

(٢) الكهف : البيت المنقور فى الجبل أو الغار فى الجبل الا أنه واسع ٢/٨٠٣ المعجم الوسيط ط ٢

(٣) ١٨ ك الكهف ١٨

(٤) ٢٢ ك الكهف ١٨

الفتنة ، ويشملها بالرحمة) (١) .

هذا هو الغرض من ذكر قصة أهل الكهف فى القرآن . الا أن هناك روايات شتى وأقاويل كثيرة تروى حول قصة أهل الكهف رغم ما جاء فى القرآن من النهى عن المراء والجدل فيها رجما بالغيب . . والمفروض أن يقف المسلمون عند أخذ العبرة منها دون زيادة عليها أو نقصان وهذه العبرة هى الخارقة التى تعنينا :

تبدأ القصة فى القرآن بالعرض الاجمالى والتلخيص المفيد ثم يأخذ السياق بعد ذلك فى تفصيل قصة أهل الكهف التى لم يرد ذكرها فى القرآن الا فى هذه السورة (سورة الكهف) وقد سميت السورة بسورة الكهف اشارة الى كهفهم وقصتهم :

يقول الله تبارك وتعالى :

" أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا . اذ أوى الفتية الى الكهف فقالوا : ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيئ لنا من أمرنا رشدا . فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا ، ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا) (٢) .

---

(١) ٨١/١٥ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

(٢) ٩ - ١٢ الكهف ١٨

ففي هذه الآيات يعرض السياق القرآني ملخص قصة أهل الكهف :

من هم أهل الكهف وما هي ملتهم ولم سموا بأهل الكهف وما الذي جرى لهم في الكهف :

تبين الآيات في عرض مجمل كل هذا :

١ - انهم فتية . . كم عددهم لم يذكره القرآن حيث ان ذكر عددهم لا يؤخر ولا يقدم في أخذ العبرة من الخارقة التي وقعت فيهم فلو كانوا واحدا أو اثنين أو مائة فالعبرة واحدة . ويكفي أن أخبرنا بأنهم فتية ليسوا شيوخا أو اناثا أو اطفالا .

١ - أن هؤلاء الفتية آووا الى الكهف - وهو الفجوة في الصخر - .

٣ - وهم مؤمنوا بالله بدليل قولهم : " ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا .

٤ - أن الله سبحانه ضرب على آذانهم حجابا من أن تسمع يعني أنامهم انامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات .

٥ - ان هذا الضرب على آذانهم أو انامتهم في الكهف استمرت سنين عددا - وهذه هي الخارقة - حيث أن كل ما مر من قصتهم أمر طبيعي الا أن يناموا سنين عددا فهذا هو غير المألوف هذه هي الخارقة الخارجة عن ما يألفه الناس فالناس ينامون ساعات فقط قلت أو كثرت ولكن لا ينامون سنين !!

لم يذكر السياق عدد هذه السنين ولكنه قال : سنين يعنى أكثر من سنة والسنة تكفى لأن تكون خارقة ثم ذكر بأنها ثلاث مائة عام وازدادوا تسعا " .

٦ - أن الله سبحانه بعثهم من نومهم بعد رقدتهم الطويلة .

٧ - أن بعثهم كان لبيان أى الفريقين أدق فى احصاء مدة لبثهم نياما .

هذا ملخص قصة أهل الكهف كما يرويها القرآن وهى قصة غريبة عجيبة حيث احتوت على تلك الخارقة وهى : نومة الفتيه سنين عددا لكن غرابتها هى فى مألوفنا - نحن البشر - أما بالنسبة - لله - فهى من طلاقة المشيئة التى تجعل المألوف لدينا غير مألوف والعكس .

اذن فقصة أهل الكهف رغم غرابتها لكنها ليست بأعجب آية فى ملكوت الله بل ان فى صفحات هذا الكون ما هو أعجب منها وما يفوقها من اختلاف القوانين الثابته فى مألوف البشر : " أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا "

عرفنا أن أصحاب الكهف هم الفتية وقد أضيفوا الى الكهف لأنهم آووا اليه أما الرقيم الذى اضيفوا اليه أيضا فما هو ؟

اختلف الروايات فى المقصود بالرقيم :

فقيل ان (الرقيم) : (اسم كلبهم ... وقيل هو لوح من رصاص

رقمت فيه اسماؤهم جعل على باب الكهف ، وقيل أن الناس رقموا حديثهم نقرا في الجبل ، وقيل هو الوادى الذى فيه الكهف ، وقيل الجبل ، وقيل قريتهم ، وقيل مكانهم بين غضبان وأيلة دون فلسطين (١)

أما صاحب الظلال فيرجح أن الرقيم هو الكتاب كما يقول (٢) : والرقيم - في الغالب - هو الكتاب الذى يحمل اسماءهم وربما كان هو الذى وضع على باب الكهف الذى عثر عليهم فيه .

وأنا أرى أن الاختلاف في معنى كلمة (الرقيم) لا يجدى نفعا حيث أن الفتية قد أضيفوا الى الكهف وعرفوا بذلك واضافتهم الى شيء آخر زيادة في تعريفهم ليس الا .

ومن الروايات التى تروى قصة أهل الكهف : (أن أهل الانجيل عظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم حتى عبدوا الأصنام وأكرهوا على عبادتها ، وممن شدد في ذلك دقيانوس ، فأراد فتية من أشراف قومه على الشرك وتوعدهم بالقتل فأبوا الا الثبات على الايمان والتصلب فيه ، ثم هربوا الى الكهف ومروا بكلب فتبعهم ، فطردوا فانطقه الله فقال : ما تريدون مني أنا أحب أحباء الله فناموا وأنا أحرسكم ، وقيل مروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم ، ودخلوا الكهف فكانوا يعبدون الله

---

(١) ٢/ ٤٧٣ الكشاف للزمخشرى الطبعة الأخيرة ١٣٨٥ هـ ١٩٦٦م

(٢) سيد قطب ١٥/ ٨٢ الهامش في ظلال القرآن ط ١

فيه ، ثم ضرب الله على آذانهم ، وقيل أن يبعثهم الله ملك مدينتهم رجل صالح مؤمن ، وقد اختلف أهل مملكته في البعث معترفين وجاحدين ، فدخل الملك بيته وأغلق بابه ولبس مسحا وجلس على رماد وسأل ربه أن يبين لهم الحق ، فألقى الله في نفس رجل من رعيانهم فهدم ماسدّ به فم الكهف ليتخذه حظيرة لغنمه ، ولما دخل المدينة من بعثوه لابتياع الطعام وأخرج الورق وكان من ضرب دقيانوس أتهموه بأنه وجد كنزا ، فذهبوا به الى الملك فقص عليه القصة ، فانطلق الملك وأهل المدينة معه وأبصروهم وحمدوا الله على الآية الدالة على البعث ، ثم قالت الفتية للملك : نستودعك الله ونعيذك به من شر الجن والانس ، ثم رجعوا الى مضاجعهم وتوفى الله أنفسهم ، فألقى الملك عليهم ثيابه وأمر فجعل لكل واحد تابوت من ذهب فرآهم في المنام كارهين للذهب ، فجعلها من الساج وبنى على باب الكهف مسجدا)[1] .

هذه هي قصة أهل الكهف في كتب المفسرين . .

ولنعد الى هذه القصة لنشاهد مشاهدها في القرآن الكريم ونتحرى أحداثها دون مماراة فيها وقد وعد سبحانه أن يقصها علينا ومن أحسن من الله قصصا :

---

(١) ٢/٤٧٧ - ٤٧٨ الكشاف للزمخشري - الطبعة الأخيرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م .

" نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا : ربنا رب السموات والأرض ، لن ندعوا من دونه الها لقد قلنا اذن شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة . لولا يأتون عليهم بسلطان بين . فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ؟ واذ اعتزلتموهم وما يعبدون - الا الله - فأووا الى الكهف ، ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيئ لكم من أمركم مرفقا " .

هذا هو المشهد الأول من مشاهد القصة . . هذا هو الحق اليقين الذى يرويه عنهم الحق تبارك وتعالى وفيه فصل الخطاب فى كل ما روى عنهم . . وقد أجمل سبحانه فى بداية الاشارة اليهم قصتهم والآن يرويها السياق القرآنى بالتفصيل :

" انهم فتية آمنوا بربهم " .

من علامات عظمة الله تعالى ووحدانيته وأحقيته فى الخلق كله أن كل شىء يسبح بحمده : " تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وان من شىء الا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا "(١) وبما أن الانسان خلق من خلقه - سبحانه - بل ومن أعظم المخلوقات عند الله فانه لا يخلو زمن من الأزمان - منذ أن خلق الله الانسان - الا وفيه

---

(١) ٤٤ الاسراء ١٧

الموحدين بالله وان كانت بعض الأزمان يطغى فيها الانسان ويجحد بالله كما يحدث قبيل بعثة كل نبى لكن مهما عظمت الخطيئة فى البشر ومهما أنكروا وحدانية الله فان من بينهم - فى كل وقت - من كان يرحل بعقله فى الكون حوله ويعود مؤمنا بالله موحدا به متعجبا ممن حوله : كيف لا يرون ما رأى ؟ كيف لا يوحدون بالله المستحق للعبادة ؟

وهكذا كان أبطال قصتنا (أصحاب الكهف) كانوا مؤمنين بالله " انهم فتية آمنوا بربهم " وعناية الله بعباده دائمة ومن يتقرب اليه شبرا يتقرب اليه باعا ومن يؤمن به خالصا مخلصا لوجهه يحميه ويحمى ايمانه ويزيده هدى وينير له طريقه . . " وزدناهم هدى " . " وربطنا على قلوبهم " بأن لا يرجعوا عن الحق بعد رؤيتهم له فاذا قلوبهم ثابته راسخة مطمئنه الى الحق الذى عرفته لا تزعزها أى قوة فى الأرض مهما عظمت ومن هنا أعلنوا أمام الملأ ما عرفوه : " اذ قاموا فقالوا : ربنا رب السموات والأرض ، لن ندعو من دونه الها . لقد قلنا اذن شططا" ويبدو استنكارهم لما عليه قومهم من عبادة لغير الله :

" هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة " انهم يعرفون ويوقنون ان كل ما عدا الله باطل فى العباده ، كل عبادة لغير الله فهى عبادة فاسدة باطلة والدليل على ذلك أن هذه الآلهة التى يتخذها الجاهلون من

د ون الله لا تنفع ولا تضر فهى من صنع أنفسهم والا فليأتوا بسلطـــان بين " لولا يأتون عليهم بسلطان بـين "

(وهو تبكيت لأن الاتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال وهو دليل على فساد التقليد)[1] .

ان الجاهلين فى هذه النقطة من توحيد الله وأحقيته فى العبادة هم ظالمون مفترون على الله بانكارهم وجحودهم " فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا " .

لقد انكشفت عن أعين هؤلاء الفتية الغشاوه (تبين الطريقان ، واختلف المنهجان ، فلا سبيل الى الالتقاء ، ولا للمشاركة فى الحياة . ولا بد من الفرار بالعقيدة انهم ليسوا رسلا الى قومهم فيواجهوهـــم بالعقيدة الصحيحة ويدعوهم اليها ، ويتلقوا ما يتلقاه الرسل . انما هم فتية تبين لهم الهدى فى وسط ظالم كافر ، ولا حياة لهم فى هـــذا الوسط ان هم اعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها ، وهم لا يطيقون كذلك ان يداروا القوم ويداوروهم ، ويعبدوا ما يعبدون من الآلهة على سبيـــل التقية ويخفون عبادتهم لله والأرجح أن أمرهم قد كشف ، فلا ســبيل لهم الا أن يفروا بدينهم الى الله ، وأن يختاروا الكهف على زينـــة

---

(١) ٢/٤٧٤ الكشاف للزمخشرى - الطبعة الأخيرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م.

الحياة . وقد أجمعوا أمرهم فهم يتناجون بينهم) (١) :

" واذ اعتزلتموهم وما يعبدون - الا الله - فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا " لئن يجد الانسان حريته وطمأنينته فى العبادة بعد أن عرف وتيقن انها الحق خير له من زينة الأرض ومتاع الحياة وهكذا يأووا الفتيه الى الكهف المظلم والذى هو عبارة عن فجوة فى الجبل لا فرش ولا متاع ولا زينة ولكنها الطمأنينه والحرية فى العبادة يناجون ربهم وليس من يعكر عليهم صفو تلك المناجاة ، ويستروحون رحمة الله ويحسون هذه الرحمة تكتنفهم وتظللهم وتفسح لهم ذلك الكهف فاذا هو أوسع من تلك الأرض الواسعة التى ضاقوا بمن فيها .. هذا هو لفظ " ينشر لكم ربكم من رحمته " ويهيئ لكم كل ما تحتاجونه من أسباب الحياة : " ويهيئ لكم من أمركم مرفقا "

يا لعظمة الايمان فى النفوس ..

بل يا لعظمة الله الذى يكتنف هذه النفوس بالرعاية والحماية والرحمة والمحبة والرفق واللين والرخاء فترق لهم الكهوف وتنجلى عنهم الوحشة وتتفسح لهم الحدود الضيقة ..

وماذا بعد كل ذلك ؟

---

(١) ١٥/ ٨٣ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

فليناموا وقلوبهم مطمئنه ونفوسهم راضية فان من هيأ لهم من أمرهم مرفقا . .

هيأ لهم كل ذلك لن يتوانى ولن يعجز عن حمايتهم . .

لقد ضرب - سبحانه - على آذانهم في الكهف رحمة بهم ضرب على آذانهم حجابا من أن تسمع - أنامهم انامة ثقيلة - لا تنبههم فيها الأصوات . .

وتولى حمايتهم والعناية بهم : " وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه " .

حجب - سبحانه - عنهم الشمس فلا تقربهم : (انهم في ظلّ نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها مع أنهم في مكان واسع منفتح معرّض لاصابة الشمس)(١) لولا حماية الله لهم فحجبها عنهم !!

اذن فهي الكرامة لهم هي (الخارقة) هي من صنع الله ومن قدرته : " ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا " .

ولا عجب فيما صنع بهم ربهم لأنه - سبحانه - قريب كريم لمن يتقرب منه ويؤمن به ينصره ويحميه ولا يستطيع أحد أن يضره ولو اجتمع له كل من في الأرض : " من يهد الله فهو المهتد " أما من يكفر به ويضل فلن ينفعه أحد ولو اجتمع له كل من في الأرض : " ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا "

---

(١) ٢/٤٧٥ الكشاف للزمخشري - الطبعة الأخيرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م.

وفى ذلك اشارة الى أولئك الفتية و (ثناء عليهم بأنهم جاهدوا فى الله وأسلموا له وجوههم فلطف بهم واعاتهم وأرشدهم الى تلـــــك الكرامة السنية والاختصاص بالآية العظيمة ، وان كل من سلك طريقـــة المهتدين الراشدين فهو الذى أصاب الفلاح واهتدى الى السعادة ومن تعرض للخذلان فلن يجد من يليه ويرشده بعد خذلان الله) (١) .

ويعود السياق - بعد هذه اللفته - الى ذلك التصوير العجيب لهيئة الفتية . . تصوير بالكلمات القرآنية فكأننا نرى أولئك الفتية بأعيننـا مع أننا نسمع فقط . . وذلك من اعجاز القرآن وقوة بيانـه !!

" وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد . لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ، ولملئت منهم رعبا " وحيث أن الانسان مخلوق حى من لحم ودم اذا استلقـــى مدة طويلة على جنب واحد من جسده لا يتحرك فانه قد يحدث مالا يحمد فما بالنا بالسنين عددا التى استمر أهل الكهف فيها نياما ؟ لكـــــن العناية الالهية ترعاهم تقلبهم ذات اليمين وذات الشمال فيحسبهم الرائى ايقاظا وهم رقود (وقيل عيونهم مفتحه وهم نيام فيحسبهم الناظر لذلك ايقاظا ، وقيل لكثرة تقلبهم ، وقيل لهم تقلبتان فى السنة ، وقيل تقلبـة

---

(١) ٢/٤٧٥ الكشاف للزمخشرى الطبعة الأخيرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م

واحدة في يوم عاشوراء)[1] . وقيل أن تقلبهم كان حتى لا يعبث بهم عابث حتى يحين الوقت المعلوم .

" وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد "

كلبهم وقعت فيه الخارقه معهم - وهذا ما يهمنا من البحث في صفتهم - ظل سنين عددا معهم نائما باسطا ذراعيه فكما أن الفتية يحسبهم الرائي ايقاظا كذلك فالكلب جعله الله على هيئة الكلاب المستيقظه باسط ذراعيه بالفناء قريبا من باب الكهف كأنه يحرسهم . . ولما كانوا وكلبهم على هذه الحال فان من يطلع عليهم يولي فرارا ويمتلئ رعبا ، وقيل (لما ألبسهم الله من الهيبة ، وقيل لطول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم ، وقيل لوحشة مكانهم)[2] .

" وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا . انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم وان تفلحوا اذا أبدا ".

---

(١) ٢/٤٧٥ الكشاف للزمخشري الطبعة الأخيرة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م

(٢) ٢/٤٧٦ المصدر السابق .

ويفاجئنا السياق باستيقاظ الفتية ولكنهم لا يعرفون - هم أنفسهم - كم لبثوا منذ أن أدركهم النعاس ؟ فيسأل أحدهم الآخرين : كم لبثتم ؟ فيجيبوا : " لبثنا يوما أو بعض يوم " ولا يعلم بمدة نومهم - التي عبر عنها السياق في بداية القصة بأنها سنين عددا - الا الله وحده فهو الذي أنامهم وهو الذي بعثهم من نومهم فهو القادر على الحالتين . .

ولما لم يكن لديهم - هم أنفسهم - الدليل على مدة لبثهم نياما فقد فضّلوا أن يتركوا هذا الأمر لصاحب الأمر الذي بعثهم كما أنامهم فقالوا : " ربكم اعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة . ."

(انكار عليهم من بعضهم وأن الله أعلم بمدة لبثهم كأن هؤلاء قد علموا بالأدلة أو بالالهام من الله أن المدة متطاولة وان مقدارها مبهم لا يعلمه الا الله وروى أنهم دخلوا الكهف غدوة وكان انتباههم بعد الزوال فظنوا أنهم في يومهم فلما نظروا الى طول أظفارهم وأشعارهم قالوا)[1] : " ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة . ."

فليدعو أمر مدة لبثهم الى الله وليأخذوا هم في شئون حياتهم حيث أنهم استيقظوا ولا بد لهم من الأكل والماء شأن كل حي مستيقظ . . انهم جائعون ولديهم نقود فضية خرجوا بها من المدينة ويمكنهم الآن أن

---

(١) ٤٧٦/٢ الكشاف للزمخشري - الطبعة الأخيرة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م

يشتروا بها طعاما يسد جوعهم : " قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم (١) هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا " أى فلينظر أى أهل المدينة أطيب طعام فليشترى منه وليكن هذا الرسول حذرا لبقا لطيفا حتى لا يكشف أمره أحد من المدينة - هذه وصايا هم لرسولهم الى المدينة - ولكن لم الحذر ولم الخوف من كشف أمرهم ؟ علنوا السبب فى ذلك فقالوا : " انهم " أى سكان المدينة " أن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدكم فى ملتهم ولن تفلحوا اذن أبدا " لو انكشف أمرهم وعرف مخبأهم فان أصحاب السلطان فى المدينة يقتلوهم رجما وكانت عادتهم القتل بالرجم . . أو يفتنونهم عن عقيدتهم بالتعذيب وهذا ما لا يريدونه حيث سيرتدون الى البؤس بعد السعادة الروحية والى العبودية للأصنام بعد الحرية فى عبادة الرحمن انها الخسارة الكبرى : " فلن تفلحوا اذن أبدا " كل هذا حسب ظنهم بأنهم ما لبثوا الا قليلا ولم يدروا (ان الأعوام قد كرت وأن عجلة الزمن قد دارت ، وأن أجيالا قد تعاقبت ، وأن مدينتهم التى يعرفونها قد تغيرت معالمها ، وأن المتسلطين الذين يخشونهم على عقيدتهم قد زالت دولتهم ، وأن قصة الفتية الذين فروا بدينهم فى عهد الملك الظالم قد تناقلها الخلف عن السلف ،

---

(١) الورق : الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة .

وأن الأقاويل حولهم متعارضة ، حول عقيدتهم ، وحول الفترة التى مضت منذ اختفائهم .

وهنا يسدل الستار على مشهدهم فى الكهف ليرفع على مشهد آخر .وبين المشهدين فجوة متروكة فى السياق القرآنى .

ونفهم أن أهل المدينة اليوم مؤمنون فهم شديدوا الحفاوة بالفتية المؤمنين بعد أن انكشف أمرهم بذهاب أحدهم لشراء الطعام ، وعرف الناس أنه أحد الفتية الذين فروا بدينهم منذ عهد بعيد)(١) .

يا لله . انها الخارقة حدثت فى هؤلاء الفتية وكلبهم فما هو وقعها على أهل ذلك العصر بل ما هو وقعها على هؤلاء الفتية أنفسهم ؟

لنا أن نتصور ضخامة المفاجأة التى اعترتهم (بعد أن أيقن زميلهم أن المدينة قد مضى عليها العهد الطويل منذ أن فارقوها ، وان الدنيا قد تبدلت من حولهم فلم يعد لشىء مما ينكرونه ولا لشىء مما يعرفونه وجود وانهم من جيل قديم مضت عليه القرون . وانهم أعجوبة فى نظر الناس وحسهم ، فلن يمكن أن يعاملوهم كبشر عاديين وان كل ما يربطهم بجيلهم من قرابات ومعاملات ومشاعر وعادات وتقاليد . . كله قد انقطع، فهم أشبه بالذكرى الحية منهم بالأشخاص الواقعية)(٢) .

---

(١) ١٥/٨٥ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

(٢) ١٥/٨٦ المصدر السابق .

اذن بالموت أرحم لهم من هذا كله .. ويأتى أمر الله بذلك وهى العبرة المستقاه من هذا الحادث العجيب :

" وكذلك اعثرنا عليهم ليعلموا ان وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها ، اذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا : ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا " ويسدل الستار - والى الأبد - على أصحاب الكهف وهم فى كهفهم (أمواتا) ..

لقد كان - سبحانه - قادر على اخفاء أمرهم حتى تقوم الساعة فلا يعلم بهم أحد وقد تكفل - سبحانه - بهم طيلة السنين عدد التى قضوها نياما .. لكنه - سبحانه - أراد أن يستفيد الناس مما حدث لهم ويأخذوا العبرة من الحادث العجيب فاطلع الناس على أمرهم ... كشف أمرهم عندما ذهب أحدهم ليشترى طعاما : " وكذلك اعثرنا عليهم " أى كما انمناهم وبعثناهم أطلعنا عليهم الناس ليعلم الذين أطلعناهم عليهم : (ان وعد الله حق) وهو البعث لأن حالهم فى نومتهم وانتباههم بعدها كحال من يموت ثم يبعث (١) (وان الساعة لا ريب فيها) فهذا الحادث يصور انتهاء الأجل المحتوم ..

لقد اطلعنا السياق على العبرة المستقاه من خاتمة أولئك الفتية وترك

---

(١) ٢/٤٧٧ الكشاف للزمخشرى الطبعة الأخيرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م

القوم الذين اطلعهم على حالهم برهة خارج الباب يتنازعون فى أمـــر الفتية : على أى دين كانوا وكيف يخلد ونهم ويحفظون ذكراهم للأجيـال وما هى حقيقة البعث ؟

وما هى مدة لبثهم ؟

وينتهى بهم ذلك التنازع الى الاكتفاء بأخذ العبرة منهم فقد دلت افاقتهم بعد السنين التى قضوها نياما على البعث حيث جعل ـ سبحانه ـ هؤلاء الفتية مثل واقعى قريب محسوس يقرب الى الناس قضية البعث فكما ان الله قدر على أن يبعث هؤلاء الفتية من نومتهم قادر على أن يبعث الناس بعد موتهم . . فلينصرف القوم اذن ويكفيهم ما عرفوه من هؤلاء الفتية الذيـــن كشف الله لهم أمرهم ليأخذوا منهم تلك العبره وهى : " ان وعد اللـــه حق وان الساعة لا ريب فيها " .

وبعد أخذهم هذه العبره ماذا يفعلوا بالفتية وهم أمواتا ؟

قال بعضهم " ابنوا عليهم بنيانا " ولم يطلعنا السياق على عقيدة هؤلاء حيث قالوا : " ربهم اعلم بهم " أى بهؤلاء الفتية وبما كانوا عليه من عقيدة . .

وقال آخرون : ـ ويبدو أنهم كانوا أصحاب السلطة فى تلك الحقبـــة " لنتخذن عليهم مسجدا " أى معبد وينصرف القوم عن الفتية ويســـدل الستار على ذلك المشهد ويبدأ الناس فى تناقل الأخبار والروايات عـــن

هذا الحادث العجيب ويمضى جيل بعد جيل وكلما مضى جيل كلما كثر الاختلاف والخلاف فى هذا الحادث حيث زاد الناس عليهم من خيالهم وانقصوا منه حتى تضخم وأصبح مجالا للاختلاف والفتن .

حتى كان عهد النور الذى يمحى الظلام . .

وعهد الحق الذى يمحق الباطل . .

العهد الذى اتصلت فيه السماء بالأرض فانجلت الحقائق . .

حقائق الكون كلها وليست حقيقة أولئك الفتية فحسب العهد الذى ظهر فيه محمد - صلى الله عليه وسلم - ليخرج الناس من الظلمات الى النور بأمر ربه .

فنزل القرآن عليه وأبان للناس كل ما غمض عليهم ومن جملة ذلك : قص - سبحانه - علينا قصة أولئك الفتية " نحن نقص عليك نبأهم بالحق " وعرفنا مما قصه الحق تبارك وتعالى قصة أصحاب الكهف على حقيقتها دون زيادة أو نقصان فالله - سبحانه - خير الفاصلين ،

واستمر السياق القرآنى يشبع فضولنا حول هذا الحادث العجيب استمر فى جلى الحقائق عن تلك القصة الغريبه . .

وها هو يتناول نقطة الجدل حول عدد أولئك الفتية :

" سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب "

" سيقولون " (الضمير لمن خاض فى قصتهم فى زمن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أهل الكتاب والمؤمنين ، سألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنهم فأخر الجواب الى أن يوحى اليه فيهم ، فنزلت اخبارا بما سيجرى بينهم من اختلافهم فى عددهم وان المصيب من يقول سبعة وثامنهم كلبهم .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : انا من أولئك القليل . وروى أن السيد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجرى ذكر أصحاب الكهف ، فقال السيد وكان يعقوبيا : كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم ، وقال العاقب وكان نسطوريا : كانوا خمسة سادسهم كلبهم ، وقال المسلمون : كانوا سبعة وثامنهم كلبهم ، فحقق الله قول المسلمين ، وانما عرفوا ذلك بأخبار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن لسان جبريل عليه السلام) (١) .

هذا هو رأى الزمخشرى على أن عددهم كان سبعة وثامنهم كلبهم ويؤكد ذلك بالاستدلال بالواو التى دخلت على (وثامنهم) ولم تدخل على رابعهم وسادسهم فيقول :

(وهذه الواو هى التى آذنت بأن الذين قالوا سبعة وثامنهم كلبهم

---

(١) ٢/ ٤٧٨ الكشاف للزمخشرى ـ الطبعة الأخيرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م .

قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس ولم يرجموا بالظن كما غيرهم ، والدليل على أن الله - سبحانه - اتبع القولين الأولين قوله : "رجما بالغيب"

واتبع الثالث قوله " وما يعلمهم الا قليل " ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : حين وقعت الواو انقطعت العدة : أى لم يبق بعدها عدة عادّ يلتفت اليها وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع واليقين (١) .

وحيث أن هذا الاستنتاج هو اجتهاد من ابن عباس رضى الله عنه استدل واستشهد به الزمخشرى وحيث لم يصرح القرآن بذلك صراحة عن عددهم .

وحيث أن القرآن أمر بعدم المماراه فيهم - الفتية - وعدم الاكثار من الجدل عنهم .

وحيث أن عددهم - قل أم كثر - لا يمنع حصول العبرة فى أمرهم . .

فاننا نترك هذه النقطة - نقطة تحديد عددهم - دون الجزم والتحديد لعددهم . . كما يقول صاحب الظلال :

(فهذا الجدل حول عدد الفتية لا طائل وراءه . وأنه ليستوى أن يكون ثلاثة أو خمسة أو سبعة ، أو أكثر . وأمرهم موكول الى الله ، وعلمهم عند الله . وعند القليلين الذين تثبتوا من الحادث عند وقوعه أو من

---

(١) ٢/٤٧٩ الكشاف للزمخشرى - الطبعة الأخيرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م .

روايته الصحيحة . فلا ضرورة اذن للجدل الطويل حول عددهم والعبرة في أمرهم حاصلة بالقليل وبالكثير . لذلك يوجه القرآن الرسول - صلى الله عليه وسلم - الى ترك الجدل في هذه القضية ، والى عدم استفتاء أحد من المتجادلين في شأنهم تمشيا مع منهج الاسلام في صيانة الطاقة العقلية أن تبدد في غير ما يفيد . وفي ألا يقف المسلم ما ليس له به علم وثيق ، وهذا الحادث الذى طواه الزمن هو من الغيب الموكول الى علم الله فليترك الى علم الله (١) .

هذا بالنسبة لعددهم ..

أما بالنسبة لمدة لبثهم في الكهف نياما فيخبرنا الحق تبارك وتعالى بالخبر اليقين عن تلك المدة وذلك أن العبرة تكمن في طول مدة اللبث ثم بعثهم من النوم .. أما بالنسبة لعددهم فلا دخل له بأخذ العبرة : ان تلك المدة التي عبر عنها السياق القرآني في بداية الاشارة الى قصتهم بقوله : " فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا " يفصلها الآن ويوضحها بأنها ثلاث مائة سنة وتسعا : " ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض أبصر به واسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا ".

---

(١) ١٥/٨٧ في ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

(ثلاث مائة سنة وتسعا) والفتية وكلبهم معهم نياما ..

انها لخارقة عظيمة ولكنها ليست عظيمة على الله حيث يبين قدرته - سبحانه - على ذلك فيعقب على القصة باعلان الوحدانية الظاهرة الأثر فى سير القصة وأحداثها :

" ما لهم من دونه من ولى . ولا يشرك فى حكمه أحدا "

.....

الغـــرض البيانـى والتربـــوى
من قصـــة أهـــل الكهـــف وكلبهم

مر بنا فى أثناء تحليل القصة كثير من الأغراض البيانية والتربويـــــة نلخصها فيما يلى : -

١ - بيان أن من يتوجه الى الله بقلب سليم فانه يحميه ويصنع له المعجزات لحمايته فقد فر اليه أصحاب الكهف فشملهم برحمته وهـــــداه " من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليـــــــا مرشـــدا " .

٢ - (ان العبرة فى خاتمة هؤلاء الفتية هى دلالتها على البعـــث بمثل واقعى قريب محسوس . يقرب الى الناس قضية البعث . فيعلموا أن وعد الله بالبعث حق ، وان الساعة لا ريب فيها . . وعلى هذ النحو بعث الله الفتية من نومتهم وأعثر قومهم عليهم) (١)

٣ - ان الغرض من ذكر الكلب فى هذه الآية هو الغرض من وجـــوده مع الفتية حيث أنه - الكلب - يكمل تلك القصة أو ذلك الحادث العجيب فقد وقعت فيه الخارقة كما وقعت فى الفتية فنام معهـــم

---

(١) ٨٦/١٥ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

ثلاثمائة سنة وتسعا ثم بعث سعهم وكان فى حالة نومه (باسط ذراعيه بالوصيد) يكمل صورة الفتية فى أنهم كأنهم أحياء فلو أطّلع عليهم أحدا لولى فرارا ولملئ رعبا حيث جعل - سبحانه - الكلب فى هيئة الكلاب المستيقظة التى تبسط ذراعيها وتتولى حراسة أهلها كما جعل الفتية يتقلبون وأن من يراهم يحسبهم ايقاظا .. ذلك أن الكلب كائن حى من مخلوقات الله فوقعت فيه الخارقة لأخذ العبرة منها فى قدرة الله سبحانه على احياءهم بعد موتهم كما أيقظ الكلب والفتية من نومهم الطويل الذى دام ثلاث مائة عام وتسعا .

فسبحان من له فى كل شئ فى الكون آية تشهد له على قدرته وعظمته وليست قصة أهل الكهف فحسب هى التى تشهد له على قدرته وعظمته .

---

*

القسم الثالث

حيوانات أخرى ورد ذكرها في القرآن الكريم

- باب الهمزة -

١ - الابل (١)

ذكرت الابل في موضعين في كتاب الله العزيز :

في قول الله تبارك وتعالى :

" ومن الابل اثنين " (٢)

وفي قول الله تبارك وتعالى :

" أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت " (٣)

أما الآية الأولى فقد جاءت مرتبطه بالآيات التي قبلها للرد على الذين حرّموا ما رزقهم الله وأحله لهم من أنواع الطعام افتراء عليه . . . . . .

وبداية هذه الآيات التي أحلت ما حرموا هي :

قول الله عز وجل : " وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلف أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا

---

(١) الابل : الجمال والنوق لا واحد له من لفظه (مؤنث) والجمع آبال ويقال ابلين للقطيعين ١ / ٣ المعجم الوسيط ط ١

(٢) ١٤٤ ك الأنعام ٦

(٣) ١٧ ك الغاشية ٨٨ .

من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين ، ومن الأنعام حمولة وفرشا ، كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين ".(١)

ثم يأخذ السياق فى مواجهة دقيقة يتتبع بها مكان الأوهام الجاهلية ، ليلقى عليها الضوء ، ويستعرضها واحدا واحدا ، وجزئية جزئية ، فيكشف فيها عن السخف الذى لا يمكن تعليله ولا الدفاع عنه ، والذى قد يخجل منه صاحبه نفسه حين يكشف له فى النور ، وحين يرى أن لا سند له فيه من علم ولا هدى ولا كتاب منير) : (٢) " ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل الذكرين حرم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبئونى بعلم ان كنتم صادقين ، ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين قل الذكرين حرّم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ان الله لا يهدى القوم الظالمين "(٣)

---

(١) الأنعام ٦ ١٤١ - ١٤٢

(٢) ٨/٧٣ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

(٣) الأنعام ٦ ١٤٣ - ١٤٤

فبين الله - سبحانه - في هذه الآيات ان هذه الأنواع التي حرموها على أنفسهم افتراء عليه كلها مباحة اذ الأصل في الأشياء الاباحة وما حرم منها ما هو الا لسلامة الانسان وحفظه ، لا للتضييق عليه ، لذا فقد فصل - سبحانه - هذه الأنواع التي حرموا منها ما شاؤا وأباحوا ما شاؤا ، وحرر المواد التي تقولوا فيها عليه - سبحانه - بتبكيتهم(١) لاظهار كذبهم وافترائهم !

ومن هذه الأنواع التي حررها سبحانه من الحرمة وجعلها مباحة للأكل الأنعام التي أنشأها سبحانه كما أنشأ الجنات المعروشات كما قال فهي من خلقه سبحانه ، هو الذي أنشأهن من غير شركة لأحد في ذلك بوجه من الوجوه . وهذه الأنعام التي أنشأها وحررها من التحريم هي أربعة أنواع من كل نوع زوجان ويريد بالزوجين الذكر والأنثى لأن الزوج معه آخر من جنسه يزاوجه ويحصل منهما النسل فيكون المجموع ثمانية أزواج وتفصيل ذلك كما يلي : -

زوجان من الضأن ويريد بذلك : الكبش والنعجة .

زوجان من المعز ويريد بذلك : التيس والعنزة .

---

(١) التبكيت : التحزين

زوجان من الابل ويريد بذلك : الجمل والناقه .

زوجان من البقر ويريد بذلك : الثور والبقرة .

وقوله سبحانه (حمولة وفرشا) عطف على جنات أى وأنشأ من الأنعام ما يحمل الأثقال وما يفرش للذبح أو ينسج من وبره وصوفه وشعره الفرش . وقوله (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أى لا تتبعوا وسوسة الشيطان عندما نهاكم عن أكل هذه الأنعام فحللتم وحرمتم من عند أنفسكم كما فعل أهل الجاهلية لا تنصتوا للشيطان وكلوا مما رزقكم الله كلوا من هذه الأنعام حلالا طيبا . أما كلمة (ثمانية أزواج) فهى بدل من حمولة وفرشا فيكون المعنى كما لو قيل (ومن الأنعام ثمانية أزواج) .

والهمزة فى قوله (آلذكرين) للانكار والتوبيخ ينكر عليهم سبحانه ما اقدموا عليه ويوبخهم على ذلك . ومجمل ما فى هذه الآيات عن الحيوان الذى ذكر فيها هو :

(انكار ان الله سبحانه حرّم عليهم شيئا من الأنواع الأربعة . واظهار كذبهم فى ذلك وتفصيل ما ذكر من الذكور والاناث وما فى بطونها للمبالغة فى الرد عليهم بايراد الانكار على كل مادة من مواد افترائهم فانهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة واناثها تارة وأولادها كيفما كانت

تارة أخرى مسندين ذلك كله الى الله سبحانه وانما عقب تفصيل كل واحد من نوعى الصغار ونوعى الكبار بما ذكر من الأمر بالاستفهام والانكار مع حصول التبكيت بايراد الأمر عقيب تفصيل الأنواع الأربعة بأن يقال قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الاناث لما فى التثنية والتكرير من المبالغة فى التبكيت والالزام (١) .

اذا فالفرض من ذكر هذه الأنعام الثمانية التى سبق توضيحها هى : بيان أحكام شرعية منها :

١ - أن الأصل فى المأكولات التى أنشأها الله سبحانه فى هذا الوجود (الاباحة) بدليل قوله تعالى : (يا أيها الذين كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله (٢)) .

وقوله سبحانه : " يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا" (٣)

وقوله تعالى : " ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث " (٤) .

وقوله تعالى : " فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله" (٥)

هذا فى المأكولات بصفة عامة أما فى الأنعام بصفة خاصة فدليل اباحتها قوله تعالى : " أحلت لكم بهيمة الأنعام الا ما يتلى عليكم " (٦) .

---

(١) ٢/١٩٣ تفسير أبى السعود المجلد ٢

(٢) آية ١٧٢ م البقرة ٢

(٣) آية ١٦٨ م البقرة ٢

(٤) آية ١٥٧ ك الأعراف ٧

(٥) آية ١١٤ ك النحل ١٦

(٦) آية ١ م المائدة ٥

وما تلاه علينا سبحانه فى هذا الشأن لم يكن فى تحريم نوع الأنعام ذاتها أى لم تكن الحرمة حرمة أصيلة وانما كان التحريم فى بعض الأنعام التى يطرأ عليها طارئ يحتم حرمتها وتسمى هذه الحرمة : حرمة طارئة ، وذلك كالميتة والمنخنقة والمتردية والنطيحة والموقوذة فى قول الله : " والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة "(١). وهذه الحرمة الطارئة ما هى الا لحفظنا بدليل أنها كانت مباحة لنا قبل موتها ولم يتغير شيء الا أنها أصبحت ميته فأصبحت محرمة علينا لسلامة أجسادنا فالله هو الذى خلقنا ويعلم ما يضر أجسادنا وما ينفعها ، ولعله أن تلك الأنواع من الأنعام تصبح فاسدة وضاره بعد موتها حرمها على المسلمين وقد أثبتت الأبحاث الحديثة فى علم الطب والتشريح أن - أجسام الحيوانات التى تموت يصيبها الفساد عقب موتها مباشرة وهذا جزء مما كشفه الله سبحانه لعباده من علمه !!

أما المحرم من أنواع الطعام غير الأنعام فكالميتة أو الدم المسفوح أو لحم الخنزير كما هو مبين فى الآية التى تلت هذه الآيات من سورة الأنعام(٢).

٢ - ان الله سبحانه وتعالى لم يحرم شيئا مما أدعت العرب تحريمه فى هذا

---

(١) ٣ م المائدة ٥

(٢) ١٤٥ الأنعام ٦

الوضع ، بل أن الله - سبحانه - حلل هذه الأنواع الأربعة وثبّت هذا التحليل بتسمية كل نوع منها وعقّب على ذلك التحليل بالوعيد الشديد لكل من يخالف هذا التحليل ويحرم من هذه الأنواع الأربعة شيئـــا بقوله تعالى : " فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ان الله لا يهدى القوم الظالمين " ، وذلك بعد المبالغة في تبكيتهم وتوبيخهم ومن يفعل ذلك يكون قد افترى على الله أى كذب على الله ومن يفترى على الله يكن من الظالمين الذين سيعاقبهم الله بأشد أنواع العقوبة . وقيل أن الظالم المفترى في قوله تعالى : (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) : كبراؤهم المقررون لذلـــك أو عمر بن لحى بن قمعه وهو المؤسس لهذا الشراء أو الكل لاشتراكهم في الافتراء عليه سبحانه وتعالى أى فأى فريق أظلم من فريق افـــترى الخ ولا يقدح في أظلمية الكل أن البعض مخترعين له وبعضهم مقتدين بهم والفاء لترتيب ما بعدها على ما سبق من تبكيتهم واظهار كذبهـــم وافترائهم أى هو أظلم من كل ظالم)(١) .

---

(١) ١٩٤/٣ تفسير أبى السعود المجلد ٢

٣ - سعة نعم الله سبحانه على عباده - فقد امتن سبحانه على عباده بكثرتها وفصل فى هذا الموضع أنواع الأنعام الأربعة وكأنه يقول لهم سبحانه : كلوا ما شئتم حلالا طيبا فمن لم يجد الضأن ليأكل المعز ومن لم يجد المعز ليأكل الابل أو البقر فكلها مباحة لكم ولا تظلموا أنفسكم بتحريمها على أنفسكم . .

أما ترتيب ذكر هذه الأنواع من الأنعام فى الآيات الكريمة فقد كان له مغزى :

ذلك أن الآية الأولى قد ذكرت كلمة (حمولة) ثم كلمة (فرشا) ومعنى حموله أى الأنعام التى يحمل عليها أى أنشأ من الأنعام ما يحمل عليه الأثقال وهذا يختص بالأنعام الكبيرة كالابل . . أما كلمة فرشا فمعناها التى تفرش للذبح أو ما يفرش المصنوع من شعره وصوفه ووبره وقيل أن معنى فرشا هى الأنعام الصغيرة الدانية من الأرض كأنها فرش مفروش عليها ، فكلمة فرشا تختص بالأنعام الصغيرة مثل الضأن ، والمعز ، ثم جاء التفصيل فى هاتين الكلمتين ، لكن هذا التفصيل كان للكلمة الثانية أولا ثم للكلمة الأولى ثانيا . . وبمعنى آخر جاء التفصيل فى كلمة (فرشا) أولا اذ أن قوله تعالى : (من الضأن اثنين ومن المعز اثنين) هو تفصيل لكلمة فرشا .

ثم جاء التفصيل فى كلمة (حمولة) اذ أن قوله تعالى : (ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين) هو تفصيل لكلمة (حمولة) . ولعل فى تقديم التفصيل لكلمة فرشا مع تأخر أصلها فى الاجمال لكون هذين النوعين - الضأن والمعز - (عرضة للأكل الذى هو معظم ما يتعلق به الحل والحرمة وهو السر فى الاقتصار على الأمر به فى قوله تعالى : كلو مما رزقكم الله من غير تعرض للانتفاع بالحمل والركوب وغير ذلك مما حرموه فى السائبه واخواتها)[1] .

---

(١) ١٩٣/٣ تفسير ابى السعود المجلد ٢

٤ - ويتناول القرآن الابل من ناحية أخرى غير ناحية الاباحة والتحريم فى أكلها .. يذكر الابل ويلفت الأنظار اليها من حيث هى آية من آيات الله الدالة على قدرته سبحانه فى الخلق والتصوير والابداع :

" أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ؟ "(١)

هذه الآية من سورة الغاشية التى هى (واحدة من الايقاعات العميقة الهادئة . الباعثه الى التأمل والتدبر ، والى الرجاء والتطلع ، والى المخافه والتوجس ، والى عمل الحساب ليوم الحساب وهى تطوّف بالقلب البشرى فى مجالين هائلين : مجال الآخرة وعالمها الواسع ، ومشاهدها المؤثره . ومجال الوجود العريض المكشوف للنظر ، وآيات الله المبثوثة فى خلائقه المعروضه للجميع . ثم تذكرهم بعد هاتين الجولتين الهائلتين بحساب الآخره ، وسيطرة الله ، حتمية الرجوع اليه فى نهاية المطاف .. كل ذلك فى أسلوب عميق الايقاع ، هادىء ، ولكنه نافذ رصين ولكنه رهيب !)(٢) .

وهذه الآية التى نحن بصددها هى احدى أربع آيات من هذه السورة فى التأمل فى الوجود الظاهر (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت؟)

---

(١) ١٧ ك الغاشية ٨٨

(٢) ٣٠/١٤٣ - ١٤٤ فى ظلال القرآن لسيد قطب الطبعة الأولى

هذه الآيات الأربع تجمع أطراف (بيئة العربى المخاطب بهذا القرآن أول مرة كما تضم أطراف الخلائق البارزه فى الكون كله . حين تتضمن السماء والأرض والجبال والجمال (ممثلة لسائر الحيوان) على مزية خاصة بالابل ، فى خلقها بصفة عامة وفى قيمتها للعربى بصفة خاصة)[1] .

فالمؤلف الجليل سيد قطب هنا يجعل (الابل) ممثلة لسائر الحيوان اذ أن الله سبحانه وتعالى حين لفت الأنظار الى خلق الابل تضمن ذلك التأمل فى سائر الحيوان وفى هذا انفتاح واتساع فى المعنى حيث لا يقتصر التأمل فى الابل فقط وانما فى سائر الحيوان . . ذلك أن مشاهد الحيوان معروضة لنظر الانسان حيثما كان ، أيا كان حظه من العلم والحضارة ، فهى موحية له بما وراءها حين يوجه نظره وقلبه الى دلالتها فقدرة الخالق لا حدود لها تتجلى فى كل آية ، تتجلى فى خلق الحيوانات جميعا صغيرها وكبيرها قويها وضعيفها ، فاذا تأملنا فى خلق الحيوانات الصغيرة والنظام الذى تسير عليه وكيف ركب جسمها بحيث يحمل كل الأعضاء التى تؤهلها لأن تكون كائن حى : أعين تبصر بها ، وفم تأكل به ، وأنف وأرجل وأيد وكيف وجد فيها هذا المخ الذى يسيرها كل ذلك وغيره أدعى للتأمل والتعجب لدقته وصغره ويوحى بما

---

(١) ١٤٧/٣٠ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

وراءه من الدلالة ويجعل الانسان يزداد ايمانا بالله تماما كما يزداد ايمانه حين يتأمل الحيوانات الكبيرة الضخمة مثل الابل التى دعى الى تأملهـــا سبحانه ، أما اذا جعلنا النظر والتأمل محصوران فى الابل وحدهـــا فالمعجزة كامنه فيها وهى وحدها كافية لأن توحى بحقيقة العقيدة الأولى!! ذلك أن الابل (من الحيوانات العجيبة وان كان عجبها سقط من أعين الناس لكثرة رؤيتهم اياها وهو أنه حيوان عظيم الجسم شديد الانقيـــاد وينهض بالحمل الثقيل ويبرك به وتأخذ بزمامه فأرة تقوده الى حيث شاءت ويتخذ على ظهره بيت يقعد الانسان فيه مع مأكوله ومشروبه وملبوسه ... والوساده والملحفة والنمرقه كما فى بيته ويتخذ للبيت سقف وهو يمشى بكل هذه)[1] . فالابل لها (خصائص تفردها من بين الحيوان . فهى على قوتها وضخامتها وضلاعة تكوينها ذلول يقودها الصغير فتنقاد ، وهى على عظم نفعها وخدمتها قليلة التكاليف مرعاها ميسر ، وكلفتها ضئيله ، وهـى أصبر الحيوان المستأنس على الجوع والعطش والكدح وسوء الأحوال)[2] . تقطع الصحارى القفار فلا تكل ولا تهون بل تسير شامخة فى أنفة وكبرياء صابرة على الجوع والعطش حتى ان اظماءها لتبلغ العشر فصاعدا واكتفاءها

---

(١) ص ٤٠٤ - ٤٠٥ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، زكريـــا القزوينى ، ط ٣

(٢) ٣٠/ ١٤٨ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

باليسير ورعيها لكل ما يتيسر من شوك وشجر وغير ذلك مما لا يكاد يرعاه سائر البهائم حتى استحقت بهذا الصبر وهذه القوة والجلاده أن تسمى (سفينة الصحراء) .. ثم ان لهيئتها مزية حيث خلقت على هذا النحو المناسب لوظيفتها ، المحقق لغاية خلقها المتناسق مع بيئتها ووظيفتها جميعا : (طويلة ثم تبرك حتى تركب أو تحمل عليها ثم تقوم فكذا السرير يخاطىء للمؤمنين كما يخاطىء الابل)(١) .

ولما كانت للابل كل هذه المزايا فى خلقها وتكوينها كانت هى (الحيوان الأول للعربى) الذى يعتمد عليه فى حياته ، فعليها يسافر ويحمل (ومنها يشرب ويأكل ومن أوبارها وجلوده ها يلبس وينزل فهى مورده الأول للحياة)(٢) .. ولما كانت كذلك - الحيوان الأول للعربى بما لها من مزايا فى خلقها وتكوينها - خصها الله سبحانه وتعالى بالذكر ولفت اليها النظر ووضعها موضع تأمل وعناية واهتمام :

" أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ؟ " فكانت هذه اللفته - من الخالق جل وعلا - نقلة عظيمة أعطت الانسان مفاتيح المنهج العلمى بعد أن كان الانسان محدود النظر فى الكون ، ودفعته الى التأمل فى الكون والبحث

---

(١) ص ٣٣٤ - ٣٣٥ تفسير النسقى الربع الرابع

(٢) ٣٠/١٤٨ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

عما فيه ، وان الانسان ليجد نفسه انه كان غبيا حين لم يدرك بنفسه قيمة تلك الأعجوبة التى كان يسخرها لخدماته ويستفيد منها كيفما شاء ، والظاهر أن تغطيتها لجميع حوائجه تقريبا جعلته لا يفكر فيها ولا يتأمل فيها حيث أن الانسان لا يعرف قيمة الشيء الاّ اذا غاب عنه ! ولكن حين تأملها كما أمره القرآن وجد أن لها أكثر من جانب يمكن الوقوف عنده والاعتراف أمامه بقدرة الخالق جل وعلا وقد حاول الألوسى - كما حاول غيره - أن يحصر تلك الجوانب لعلها تكون السبب أو السر الذى خص الله سبحانه الابل بالذكر والدعوة الى التأمل فيها . . لكن الحقيقة أنه لا حصر لها يقول الألوسى :

(خصت بالذكر لأنها أعجب ما عند العرب من الحيوانات التى هى أشرف المركبات وأكثرها صنعا ولهم على أحوالها أتم وقوف . وعن الحسن أنها خصت بالذكر لأنها تأكل النوى وألقت وتخرج اللبن وقيل له الفيل أعظم فى الأعجوبة فقال : العرب بعيدة العهد بالفيل ثم هو خنزير لا يؤكل لحمه ولا يركب ظهره . . أى على نحو ما يركب ظهر البعير من غير مشقة فى تريضه ولا يحلب درّه)(١) .

ولعل فى خلق الابل أسرارا أخرى غير التى عرفها العرب والعلماء لم يصل اليها العلم حتى الآن !

---

(١) ص ١٤٨ روح المعانى للألوسى . المجلد العاشر

أما مجيء الاستفهام فى الآية الكريمة فهو (استئناف مسوق لتقرير ما فصل من حديث الغاشية وما هو مبنى عليه من البعث الذى هم فيه مختلفون بالاستشهاد عليه بما لا يستطيعون انكاره . والهمزة للانكار والتوبيخ)(١) . وهناك مذهبان فى كلمة (أفلا) أى (الهمزة و (الفاء) و (الا) :

المذهب الأول : ان الهمزه مقدمه من تأخير لأن كلمة (أفلا) معناها (فألا) ولما كانت حروف الاستفهام لها الصداره قدمت على الفاء فقال (أفلا ينظرون) .

المذهب الثانى : ان أداة الاستفهام فى موضعها ولم تقدم من تأخير وانما من مدخولها محذوف تقديره فى الآية الكريمه (أعموا فلا يبصرون) ويقدر مدخول أداة الاستفهام بحسب المقام والأقرب أن يقال فى هذه الآية أن الاستفهام فيها للأمر مع التوبيخ على عدم نظرهم ومعناها (فلينظروا) والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وكلمة كيف منصوبة بما بعدها على أنها حال من مرفوع (خلقت) .

وبعد أن عرفنا الكثير عن هذا الحيوان (الابل) الذى رفع الله سبحانه مكانته فخصه بالذكر دون سائر الحيوانات الأخرى فى هذا الموقف ، وأحال بهذه الآية الكريمة موضوع الحيوان الى موضوع تأمل ونظر تماما كما لفت

---

(١) ١٥٠/٩ تفسير أبى السعود المجلد ٥

الأنظار الى آياته سبحانه فى هذا الوجود كالشمس والقمر والنبات والانسان فى مواضع كثيره كقوله سبحانه : (وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم) فقال عن الابل : (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت) فهى لا تقل أهمية فى الخلق عن باقى آياته سبحانه .. لا تقل أهمية فى الخلق عن خلق السماء التى رفعت بغير عمد .. لا تقل أهمية فى خلقها عن خلق الجبال التى نصبت فكانت رواسى تحفظ الأرض من أن تميد بنا .. لا تقل أهمية فى خلقها عن خلق الأرض التى سطحت .. بل قد يكون خلق الابل أدق وأعظم وأروع وأدل على قدرة الله سبحانه وتعالى ، وان هذا هو السبب فى تقديمها على السماء والجبال والأرض حيث بدأ سبحانه فقال : (أفلا ينظرون : الى الابل كيف خلقت ؟

والى السماء كيف رفعت ؟

والى الجبال كيف نصبت ؟

والى الأرض كيف سطحت ؟ ..

بعد أن عرفنا السبب فى أن الله سبحانه خصها بالذكر وجعلها لا تقل أهمية عن باقى آياته .. بقى أن نعرف الغرض من ذكر الابل لما ذكرها ؟ لما خصها بالذكر ؟

لقد نبههم الله سبحانه فى هذه الآية الى أن الابل التى يرونها أمامهم

ليست بالخلق الهين - وان كانوا قد ألفوا رؤيتها - بل فيها قدرة وابداع هائلين .. وان هذا الخلق لم يكن لهم به علم ، وان الابل ليس لها أن تخلق نفسها بل لا بد أن يكون هذا الخلق من صنع الخالق وحده سبحانه ، وهذا يقتضى التسليم بقدرته سبحانه واذا سلمنا بقدرته سبحانه فى هذا الخلق الأول مرة يقتضى ذلك التسليم بقدرته سبحانه فى البعث لأن من خلق الخلق أول مرة كان أقدر على اعادته مرة أخرى فذكره سبحانه للابل هنا ولفته النظر اليها والتأمل فيها هو تذكير لهم بقدرته على أن من خلق هذا الخلق المبدع قادر على اعادة الخلق مرة أخرى يوم البعث ، قادر على بعثهم من جديد بعد أن بلوا وأصبحوا رميم .. فكأنه سبحانه يقول لهم :

اذا نظرتم الى الابل وما فيها من دقة وعظمة فى الخلق ستعترفون بأن من خلق مثل هذا الخلق المبدع أول مرة قادر على أن يبعث الخلق كله من عدم مرة أخرى .. وليس اعترافهم بهذا كله ونظرهم الى آيات الله وما فيها (الابل) ليس اجبارا ولا يضر الله فى شئ سبحانه ولا ينفعه ولا يزيد فى قدرته اذا هم اعترفوا بتلك القدره ولا ينقص من قدرته سبحانه لذا فانه يخاطب رسوله الكريم - صلى الله عليه وسلم -

ويقول لهم ذكرهم فقط بتلك الآيات :

(فذكر انما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر)

وهذا هو الغرض من ذكر (الابل) في هذه الآية الكريمة :

((أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ؟))

باب البـــاء

أولا : البقـــــــر

البقر جنس من فصيلة البقريات يشمل الثور والجاموس ، ويطلـــق على الذكر والأنثى ، ومنه المستأنس الذى يتخذ للبن والحرث ومنـــــه الوحشى)[١] . أما المستأنس فهو (حيوان شديد القوة كثير المنفعـة خلقه الله تعالى ذلولا وانما لم يخلق له سلاح شديد كما للسباع لأنـــه فى رعاية الانسان والانسان يدافع عنه عدوه ولأن حاجة الانسان اليـــه ماسة فلو كان له سلاح شديد لصعب على الانسان ضبطه)[٢] .

وأما البقر الوحشى فله (قرن عظيم نحو شعب كل سنة تنبت على قرنه شعبة زائدة وقرنه مصمت بخلاف قرون سائر الحيوانات فان قرونهـــا مجوفه واذا سمع الغناء أو صوت الملاهى يصغى اليها ولا يحذر حينئذ من النشاب لشدة التذاذه بها واذا رفع أذنه يسمع الأصوات ، فاذا أرخاها لا يسمع شيئا واذا مرض يأكل الحيات والأفعى يزول مرضه ويأكل الأفعـــى من ذنبها فاذا وصل الى رأسها يرميها والأفعى اذا أحست به تتســـلل فى جحرها والبقرة تأتى الى حجرها وتجعل فمها على الجحر وتجذبهـــا بقوة النفس فتقتلها وحكى ان بقرة أزعجت وتبعها الفرسان والكلاب وهـــى

---

(١) ١/٦٥ المعجم الوسيط ط ٢

(٢) ص ٤٠٥ - ٤٠٦ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات لزكريا القزوينى ط ٣

تعدو سريعا فأصبت فى عدوها حية فوقفت وقتلتها ثم شرعت فى العدو فكأنها رأت أن قتل الحية أهم من نجاة النفس) (١) .

وقد ورد ذكر البقرة فى القرآن الكريم - عدا بقرة بنى اسرائيل التى تكرر ذكرها حوالى ست مرات فى سورة البقرة - فى سورة الأنعام مرتين وسورة يوسف مرتين .. أما المرة الأولى فى سورة الأنعام فهى قول الله عز وجل : " ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين ..) (٢) .

وقد سبق شرحها مع الابل .. وأما المرة الثانية فى سورة الأنعام فهى قول الله عز وجل : " ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها الا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون" (٣)

وهى تكملة للآية التى قبلها والتى بينت الأحكام الشرعية فى الأنعام التى حرموها وأبطلت تحريمهم لها حيث استعرض السياق القرآنى (فى تفصيل شديد سخافة تصوراتهم فيما يختص بالأنعام ، وخلوها من كل منطق ، وألقى الأضواء على ظلمات التصورات حتى لتبدو تافهة مهلهلة متهافتة ..

وفى نهاية هذا الاستعراض يسأل : علام ترتكنون فى هذه التشريعات

---

(١) ص ٤٠٧ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات لزكريا القزوينى ط ٣

(٢) آية ١٤٤ سورة الأنعام ٦

(٣) آية ١٤٦ سورة الأنعام ٦

الخالية من كل حجة ومنطق : " أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهـــذا ؟" فكان ذلك سرا تعلمونه أنتم ووصية خاصة بكم ! ويشفع بجريمة الافتراء على الله ، واضلال الناس بغير علم . ويجعل هذا التشنيع أحد المؤشـرات المتنوعة التي يستخدمها)(١) لقد لفت السياق القرآني أنظارهم الى أن الله هو الذي أنشأ لهم هذه الأموال التي يتصرفون فيها كيفما شـاؤا ، وهو الذي خلق لهم هذه الأنعام .. (والذي يرزق هو وحده الـذي يملك ، وهو وحده الذي يشرع للناس فيما رزقهم من هذه الأموال ... وفي هذه اللفتة استخدم حشدا من المؤشرات الموحـية من مشاهـــد الزروع والثمار والجنات المعروشات وغير المعروشات ومن نعمة الله عليهم في الأنعام التي جعل بعضها حمولة لهم يركب ويحمل وبعضها فرشـا ، يؤكل لحمه ويفرش جلده وصوفه ، وشعره .. كما استخدم ذكرى العداء المتأصل بين بني آدم والشيطان . فكيف يتبعون خطوات الشيطان وكيف يستمعون لوسوسته وهو العدو المبين ؟ !)(١) : " ومن الأنعام حمولـة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبـين ، ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين امّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبؤني بعلم ان كنتم صادقين ، ومن الابل

---

(١) ٥٩/٨ في ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

اثنين ومن البقر اثنين قل : آلذكرين حرّم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ان الله لا يهدى القوم الظالمين" (١).

ان هذه الأنعام التى حرموها على أنفسهم لم يحرمها الله عليهم بل وهبهم اياها نعمة من عنده فمن أين أتوا هم بهذا التحريم ؟ انه افتراء .. افتراء على الله لا أصل له سوى الكفر فى نفوسهم .. ويأمر الله رسوله بأن يبلغهم تلك الحقيقة ويكشفهم : (قل لا أجد فى ما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فانه رجس أو فسقا أهل لغير الله به فمن أضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم) (٢)

فهذه الآية ايذان بأن مناط الحل والحرمة هو الوحى وأنه - صلى الله عليه وسلم - قد تتبع جميع ما أوحى اليه وتفحص عن المحرمات فلم يجد غير ما فصل وفيه مبالغة فى بيان انحصارها فى ذلك . و (محرما) صفة لمحذوف أى لا أجد ريثما تصفحت ما أوحى الى طعاما محرما من المطاعم التى حرموها) (٣). على أى طاعم من ذكر أو أنثى الا أن يكون ذلك الطعام غير صالح للانسان وفيه مضرة وهلاك عليه فقد حرمه الله ،

---

(١) ١٤٢ - ١٤٤ الأنعام ٦
(٢) ١٤٥ الأنعام ٦
(٣) ١٥٤/٣ تفسير أبى السعود المجلد ٢

لأنه ـ سبحانه ـ أدرى بما يضرّ عباده وما ينفعهم فهو الذى خلق أجسادهم وكونها فالأشياء التى تهلك أجسامهم حرمها عليهم حفاظا عليهم ومصلحة لهم ليس الا . . وقد أثبتت الأبحاث الحديثة فى علم الطب والتشريح أن أجسام الحيوانات التى تموت يصيبها الفساد عقب موتها مباشرة وهذه حكمة بينها الله سبحانه لعباده على أيديهم ليقتنعوا بأن ما حرمه عليهم ما هو الا لمصلحتهم : (الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فانه رجس أو فسقا أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم) فحيث التبس عليهم الأمر وخلطوا بين ما أحل الله وما حرمه شرعت الآية الكريمة تبين لهم المحرم من الطعام وذلك بعد أن بينت الآية التى قبلها الطعام المباح أكله وفى آية أخرى بين سبحانه أن الأصل فى الطعام الاباحة (الا ما يتلى عليكم) . فله سبحانه حكم من تحريمه لا تخرج عن مصلحة عباده كالدم المسفوح ففيه مضرة للجسم والمسفوح هو المصبوب كالدماء التى فى العروق فهو محرم أكله لا كدماء الطحال والكبد فهذه الدماء ليست محرمه . (أو لحم خنزير فانه رجس) أى لحمه قذر لتعوده أكل النجسات كما أن لحم الخنزير غير صالح للأكل حيث أثبتت الأبحاث الحديثة أن فى فم الخنزير الدودة الشريطية التى تضر بالانسان وقوله

ـ سبحانه ـ (أو فسقا) عطف على لحم خنزير وما بينهما اعتراض مقرر لحرمته . ومعنى (فسقا) أى ذبح على اسم الأصنام لغير الله : (أهل لغير الله به) فهى صفة موضحة لفسقا وانما سمى فسقا لتوغله فى الفسق وفى تأويل قوله تعالى : " فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم " قيل : (ان معناه : فمن اضطر الى أكل ما حرم الله من أكل الميتة والدم المسفوح أو لحم الخنزير أو ما أهل لغير الله به، غير باغ فى أكله اياه تلذذا ، لا لضرورة حالة من الجوع ، ولا عاد فى أكله بتجاوزه ما حده الله وأباحه له من أكله ، وذلك أن يأكل منه ما يدفع عنه الخوف على نفسه بترك أكله من الهلاك . . لم يتجاوز ذلك الى أكثر منه . . . فلا حرج عليه فى أكله ما أكل من ذلك . " فان الله غفور رحيم " فيما فعل من ذلك ، فساتر عليه ، بتركه عقوبته عليه . ولو شاء عاقبه عليه ومنعه منه أما حد الاضطرار الذى يباح فيه الأكل من هذه المحرمات ، والمقدار المباح منها فحولها خلافات فقهية . . فرأى أنه يباح ما يحفظ الحياة فقط عند خوف الهلاك لو امتنع . . . ورأى أنه يباح ما يحقق الكفاية والشبع . ورأى أنه يباح فوق ذلك ما يدخر لأكلات أخرى اذا خيف انقطاع الطعام . . ولا ندخل فى تفصيلات الفروع . . فهذا القدر منها يكفى فى هذا الموضع)[١] .

(١) ٧٦/٨ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

والمهم هو أننا عرفنا أن الحيوانات المباح أكلها قبل موتها اذا ماتت يصبح أكلها محرم على المسلم اذا : الأشياء المحرم أكلها على الانسان في هذه الآية الكريمة :

(الميتة . الدم المسفوح . لحم الخنزير . الذبح الذى يذبح لغير الله)

هذه الأشياء حرمها الله (حقا عن بينة ووحى ، لا عن ظن ووهم . والله هو صاحب الحاكمية الشرعية ، الذى اذا حرم الشيء فهو حرام ، واذا أحله فهو حلال ، بلا تدخل من البشر ولا مشاركة ولا تعقيب في سلطان الحاكمية والتشريع . .

وبالمناسبة يذكر ما حرمه الله على اليهود خاصة ، وأحله للمسلمين ، فقد كان عقوبة خاصة لليهود على ظلمهم وبعدهم عن شرع الله)[1] : (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون)[2] . فالمقصود بالذين هادوا اليهود . . وكل ذى ظفر أى كل حيوان قدمه غير مشقوقه أو كل ما له اصبع كالابل والنعام والأوز والبط والسباع . (وقيل كل ذى مخلب وحافر وسمى الحافر ظفرا مجازا

---

(١) ٧٥/٨ في ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

(٢) ١٤٦ الأنعام ٦

والسبب عن الظلم هو تعميم التحريم حيث كان بعض ذوات الظفر حلالا لهم فلما ظلموا عم التحريم كلها)[1] . لقد حرّم الله سبحانه على اليهود خاصة - لا على من عداهم من الأولين والآخرين - كل حيوان له ظفر كما حرّم عليهم أيضا (شحم البقر والغنم) لا لحومهما فانها باقية على الحل . والشحوم : الثروب وشحوم الكلى . وقوله (شحومهما) بالاضافة لزيادة الربط . ولم يثقل سبحانه على اليهود بأن يحرم عليهم الشحم مطلقا في البقر والغنم وانما استثنى الشحم الذى يصعب عليهم فصله عن اللحم وذلك كالشحم العالق على ظهور البقر والغنم : (الا ما حملت ظهورهما) فهذا الشحم غير محرم عليهم . كذلك الشحم الذى تحمله الحوايا وهي جمع حاويه أو حاوياء كقاصعاء وقواصع أو حويه كسفينة وسفائن وحاوية هي الأمعاء فالشحم الملتف بالأمعاء غير محرم عليهم . كذلك الشحم الذى اختلط بالعظم أى اتصل بعجب الذنب وقيل هو كل شحم متصل بالعظم من الأضلاع وغيرها .

وقد بين النص القرآني سبب هذا التحريم الخاص باليهود :

(ذلك جزيناهم ببغيهم وانّا لصادقون) وان هذا التحريم هو الصدق (لا ما يقولونه هم من أن اسرائيل ، وهو يعقوب جدهم ، هو الذى حرّم

---

(١) ١٩٥/٣ تفسير ابى السعود المجلد ٢

هذا على نفسه فهو يتبعونه فيما حرم على نفسه . . لقد كان هذا مباحا حلالا ليعقوب . ولكنه حرم عليهم بعد ما بغوا فجازاهم الله بهـــــذا الحرمان من الطيبات)[1] .

. . . . . .

---

(١) ٧٧/٨ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

الغرض البياني والتربوي

من ذكر البقر والغنم وكل ذي ظفر في هذه الآية

ذكرت هذه الآية ما حرم على اليهود بمناسبة ما حرم على المسلمين، حيث حفل المنهج القرآني بهذه الواقعيات العملية وهذه الجزئيات التطبيقية في الحياة البشرية . . . حفل بانطباقها على شريعة الله وعلى تقرير الأصل الذي يجب أن تستند اليه ، وهو حاكمية الله . . أو بتعبير آخر ربوبية الله. ان هذه الواقعيات العملية وهذه الجزئيات التطبيقية في الحياة البشرية (تلخص قضية العقيدة في الاسلام ، كما تلخص قضية " الدين ". فالعقيدة في الاسلام تقوم على أساس شهادة . أن لا اله الا الله . وبهذه الشهادة يخلع المسلم من قلبه ألوهية كل أحد من العباد ويجعل الألوهية لله . ومن ثم يخلع الحاكمية عن كل أحد ويجعل الحاكمية كلها لله . . والتشريع لصغيرة هو مزاولة لحق الحاكمية كالتشريع لكبيرة فهو من ثم مزاولة لحق الألوهية يأباه المسلم الا لله . . والدين في الاسلام هو دينونة العباد في واقعهم العملي - كما هو الأمر في العقيدة القلبية - لألوهية واحدة هي ألوهية الله . ونفض كل دينونة في هذا الواقع لغير الله من العباد المتألهين ! والتشريع هو مزاولة للألوهية ، والخضوع للتشريع هو الدينونة

لهذه الألوهية .. ومن ثم يجعل المسلم دينونته في هذا لله وحده ويخلع ويرفض الدينونه لغير الله من العباد المتألهين ! (١)

وهكذا فقد حفل المنهج القرآني بتقرير هذه الأصول الاعتقادية والاتكاء عليها .. ولتثبيت هذه الأصول الاعتقادية أكثر وأكثر في نفوس المسلمين ذكرت الآية ما حرم على اليهود تأديبا لهم حيث ظلموا فجزاهم الله على ظلمهم بتحريم كل ذي ظفر وتحريم شحوم البقر والغنم - كما أسلفنا - وكأن هذه الآية تلفت نظر المسلمين الى أن هذه الجزئيات التطبيقية في الحياة البشرية هي أصل العقيدة فحين ظلم اليهود جزاهم الله على ظلمهم وبغيهم بهذا الحرمان من الطيبات ، فلا تظلموا أيها المسلمين كما ظلم اليهود . وهكذا كان الغرض البياني والتربوي من ذكر البقر والغنم وكل ذي ظفر في الآيات السابقة .

---

(١) ٨/٥٤ في ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

البقرة فى سورة يوسف

ذكرت البقرة فى سورة يوسف مرتين :

١ - فى قول الله تبارك وتعالى : " وقال الملك انى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف[(١)] وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى ان كنتم للرؤيا تعبرون[(٢)] ".[(٣)]

٢ - وفى قول الله تبارك وتعالى :

" يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع الى الناس لعلهم يعلمون ".[(٤)]

وقد ورد ذكر البقرة فى الآيتين حكاية لرؤيا الملك فى مصر حيث رأى رؤيا أهمته فطلب تأويلها من رجال حاشيته ومن الكهنة والمتصلين بالغيبيات وذلك فى زمن نبى الله يوسف - عليه السلام - حيث كان - عليه السلام - فى السجن بعد أن (أمر الملك بسجنه دون تحرود دون بحث ،

---

(١) عجاف : من العجف وهو ظهور العظام من الهزال .

(٢) تعبرون : أى تصلون الى نهايتها وتذكرون مآلها .

(٣) ٤٣ يوسف ١٢

(٤) ٤٦ يوسف ١٢

الا ما نقله اليه بعض حاشيته من وشاية لعلهم صوروا له فيها حادث امرأة العزيز وحادث النسوة (١) تصويرا مقلوبا كما يقع عادة فى مثل هذه الأوساط)

وكان مع النبى يوسف عليه السلام فى السجن اثنان من خدم الملك الخواص انسا اليه لما توسمانه فيه من الطيبة والصلاح وحسن العباده والذكـــر والسلوك ، فقصا عليه كل منهما رؤيا رآهـا ، وطلبا كل منهما اليـــه تعبيرها ، فأول لهما رؤياهما بما وهبه الله من علم ثم طلب من أحدهما اذا نجا من السجن- حسب تأويل الرؤيا - ان يبلغ أمره الى الملـــك ليفحص عن سبب سجنه عليه السلام فنسى ذلك السجين عندما خرج مـــن السجن طلب يوسف عليه السلام ولم يذكره للملك حتى كانت رؤيا الملك عن البقرات :

---

(١) حادث امرأة العزيز وحادث النسوة هو ان امرأة عزيز مصر - أى كبير وزرائها - قد شغفها حب النبى يوسف عليه السلام فراودته عن نفسه حيث اتخذه زوجها - عزيز مصر - ليكون لهما ولدا ، وسمعن النسوه بأمرها وقلن عنها : " انا لنراها فى ضلال مبين فلما سمعت بمكرهن أرسلت اليهن واعتدت لهن متكأ ، وآتت كل واحدة منهن سكينا ، وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم . قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين) الآية ٢٠ - ٢٢ سورة يوسف ١٢ وفعلا انتهى كيد امرأة العزيز بأن زج به فى السجن ظلما .

" وقال الملك : انى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . يا أيها الملأ افتونى فى رؤيا ى ، ان كنتم للرؤيا تعبرون ، قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين " (١) .

فتذكر ذلك الذى نجا من السجن يوسف وتأويله لرؤياه وصاحبه فى السجن وكيف أن تأويله - عليه السلام - قد تحقق فليس هناك من يعبر هذه الرؤيا التى أهمت الملك وأقلقته غير يوسف - عليه السلام - خاصة وقد أظهر كبار المشتغلين بمثل هذه الأمور وكبار الكهنة والمتصلين بالغيبيات فشلهم وقالوا : (أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين " ففرح ذلك الذى نجا من السجن بما تذكره عن يوسف وبادر قائلا فى مجلس الملك : (أنا أنبئكم بتأويله : فارسلون)

واذا أراد الله شيئا هيأ الأسباب كما يريد . . أراد أن يمكن ليوسف - عليه السلام - فى الأرض لأنه من المحسنين فقضى بفشل هؤلاء جميعا ليتذكروا يوسف فى السجن فتظهر براءته ويمكن الله له فى الأرض كما جاء فى نهاية هذه القصة . .

---

(١) آية ٤٣ - ٤٤ سورة يوسف ١٢ .

نرى يوسف فى السجن وقد أتاه ذلك الذى كان معه فى السجن يستفتيه وذلك فى الآية الثانية التى ورد ذكر البقرة فيها :

" يوسف - أيها الصديق - أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، لعلى ارجع الى الناس لعلهم يعلمون "(١)

واذا تأملنا ألفاظ الرؤيا التى يحكيها الرجل ليوسف - عليه السلام - فى هذه الآية نجد أنها نفس الألفاظ التى قالها الملك فى الآية الأولى ، نقلها الرجل ليوسف - عليه السلام - (لأنه يطلب تأويلها فكان دقيقا فى نقلها ، وأثبتها السياق مرة أخرى ليبين هذه الدقة أولا وليجىء تأويلها ملاصقا فى السياق لذكرها)(٢) . وبما أن الرؤيا السابقه التى أولها يوسف - عليه السلام لهذا الرجل الذى كان معه فى السجن قد تحققت وصدق تعبيره فقد ناداه فى هذه الآية (بالصديق) أى الصادق فى كلامه الذى لم يكن تعبيره لرؤياى مجرد كلام يقوله وانما كان عن علم من الله (ذلكما مما علمنى ربى) .

وشرع يوسف - عليه السلام - فى تأويل رؤيا الملك لمبعوث الملك اليه ولكن تأويله لم يكن هو التأويل المباشر المجرد ، انما كان هو التأويل

---

(١) آية ٤٦ سورة يوسف ١٢

(٢) ١١٥/١٢ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

والنصح بمواجهة عواقبه ، تأويل انسان يفتى على علم وبصيره وهدى من الله : " قال تزرعون سبع سنين دابا " أى تزرعون سبع سنين متواليه متتابعه . . فأوّل - عليه السلام - السبع بقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب حيث أنهم اذا واظبوا سبع سنين على الزراعة وبذلوا فيها جهدهم يتحقق الخصب الذى هو مصداق البقرات السمان وقد دلهم - عليه السلام - فى تضاعيف ذلك التأويل على أمر نافع لهم فقال - عليه السلام - : " فما حصدتم فذروه فى سنبله أى فاتركوه فعسى سنابله ولا تخرجوه منها فيأكله السوس وتتلفه المؤثرات الجوية . ولعله استدل - عليه السلام - على ترك الحصاد فى سنبله برؤية الملك للسنابل الخضر فأمرهم بترك الحصاد فى سنبله لأن هذا الأمر - ترك الحصاد فى سنبله - أمر غير معتاد فيما بينهم بل المعتاد هو جمعه من سنبله ولكن الأمر يختلف فى هذه المره حيث أن هناك سنوات رخاء تتبعها سنوات شداد مجدبة كما سيأتى .

" الا قليلا مما تأكلون " أى قليلا من ذلك الحصاد جردوه من سنبله لتأكلوه ، وقد أمر - عليه السلام - بأكل القليل وترك الكثير فى سنبله وفى ذلك حث لهم على التقليل فى الأكل لاعدادهم وتهيئتهم لما سيكون فى السنوات المقبله التى عرفها من رؤية الملك فى قوله :

(يأكلهن سبع عجاف) فأول أكل السبع بقرات العجاف للسبع بقرات

السمان بمجيء السنوات السبع المجدبة بعد السبع سنوات التى يزرعون فيها فقال - عليه السلام : " ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن " فبعد السنوات السبع المخصبة المرموز لها بالبقرات السمان تأتى سنوات سبع مجدبة لا زراعة فيها حيث لا ماء من الأرض ولا مطر من السماء . وقوله - عليه السلام - : " يأكلن ما قدمتم لهن " فيه مجاز فكأن هذه السنوات هى التى تأكل بذاتها كل ما يقدم لها لشدة نهمها وجوعها ، وهذا تلويح بأنه تأويل لأكل البقرات العجاف للبقرات السمان .

" الا قليلا مما تحصنون " الا قليلا مما تحفظونه وتصونونه من التهامها .

" ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون " أى يأتى من بعد تلك السنوات السبع الشداد العجاف المجدبه - والتى يقابلها رمز البقرات العجاف فى رؤيا الملك - عام رخى رغيد وينتهى الجدب ، فتنتهى الأزمة حيث يكرمهم الله - سبحانه - فيه فيغيثهم بالمطر الذى ينبت الزرع " فيه يغاث الناس " ونتيجة لهذا المطر أو الغيث الذى ينهى الأزمة يصبح الناس فى رخاء فى هذا العام (وفيه يعصرون) فحيث يكون المطر يكون الخير اذا شاء الله وتكثر الزراعه فيعصرون كل ما من شأنه أن يعصر كالقصب والعنب والزيتون والسمسم وغير ذلك من الفواكه ، فجعل

العصر كلمة مطلقه لأى محصول زراعى يمكن أن يعصر ، والعصر لا يكـــون عادة الا بعد الاكتفاء من المحاصل الزراعية فى الأكل فيدل ذلك علـــى أن ذلك العام كان عام خير ورخاء حيث كثرت المحاصيل الزراعية ففضّت حاجتهم فى الأكل فعصروا الفائض منها . وهذا هو نهاية تأويلـــه - عليه السلام - لرؤيا الملك بل هذه زيادة على رؤيا الملك حيث (ان هذا العام الرخاء لا يقابله رمز فى رؤيا الملك فهو اذن من العلم اللدنـــى الذى وهبه الله يوسف . فبشر به الساقى ليبشر الملك والناس بالخلاص من الجدب والجوع بعام رخى رغيد)(١) .

. . . . . .

---

(١) ١٢/١١٥ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

الغرض البياني والتربوي
من ذكر البقر في هذه الآيات

لما كانت البقر مصدر خير ورخاء في كل زمان ومكان خاصة السمينة الصحيحة منها حيث يعتمدون عليها في حياتهم فيشربون لبنها ويصنعون منه مشتقاته ويأكلون لحومها ويحرثون بها الأرض ، فقد جاءت البقرات السمان في رؤيا الملك رمزا لهذا الخير والرخاء وجاءت البقرات العجاف رمزا لسنوات الجدب والشدة وقد أحس الملك بهذا حين رأى البقرات العجاف يأكلن البقرات السمان فأهمته هذه الرؤيا وأقلقته وتنبأ بأنها لا تأت بخير . .

ولكن كيف ؟

لم يعرف الملك . .

فطلب تأويلها من كبار المشتغلين بمثل هذه الأمور ففشلوا في تأويلها ثم شاء الله أن يكون يوسف - عليه السلام - هو الذي يؤولها للملك ، وكان تأويله من واقع حياتهم التي يعيشونها .

البقرات السمان تمثل الخير والرخاء . .

والبقرات العجاف تمثل الجدب والشدة . .

وهذه تأكل تلك بمعنى أن الجدب والشدة يأكلان الخير والرخاء .

ومن جهة أخرى فقد كانت هذه الرؤيا سببا فى اظهار مكانة يوسف - عليه السلام - والتمكين له فى الأرض كما أراد الله . . بدليل أن السياق لم يبرز الملك ولا أحد من رجاله بعد ذلك فى السورة كلها (كأن الأمر كله قد صار ليوسف الذى اضطلع بالعبء فى الأزمة الخانقة الرهيبة .

وأبرز يوسف على مسرح الحوادث ، وسلط عليه كل الأضواء ، وهذه حقيقة استخدمها السياق استخداما فنيا كاملا فى الأداء)[1] .

ولم تكن رؤيا الملك الا مجرد سبب لهذا التمكين ليوسف - عليه السلام - حيث أن تأويله - عليه السلام - لم يكن هو التأويل المباشر المجرد وانما كان هو التأويل والنصح بمواجهة عواقبه ، ولا ننسى تبشيره لهم بالعام الرخى الرغيد الذى لم يكن له رمز فى رؤيا الملك ، والذى كان من العلم اللدنى الذى وهبه الله ليوسف - وان كانت رؤيا الملك هى التى جسرت اليه - كل ذلك أدى الى أن يدخل الكثير من الناس فى العقيدة التى يدعو اليها - عليه السلام - عقيدة التوحيد ، دون أن يدعوهم اليها دعوة مباشرة وانما عن طريق صدقه وعلمه فى تفسير الرؤيا الذى وهبه الله اياه وتفسيره المنطقى لرؤيا الملك الذى جعله يستحوذ على قلوبهم ويطمئنهم . . ذلك أنه كان من الذين آمنوا وكانوا يتقون :

---

(١) ١٣ / ١٠ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

" وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون " (١) .

وهكذا كان الغرض البيانى والتربوى من ذكر البقر فى هذه الآيات من قصة يوسف والملك .

---

*

---

(١) ٥٦ - ٥٧ يوسف ١٢

ثانيا : البغـــــــــال

ذكرت البغال في القرآن الكريم مرة واحدة في سورة النحـــــل في قول الله تبارك وتعالى :

" والخيال والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون " (١)

والخيل : اسم جنس للفرس لا واحد له من لفظه كالابل والجمع منه أخيال وخيول ، ويستخدم للحمل والركوب .

والبغل : هو ابن الفرس من الحمار جمع : أبغال وبغال ، ويستخدم غالبا للحمل .

والحمار : حيوان داجن من الفصيلة الخيلية ، يستخدم للحمل والركوب .

فاذن الخيل والحمار يشتركان في وظيفتهما أى أنهما يستخدمان للحمل والركوب، أما البغال فانها لا تستخدم للركوب وانما للحمل فقط أى أنها تستخدم لحمل الأثقال ، ولعل هذا هو السر في هذا التنسيق في الآية الكريمة حيث قدم ما يركب وأخّر ما يركب ووسّط ما يحمل عليـــه غالبا ليكون ذلك موافقا لكلمة (لتركبوها) أما لو جاء لفظ البغال فـى الأول أو الأخير وهى لا تركب غالبا فقد يختل المعنى مع الأسلوب.

---

(١) ٨ ك النحل ١٦

وقد يكون هذا الترتيب : (الخيل ثم البغال ثم الحمير) على أساس أن الخيل قدمت لما لها من المكانه ثم البغال لأن البغل هو قريب من الخيل لأنه ابن الفرس ولكنه من الحماره فاكتسب شيئا من الفرس فذكر بعده ثم ذكر الحمار لأن الحمار أدنى مرتبة من الخيل ومن البغل الذى اكتسب شبها من الفرس .

أى أن الخيل بلا شك هو أفضل من الحمار فقدم ، وان البغل وسط بينهما بحكم كونه ابن الفرس وأشبه للفرس من الحمار فجاء ترتيبه فى الوسط ثم ذكرت الحمير .

وقد يكون هذا الترتيب جاء ترتيبا تنازليا حيث أن الحصان هو أرفع وأعلى قامة فجاء ذكره أولا ثم البغال لأن البغل وان كان أكبر حجما من الفرس الا أنه أنزل قامة فجاء ترتيبه ثانيا ثم أتى ترتيب الحمار لأنه أنزل منهما قامة وأصغر حجما . . وهذا هو القرآن المعجز بأسلوبه ونظمه فى كل كلمة وكل حرف ، فى كل تقديم أو تأخير !!

لكن الذى لا جدال فيه هو أن تقديم الخيل انما هو لأفضليتها اذ أن لها مكانة خاصة لدى العرب غير البغال والحمير ، ويظهر ذلك من قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيها حيث يقول : (الخيل معقود فى نواصيها الخير الى يوم القيامة) .

ومن يملك الحمار أو البغل ليس كمن يملك الخيل . .

ولأصالتها ولجمالها وقوتها وقدرتها فى الحروب كانت مناط الآمـــال وكانت جديرة بالاهتمام والعناية والرعاية وكان من يملكها يشعر بالغبطة والسرور ومن لا يملكها يشعر بالحسرة فارتفعت قيمتها بين الناس ماديا ومعنويا حتى فى عصرنا الحديث عصر القاطرات والسيارات والطيـــارات والمخترعات ظلت لها مكانه فريده فى النفوس .

ولعلم الله - سبحانه - بمكانة الخيل هذه فى نفوس الناس أو لعلمه - سبحانه - بخصائص الخيل وما فيها من خير قدمها على غيرها مـــن الحيوانات فى الذكر ليوائم ذلك تقدم مكانتها فى نفوس الناس. ومن ثم تكون كلمة (وزينة) التى وردت فى الآية خاصة بالخيل لما ذكر . أى أن هذه الحيوانات بالاضافة الى كونها للركوب فهى زينة يتزينوا بهـــا . فلو كان هناك مثلا موكب كبير يريد أن يسير فيه شخصية بارزة فلا يعقل أن تركب هذه الشخصية حمارا أو بغلا بل يركب الخيل ، حتى فى العصر الحديث .

وبالرغم من وجود المواصلات الحديثة فلا نزال نرى بعض الحكومات تهتم بركوب الخيل أو تجعل الخيل يجر العربات التى يركبها الشخصيـــات البارزة ، وسلاح الفرسان الذى يشيع فى بعض الجيوش المعاصرة حيـث

لا يستخدم فى نشاطه الا الخيل . وكلمة (زينة) عطفت على محل لتركبوها (وتجريده عن اللام لكونه فعلا لفاعل الفعل المعلل دون الأول وتأخيره لكون الركوب أهم منه أو مصدر لفعل محذوف أى وتتزينوا بها زينة وقرىء بغير واو أى خلقها زينة لتركبوها ويجوز أن يكون مصدرا واقعا موقع الحال من فاعل تركبوها أو مفعوله أى متزينين بها أو متزينا بها)[1] .

والى جانب هذا كله فكلمة (زينة) تفتح أمامنا آفاق واسعة وتشعرنا بالجمال وترد على المتزمتين ومن يدعون بأن الاسلام لا يدعوا الى الجمال اذ أن فى هذه الكلمة توجيه قرآنى عالى الى الجمال فى مظاهر الكون ، بجانب الضرورة والحاجة ، لنتملى هذا الجمال ونستمتع به ولا نحبس أنفسنا داخل حدود الضرورات والحاجات ، كما أن فيها توجيها الى ابتغاء فضل الله والى شكره على ما سخر لنا من هذه الحيوانات النافعة فى ركوبها وفى حملها الأثاث والى جانب ذلك فهى زينة نستمتع بالنظر اليها .

وبعد أن عشنا مع الآيات الكريمة السابقة التى عرضت لنا تلك الحيوانات من خيل وبغال وحمير والتى عرفنا منها نعمة الله والتى عرفنا

---

(١) ٥/٩٨ تفسير أبى السعود المجلد ٣

منها الأهم والأعمق من ذلك ألا وهو وحدانية الله وقدرته سبحانه على الخلق والابداع منزه عن كل شريك ، بعد أن عرفنا ذلك محددا بالآيات التى سمّت لنا تلك الحيوانات : جاء ذلك التعقيب فى نهاية هذه الآيات : (ويخلق مالا تعلمون) ليترك أمامنا المجال مفتوحا لتقبل أنماط جديدة من أدوات الحمل والنقل والركوب والزينة وغير ذلك دون غلق وكيف يغلق وكيف تحصر آيات الله الدالة على وحدانيته وهى موجودة فى كل شبر فى هذا الكون الفسيح (وان تعدو نعمة الله لا تحصوها) : فى السماء والأرض ، فى الحيوانات التى ذكرت والتى لم تذكر ، فى الليل والنهار ، فى الشمس والقمر ، فى البر والبحر ، فى الماء والهواء ، فى كل ما نرى وما نحس ، فى خلق الانسان وفى خلق ما يخلق الانسان أى ما يصنع (وعلم الانسان ما لم يعلم) أليس ذلك من خلقه سبحانه بلى (الله خلقكم وما تعملون) اذا فجميع المخترعات الحديثة التى توصل اليها العقل البشرى هى من خلق الله وبمشيئة الله اذ كشف للانسان ما غفل عنه وواصل اكتشاف العلوم والمخترعات الأجيال جيلا بعد جيل حتى وصلوا من جملة ما وصلوا اليه : القمر ذلك الكوكب الذى كان يرى بالعين فقط وأكبر ما هنالك أن يرى كبيرا مكتملا وهو بدر عند تمامه فيكتفى برؤيته الناس وينظمون فيه الشعر ويشبهوا

به من شاؤا وتسعد قلوبهم بذلك دون التفكير فى الوصول اليه ، بل ان التفكير فى ذلك لم يكن واردا فضلا عن أنه لو ورد لاعتبر من أكبر أنواع الجنون .. لكن هذا الذى كان مستحيلا قد حدث بفضل من الله وتدبير منه ووصل الانسان الى القمر وهبط على سطحه والله أعلم ماذا سيصنع الانسان فى المستقبل اى ماذا سيخلق فقد يكون هذا هو المقصود من قوله سبحانه : (ويخلق مالا تعلمون) أى يكشف للانسان بقدرته عن أشياء جديده فيخلق الانسان أو يصنع مالا علم له به اليوم فيكون ذلك من خلق الله (والله خلقكم وما تعملون) (١) .. اذا فالسيارة والطيارة والقطار ووسائل المواصلات الأخرى العادية وغير العادية مثل الصاروخ كل ذلك ما هو الا امتداد لخلقه - سبحانه - امتداد لتلك الوسائل البسيطة كالابل التى كانت بسيطة حيث كانت الحياة بسيطة ، امتداد لسفينة الصحراء فيجب الا يستهين الانسان بها ويقول أنها وسيلة بدائية وقديمة وقد اخترعنا اليوم الوسائل المريحة السريعة كالسيارة والطيارة التى تقطع المسافات الطويلة فى ساعات بدلا من الأيام !

يجب ألا ينسى الانسان أن ذلك كله لم يكن ليكون لولا أن الله سبحانه هو الذى خلق الانسان وما يعمل :

(والله خلقكم وما تعملون) ليتذكر الانسان ان تلك الابل لم تكن لتحتاج

---

(١) ٩٦ ك الصافات ٣٧

الى الوقود الذى تحتاج اليه المخترعات الحديثة لتؤدى وظيفتها بل كانت تصبر على الجوع والعطش حتى ليصل اظماءها العشر ومن هنا كانت جديرة بأن يلفت الله سبحانه اليها والى خلقها العجيب الأنظار : (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت)(١) . ان هذا القرآن يهدى للرشد ويهيئ الانسان لأن يكون سرنا يستقبل طاقات الحياة كلها ومقدرات الحياة كلها ويدعوه لذلك ولم يقصد القرآن بذلك أن يجعل الأذهان والعقول تتجمد وتتحجر عندما سخر لنا تلك الأنعام وخص الابل بلفت الأنظار اليها ، وانما كان ذلك ليتدبر الانسان هذا الخلق ويفكر فى خالق هذا الخلق انه يهيئ (الأذهان والقلوب لاستقبال كل ماتتمخض عنه القدرة ، ويتمخض عنه العلم ، ويتمخض عنه المستقبل . استقباله بالوجدان الدينى المتفتح المستعد لتلقى كل جديد فى عجائب الخلق والعلم والحياة)(٢) " ويخلق ما لا تعلمون ".

. . . . . .

---

(١) آية ١٧ ك سورة الغاشية ٨٨

(٢) ١٤/ ٤٨ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

الغرض البيانـــى والتربـــوى

من ذكر : (الخيل والبغال والحمـــــير)

فى الآية الكريمة : " والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمـــــون"

هو : بيان سعة أنعم الله على خلقه بتسخير تلك الحيوانات لهم والانتفاع بها فى كل ما يحتاجونه فى حياتهم من مأكل ومشرب وملبس وحمل وركـــــوب وما الى ذلك بحيث يبقى الانسان عزيز الجانب مغدق عليه فى النعـــــم والخيرات عن طريق تلك الحيوانات وهذا بدوره يجعله يشكر من سخر لـــه كل تلك النعم فيعترف بقدرته ووحدانيته - سبحانه -

وقبل ذلك فان ذكر القرآن لهذه الحيوانات (الخيل والبغال والحمير) فى هذه الآية هو للفت الأنظار الى كمال قدرته سبحانه فهى آيات مـــن آياته سبحانه فى الكون دالة على قدرته ووجوده وعظمته ولفت الأنظار اليهـا يؤدى الى الايمان بخالقها - سبحانه - خالق كل شىء .

---

*

ثالثا : البـــــــدن (١)

ذكرت البدن فى قول الله تبارك وتعالى :

" والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم اللـــه عليها فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر كذلـــك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ، لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكـــن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشـــر المحسنين (٢) ".

وقد نزلت هذه الآية فى سجال ذكر الحج وتعاليمه وتعظيم شعائر الله فيه (ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب) (٣)

والشعائر جمع شعيره وهى الهدايا أو الذبائح التى تذبح فى الحـج ولما كانت البدن وهى - الابل والبقر - من الذبائح التى تذبح فى الحـج قال سبحانه : (والبدن جعلناها لكم من شعائر الله) وخصها بالذكـر

---

(١) البدن : بضم الباء وسكون الدال وقرئ بضمها جمع بدنه تطلـق على الابل لعظم بدنها مأخوذه من بدن بدانه وتجزئ فـــى الحج عن ثمانية من الناس وحيث شاركتها البقرة فى الأجزاء عـن سبعة لقوله - صلى الله عليه وسلم - البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة جعلا فى الشريعة جنسا واحدا .

(٢) آية ٣٦ - ٣٧ الحج ٢٢

(٣) آية ٣٢ الحج ٢٢

هنا لأنها أكبر الذبائح التى تذبح وأعظمها ومع ذلك فهى لا تستعصى على من يريد أن يقدمها هديا لله لأن الله سبحانه قد جعلها من شعائره (والبدن جعلناها لكم من شعائر الله) .

ثم يبين سبحانه أن هذه البدن فيها خير وبركة لمن يقتنيها (لكم فيها خير) وفى ذلك دافع لمن يريد الخير أن يجعلها هديا والخير الذى فيها هو أنها تركب وتحلب وهى حيه وتهدى وتطعم وهى ذبيحة (فاذكروا اسم الله عليها صواف) أى جزاء ما جعلها الله لهم خيرا يجب أن يذكروا اسم الله عليها ويتوجهوا بها اليه وهى تهيأ للنحر بصف أقدامها حيث أن الابل تنحر وهى قائمة على ثلاث معقولة الرجل الرابعة (فاذا وجبت جنوبها) أى اذا سقطت على الأرض وهذه كناية عن تمام موتها وعدم احساسها بشىء عندئذ : (فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر) فيه استحباب لأصحاب الهدى أن يأكلوا منه ويطعموا الفقير القانع أى الذى لا يسأل ويطعموا الفقير المعتر) أى الذى يتعرض للسؤال فكلاهما فقراء ويجب اطعامهما . ولما فى هذه البدن من خير وبركة حيث وفرة لحمها وحيث يستفاد منها قبل ذبحها بلبنها وبركوبها ، ولما فيها من

نعمة للناس سخرها الله سبحانه هذا التسخير البديع ليشكروه على هذه البدن التي جعل فيها الخير لهم حيه وذبيحة :

" كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون " عسى أن تتنبهوا بأن الله قد جعل لكم خير هذه البدن بما فيها من لحم تأكلونه طيبا فالله سبحانه لا يريد من خيرها شيئا لا يريد لحمها " لن ينال الله لحومها ولا دماؤها) فهذه لا تصل اليه سبحانه (لكن يناله التقوى منكم " تقوى القلوب وتوجهاتها ، حين يتوجه الانسان بقلبه الى الله ويقصد بهديه وجه الله ويخلص نيته لذلك وينشد طاعة الله فيما يفعل وفيما قدم ممتثلا لأمره ويتخلص من كل شرك ومن كل المعتقدات الفاسدة كالتي كان يعتقدها مشركوا قريش حيث كانوا (يلطخون أوثانهم وآلهتهم بدماء الأضحيات على طريقة الشرك المنحرفه الغليظة !)(١)

" كذلك سخرها لكم " تكرير للتذكر بأنه ـ سبحانه ـ قد سخر هذه البدن للناس هذا التسخير البديع والتعليل في هذه المرة (لتكبروا الله) أي (لتعرفوا عظمته باقتداره على ما لا يقدر عليه غيره فتوحدوه بالكبرياء وقيل هو التكبير عند الاحلال أو الذبح)(٢) . لماذا تكبروا الله ؟ قال

---

(١) ٩٤/١٧ في ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

(٢) ١٠٨/٣ تفسير أبي السعود المجلد ٣

سبحانه (على ما هداكم ، وبشر المحسنين) أى تكبروا الله وتعظموه وتقدسوه على هدايته لكم الى توحيده والاتجاه اليه وادراك حقيقة الصلة بينه وبينكم وحقيقة الصلة بين عملكم وما تقصدون به .

ثم يختم سبحانه هذه الآية الكريمة بقوله : (وبشر المحسنين) والبشرى تكون فى الخير الذى ينال المبشر وهنا يبشر الله ـ سبحانه ـ المحسنين) والبشرى تكون فى الخير الذى ينال المبشر وهنا يبشر الله ـ سبحانه ـ المحسنين أى المخلصين الذين فعلوا ما أمرهم الله به فى كل ما يأتون وما ينذرون فى أمور دينهم ببشرهم بالخير وتبشير الله لعباده بالخير معناه الفوز فى الداريـن .

. . . . . .

الغرض البياني والتربوي
من ذكر (البدن) في الآية الكريمة

ذكرت البدن في هذه الآية لأنها من شعائر الله أي من الذبائح التي تذبح لله في أيام الحج .

وقد كانت الآيات التي قبلها - في سورة الحج - تتحدث عن الحج ومناسكه وشعائر الله فيه ، فكان مناسبا أن تذكر البدن وهي من شعائر الله أو ذبائح الله بل أكبر وأعظم الذبائح التي تذبح لله في الحج وفيها خير كثير للناس حيث يشربون لبنها قبل ذبحها ثم تجزيهم في أن يقدموها هديا لله ثم بعد ذلك يأكلون لحمها ، ومع كبرها فهي لا تستعصي على من يريد أن يقدمها هديا لله بل يأخذها منقاده فيعقلها ويحبسها صافة قوائمها ثم يطعنها في لباتها وهناك غرض من ذكرها أهم من هذا وهو أن الله - سبحانه أراد أن يبين من ذكر البدن في هذه الآية أنها ما هي الا شعيره من شعائر الله أو رمزا تعبيريا عن التوجه الى رب البيت وطاعته (وقد تحمل في طياتها ذكريات قديمة من عهد ابراهيم - عليه السلام - وما تلاه . وهي ذكريات الطاعة والانابه ، والتوجه الى الله منذ نشأة هذه الأمة المسلمة ، فهي والدعاء والصلاة سواء)[1] .

---

(١) ١٧/ ٩١ - ٩٢ في ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

وهكذا أراد سبحانه أن يبين للناس أن هذه البدن كغيرها من شعائر الله أو ذبائح الله لا تصل دماؤها اليه سبحانه ولكن تصله تقوى القلوب حيث أنها - كما أسلفنا - رموز تعبيرية عن التوجه الى رب البيت وطاعته فقال - سبحانه - " لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن ينالـــه التقوى منكم ، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين" فجعل سبحانه فى هذه البدن التقوى ودرجات التقوى : " ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب" وتعظيمها يكون باستسمانها وغلاء أثمانهـــا (وهكذا يربط بين العقيدة والشعائر . فهى منبثقة من العقيدة وقائمة عليها . والشعائر تعبير عن هذه العقيدة ورموز لها والمهم أن تصطبغ الحياة كلها ويصطبغ نشاطها كله بتلك الصبغة ، فتتوحد الطاقة ويتوحد الاتجاه ولا تتمزق النفس الانسانية فى شتى الاتجاهات)[1] .

---

*

---

(١) ١٧/ ٩٣ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

رابعا : البعـــــير (١)

ذكرت البعير فى قول الله تبارك وتعالى :

" ولما فتحوا امتاعهم وجدوا بضاتهم ردت اليهم قالوا ياأبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردّت الينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير" (٢)

وقوله تبارك وتعالى :

" قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وانا به زعيم " (٣)

وقد جاء ذكر البعير فى الآيتين الكريمتين فى مجال قصة نبى الله يوسف - عليه السلام - حين أخذه اخوته من أبيه ومكروا فالقوه فى غيابة الجب أى البئر العميق حيث يغيب فيه عنهم ومكر الله والله خير الماكرين فأخرجه من الجب وأوصله الى عزيز مصر وتوالت الأحداث حتى مكن الله له فى الأرض بعد رؤيا الملك التى رأى فيها سبع بقرات سمان يأكلن سبع عجاف حيث فسرها له - عليه السلام - بسبع سنين رخاء يأتى من بعدهن سبع سنين شداد جدبه وتحقق تفسيره - عليه السلام - وكانت السبع سنوات الرخاء ثم أتت من بعدها السبع سنوات الشداد المجدبة وفى هذه السبع سنوات الشداد - والتى

---

(١) البعير ما صلح للركوب والحمل من الابل وذلك اذا استكمل أربع سنوات ويقال للجمل والناقه بعير (ج) اباعر ، وأباعير وبعران .
المعجم الوسيط ط ٢ ٦٣/١

(٢) آية ٦٥ ك يوسف ١٢

(٣) آية ٧٢ ك يوسف ١٢

كان فيها يوسف مكين أمين على خزائن الأرض - حدثت القصة التى ذكرت فيها البعير ، وذلك أن يوسف عليه السلام أتاه اخوته الذين ألقوه فى الجب دون أن يعلموا أن هذا المكين على خزائن الأرض هو يوسف الذى كانت مهمته - كما يبدو - تشمل اختصاص وزارتى المالية والتموين وأراد الله سبحانه أن تكون مصر قبلة جيرانها ومخزن الطعام فى المنطقة كلها فى الوقت الذى اجتاح الجدب والمجاعة أرض كنعان التى يسكنها اخوة يوسف وغيرها من البلاد وقد وضع - عليه السلام - نظاما للخروج من هذه المجاعة بسلام فكان (يعطى الناس على دفعات على نظام يشبه نظام البطاقات ليوازن بين حاجات المحتاجين والزمن الطويل الذى اضطلع فيه بالتموين ، فلم يكن كل من يملك الشراء يشترى المقادير التى يستطيع شراءها ليخزنها ويموت الآخرون . وقيل - وفى السياق دلالة عليه - انه كان يعطى كل فرد فى الفترة الواحدة حمل بعير ، وهو مقدار معلوم)[1] .

ولم يخطر على بال اخوة يوسف أن هذا المتوج فى زيه وحرسه وخدمه ومهابته وحشمه وهيلمانه هو يوسف الذى ظنوا أنهم تخلصوا منه فى غيابة الجب وأين أخوهم الصغير العبرانى من هذا الذى يرونه أمامهم

---

(١) ١٢/ ١١ - ١٢ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

فى تلك المهابة ولكن يوسف كان يعرفهم فهم لم يتغيروا كثيرا وهذه هى اللعبة التى سيكشف لهم فيها - عليه السلام - مكرهم وخداعهم وحسدهم فتركهم يكشفون عن أنفسهم وأن لهم أخا أصغر - من أبيهم - لم يحضر معهم لأن أباه يحبه ولا يطيق فراقه فألهمه الله - سبحانه - أن يطلب منهم هذا الأخ الأصغر : (ولما جهزهم بجهازهم قال : ائتونى بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ، فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون)(١) فقالوا ليوسف عليه السلام : (سنراود عنه أباه وانا لفاعلون)(٢) ولفظ نراود يصور الجهد الذى يعلمون أنهم باذلوه مع أبيهم فالأمر ليس هينا يسيرا وانما فى طريقه عقبات من ممانعة أبيهم فقد لدغ منهم لدغته الأولى فى يوسف حين صدقهم وأعطاهم اياه ، وقد علمنا من السياق فى هذه السورة أن أباهم يعقوب - عليه السلام - لم يعلم بأن يوسف قد أنجاه الله من مكرهم ولكنه ظل حوالى عشرين عاما يراوده الأمل فى أن يرى يوسف مرة أخرى ولم ييأس من رحمة الله وهو يحس بأن أبناءه قد دبروا مكيدة للتفريق بينه وبين يوسف ولن يصدقهم فى طلبهم اذا هم طلبوا منه أخاهم الثانى الذى هو أخو يوسف وشقيقه من أم واحدة وهم التسعة من أم أخرى ، وحتى يضمن يوسف رجوعهم بأخيهم - بعد أن طلبهم

---

(١) آية ٥٩ - ٦٠ يوسف ١٢
(٢) آية ٦١ يوسف ١٢

اياه كما ألهمه الله- أمر غلمانه عليه السلام بأن يدسوا لهم فى رحالهم البضاعة التى حضروا بها ليستبدلوا بها القمح ونحوه - (والرحل متاع المسافر - لعلهم يعرفون حين يرجعون أنها بضاعتهم التى جاءوا بها ، فيدعوهم هذا الى العودة ، للتوفيه بالثمن - على ما يعلم من أخلاق بيته - أو ليشجعهم هذا الاكرام على العودة بأخيهم اليه)[١] . " وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحلهم لعلهم يعرفونها اذا انقلبوا الى أهلهم لعلهم يرجعون "[٢] .

وتدع يوسف - عليه السلام - بعد أن ودع اخوته فى أرض مصر لنشهد يعقوب - عليه السلام - فى أرض كنعان ولم يذكر لنا السياق كلمة واحدة عن الطريق وما لاقوه فيه فليس هذا بالشىء المهم وانما المهم هى المفاجأة التى ستحدث لهم فى حضرة أبيهم : " فلما رجعوا الى ابيهم قالوا : يا أبانا منع منا الكيل ، فأرسل معنا أخانا نكتل ، وانا له لحافظون . قال هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل ؟ فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين "[٣] ويبدو أنهم قد بادروا أباهم قبل أن يفكوا متاعهم بقولهم أن عزيز مصر سيمنع عنهم الكيل فى المرة القادمة ما لم يأتوه بأخيهم أو أن الكيل المقصود هو نصيب أخيهم لأنه لم يحضر معهم

---

(١) ١٢/١٢ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

(٢) آية ٦٢ يوسف ١٢

(٣) آية ٦٣ - ٦٤ يوسف ١٢

فلم يعطهم العزيز نصيبه والمعنى - والله أعلم - فلا كيل لكم عندى لأخيكم. ما لم يأت معكم . وبعد الاستقرار من المشوار والراحة من السفر فتحوا أوعيتهم ليخرجوا منها أغراضهم فاذا هم يجدون فيها المفاجأة (بضاعتهم) مردودة اليهم وبضاعتهم هى الثمن الذى ذهبوا به ليحصلوا فى مقابله على ما يريدون من قمح ونحوه من أرض مصر (قد تكون خليطا من نقد ومن غلات صحراوية أخرى من غلات الشجر الصحراوى ، ومن الجلود والشعر وسواها مما كان يستخدم فى التبادل فى الأسواق)(١) ، المهم ان ارجاع هذه البضاعة اليهم (يشير الى عدم الرغبة فى البيع مرة أخرى ، أو هو انذار بذلك واعتبار المرة الأولى هدية أو ما يشبه ذلك)(٢) . وقيل انما فعله عليه السلام تفضلا عليهم وخوفا من أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به مرة أخرى وكل ذلك لتحقيق ما يتوخاه من رجوعهم بأخيه)(٣) . وهنا تفسير أقرب الى الصواب أما اذا فسرنا ما حدث (ارجاع البضاعة اليهم) بأن (يوسف لم يعطهم قمحا ، انما وضع لهم بضاعتهم فى رحالهم . فلما عادوا قالوا : يا أبانا منع منا الكيل ، وفتحوا رحالهم فوجدوا بضاعتهم . وكان ذلك ليضطرهم الى العودة بأخيهم)(٤) .

---

(١) ١٢/١٢ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

(٢) ص ١٢ المصدر السابق

(٣) ٢٨٩٩٤ تفسير أبى السعود المجلد ٢

(٤) ص ١٢ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

ففى تصورى أن هذا التفسير بعيدا عن الواقع لسبب بسيط وهو ان اخوة يوسف لو أنه لم يعطهم قمحا أو ما يريدون فلن يقبلوا بأن يرجعوا الى أرضهم دون قمح ودون الثمن الذى سيحصلون فى مقابله على القمح ولا بد أن يكونوا قد طالبوا بحقهم على الأقل وهو الثمن الذى أتوا به ثم انه لا يعقل أن يكون قد فعل بهم يوسف ذلك وهو الذى يقول لهم (وانا خير المنزلين) فالدليل من السياق السابق يبين أن يوسف - عليه السلام - قد أحسن استقبالهم وتودد بهم بما يرضيهم وكان منقيا (مطمئنا) أن يستدرجهم بتلك المعاملة الطيبة حتى يضمن احضار أخيه أما أن يرغمهم على احضاره بأن يسلبهم بضاعتهم ولا يعطيهم فى مقابلها ما يريدون فليس هذا بالمعقول أما الدليل الذى يبين أن يوسف قد أعطاهم ما يريدون أو انه أحسن تودد بهم من أرض مصر هو قوله تعالى : " ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ، فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون)[1] .

وما يهمنا من ذلك هو قولهم بعد رؤيتهم المفاجأة :

(قالوا يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت الينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير) .

---

(١) آية ٥٩ - ٦٠ يوسف ١٢

فبعد أن وجدوا بضاعتهم قد ردت اليهم عادوا يطلبون من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم حيث اتخذوا من رد بضاعتهم اليهم دليلا على أنهم غير باغين فى طلبهم أخاهم ولا ظالمين . ومن ثم فهم يحرجون أباهم بالتلويح له بمصلحة أهلهم (ونمير أهلنا) . والميرة هى الزاد ، فقد تركزت مصلحتهم فى أخذ أخيهم الى عزيز مصر فبأخذهم أخيهم يستطيعون جلب الزاد من عزيز مصر وهم يؤكدون لأبيهم عزمهم على حفظ أخيهم من المكاره حسبما وعدوه (ونحفظ أخانا) ويرغبونه بزيادة الكيل لأخيهم لو أنه صاحبهم الى أرض مصر (ونزداد كيل بعير) أى نزداد وسق بعير زائدا على أوساق أباعرنا على قضية التقسيط (ذلك كيل يسير) أى ما يحمله أباعرنا (مكيل قليل لا يقوم بأودنا فهو استئناف وقع تعليلا لما سبق كأنه قيل أى حاجه الى الازدياد فقيل ما قيل أو ذلك الكيل الزائد شىء قليل لا يضايقنا فيه الملك أو سهل عليه لا يتعاظمه أى مطلب نطلب من مهماتنا)[1] .

ويمضى السياق القرآنى الحكيم مبينا استسلام يعقوب عليه السلام - على كره - تسليمه ابنه اليهم بشرط أن يأتوه موثقا من الله لترجعونه اليه فأقسموا بذلك وضموه اليهم وأخذ أبوهم يوصيهم بأشياء كانت فى نفسه ويصلوا الى

---

(١) ٤/٢٩٠ تفسير أبى السعود المجلد ٢

أرض مصر مصطحبين أخاهم ويد خلوا على يوسف فيفرح برؤية أخيـــــه ويأويه اليه قائلا له (انى أنا أخوك ، فلا تبتئس بما كانوا يعملون)[١]

(ويطوى السياق فترة الضيافة وما دار فيها بين يوسف واخوته ليعرض مشهد الرحيل الأخير . فنطلع على تدبير يوسف ليحتفظ بأخيه ريثمـــا يتلقى اخوته درسا أو دروسا ضرورية لهم ، وضرورة للناس فى كل زمـان ومكان)[٢] .

وجهزهم بجهازهم وكان تدبيره أن جعل السقاية فى رحل أخيه المخصص له والسقاية هى كأس الملك (وهى عادة من الذهب أيام الفراعنه . وقيل أنها كانت تستخدم للشراب ، ويستخدم قعرها الداخل المجوف مـــن الناحية فى كيل القمح ، لندرته وعزته فى تلك المجاعه)[٣] .

لقد كان ذلك التدبير الهام من الله جل جلاله ثم ينادى منادى بصوت مرتفع فى صيغة اعلان عام : (أيتها العير انكم لسارقون) وانه لموقف محرج حين يسمعون هذا النداء وهم يغادرون أرض مصر فيرتاعون لهذا النداء الذى يتهمهم بالسرقة وهم أبناء يعقوب بن اسحاق بن ابراهـــيم عليهم السلام .

---

(١) آية ٦٩ يوسف ١٢

(٢) ١٣/١٥ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

(٣) ١٣/١٦ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

وقد كان النداء للعير والمراد أصحاب العير كما فى قوله عليه السلام (ياخيل الله اركبى) حيث أن العير هى الابل التى عليها الأحمال لأنها تعير أى تذهب وتجىء وقيل هى قافلة الحمير ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير كأنها جمع عير .(١)

" قالوا واقبلوا عليهم ماذا تفقدون "

رجع اخوة يوسف منزعجين بعد هذا النداء الذى اتهمهم بالسرقة لينظروا ما الأمر وهم واثقون من أنفسهم بأنهم بعيدون كل البعد عن هذه التهمة وقالوا لمن ناداهم : (ماذا تفقدون) ولم يقولوا بعد رجوعهم (ماذا سرق منكم) كما قال المنادى يا لسرقة (انكم لسارقون) بل عدلوا عن هذه التسمية وقالوا :: (ماذا تفقدون) لنفى أن هناك حادث سرقه و (لبيان كمال نزاهتهم باظهار انه لم يسرق منهم شىء فضلا أن يكونوا هم السارقون له وانما من الممكن أن يضيع منهم شىء . . . وفيه ارشاد لهم الى مراعاة حسن الأدب والاحتراز عن المجازفة ونسبة البراء الى ما لا خير فيه لا سيما بطريق التوكيد فلذلك غيروا كلامهم حيث قالوا فى جوابهم (نفقد صواع الملك) ولم يقولوا سرقتموه أو سرق)(٢)

---

(١) ٤/٢٩٤ تفسير أبى السعود المجلد ٢

(٢) ص ٢٩٥ المصدر السابق

ويضعون مكافأة قيّمة لمن يظهر هذا الصواع المفقود من عند نفسه قبل أن يفتش ، اما هذه المكافأة أو الجائزة فقيمتها كانت بالنسبة للظرف الذى هم فيه (حالة القحط والمجاعة والشدة) (القمح ونحوه) مما يساعدهم على التغلب على هذه الحالة هو أغلى شيء عندهم لذا فقد كانت المكافأة الكبرى التى ستعطى لمن يظهر صواع الملك هى حمل بعير من القمح أو نحوه (ولمن جاء به حمل بعير) . وحمل البعير من الطعام هو القدر الذى كان يبيعه عليه السلام لكل فرد من الناس ولا يبيعه أكثر حتى لو ملك قيمته وذلك تقسيطا بين الناس حتى لا يأخذ الأغنياء الطعام ويبقى غيرهم دون طعام فكان تدبيره ـ عليه السلام ـ هو ذلك التقسيط بين الناس وكون المكافأة فى ذلك الظرف الحاسم هى (حمل بعير) من الطعام فهى مكافأة ثمينة ولا شك ولا تصدق لذا فان المؤذن الذى أذن بالاعلام وبتقديم المكافأة لمن يحضر صواع الملك من نفسه يتكفل بتقديم هذه المكافأة وضمانها فيقول : (وأنا به زعيم) أى كفيل .

. . . . . .

الغرض البيانى والتربـــوى

من ذكر (البعير) فى الآيتين الكريمتين الســـــابقتين :

ذكرت البعير فى قصة يوسف عليه السلام وقصة يوسف هى أطول قصة فى القرآن تجتمع حلقاتها كلها فى قصة واحدة ، (وتلحظ فيها الخصائص الفنية البحتة للقصة - دون اخلال بالغرض الدينى بل ان الخصائص الفنية فيها هى لخدمة الغرض الدينى - خصائص الموضوع القصصى وخصائـــص العرض والأداء)(١) .

ان قصة يوسف كلها - فى سردها وطريقة أدائها وخصائصها الفنية - تخدم القضية الكبرى التى جاء القرآن ليعالجها ويوضحها ، وثبتها فى القلوب ألا وهى (قضية العقيدة وما يقوم عليها فى حياة الناس من روابط ونظم وصلات)(٢) .

والقصة غنية بالعنصر الانسانى ومن العناصر التى تحتوى عليها القصـــة عنصر المكر والخداع حين مكر اخوة يوسف به .

(عنصر التفاوت فى الاستجابات المختلفة للغيرة والحسد فى نفوس الاخوة فبعضهم يقودهم هذا الشعور الى اضمار جريمة القتل ، وبعضهم يشـير فقط بطرح يوسف فى الجب تلتقطه بعض السيارة نفورا من الجريمة)(٣)

---

(١) ١٢/٨٥ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

(٢) ٨٤ المصدر السابق

(٣) ١٢/٨٦ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

وينتهى هذا العنصر - عنصر المكر والخداع بيوسف . وتنفيذ خطتهم بالقاءه في الجب . . وتتوالى الأحداث حين يخرج الله يوسف من الجب ويمكن له في الأرض ويأتيه اخوته أذلاء يطلبون منه الطعام وهم لا يعلمون أنه أخيهم ، يوسف الذى ألقوه فى غياة الجب ويريد الله - سبحانه - أن يكشف هذا المكر والخداع فيطلب يوسف من اخوته احضار أخيهم الأصغر اليه فيرجعون الى أبيهم ويخبروه بذلك ويعلموه بأنه قد منع عنهم الكيل ما لم يأتوا بأخيهم وانهم اذا أخذوا معهم أخاهم فسوف يزدادون (كيل بعير) وقولهم هذا كناية عن الكثرة التى سيحصلون عليها. ولما كان كيل البعير أى حمل البعير هو المقياس الذى كان يأخذه الفرد فى الفترة الواحدة وهو مقدار معلوم فقد ذكر البعير فى هذه الآية الكريمة . أما فى الآية الثانية " قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير " فهذه كناية عن الجائزة التى ستمنح لمن يجيء بصواع الملك حيث أن حمل البعير هو المقدار الذى يأخذه الفرد فى الفترة الواحدة .

وكان ذلك مقدار عظيم فى الظروف التى يمرون بها من القحط والشدة والمجاعة وينتظره كل فرد بفارغ الصبر حتى يأتى دوره ويحصل عليه ليقاوم تلك الظروف العصيبة أو الموت بعينه ، ومن ثم جعلت المكافأة لمن يجيء بصواع الملك (حمل بعير) من الطعام . . وهكذا كان الغرض من ذكر البعير فى الآيتين السابقتين .

خامسا : البعوضـــــة (١)

ذكرت البعوضة فى قول الله تبارك وتعالى : -

" ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذيـــن آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به الاّ الفاسقين (٢) ".

وقبل أن نعرف قصة هذا المثل الذى ذكر الله - سبحانه وتعالى البعوضة فيه لا بد لنا أن نعرف شيئا عن الأمثال ، والأمثال فى القرآن ومنهـــــا التمثيل بالحيوان :

فالأمثال هى أقوى أساليب البيان فى لغة العرب (وأقدرها على التعبير والتصوير ، لأنها أولا تعتمد على التشبيه الذى هو من أشرف كـــــلام العرب ، وبه تكون الفطنة والبراعة عندهم ، والتشبيه كذلك يزيد المعـنى وضوحا ، ويهبه تأكيدا ، وهو أخيرا كما قال عبد القاهر الجرجانـــــى (٤٧١ هـ)(٣): يعمل عمل السحر فى تأليف المتباينين حتى يختصـــــر

---

(١) البعوض جنس حشرات مضره من ذوات الجناحين ، وهو (الناموس) ويقال : كلفه مسخ البعوض : ما لا يكون ١ / ٦٣ المعجم الوسيط ط٢ وكلمة بعوض مشتقه من البعض وهو القطع كالبضع والعضبه ومنـــه بعض الشيء لأنه قطعه منه والبعوض فى أصله صفه على فعـــول كالقطوع فقلبت .

(٢) آية ٢٦ م البقرة ٢

(٣) انظر أسرار البلاغه ١٠٤ لعبد القاهر الجرجانى .

ما بين المشرق والمغرب ..) (١) وليس عبد القاهر الجرجاني فحسب هو الذي يعطي هذه القيمة للأمثال في اللغة العربية وانما علماء البلاغة كلهم (مجمعون على أن التمثيل أرفع أساليب البيان ، وأعلاها قدرا ، وأنه يحتل من البلاغة ذروتها ، وقد ذكر عبد القاهر الجرجاني بعض أسباب تلك البلاغة في قوله : " فأول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي الى جلي ، وتأتيها بصريح بعد مكني ، وأن ترد ها في الشيء تعلمها اياه الى شيء آخر ، هي بشأنه أعلم ، وثقتها به في المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل الى الاحساس ، وعما يعلم بالفكر الى ما يعلم بالاضطرار والطبع) (٢).

ولما كان القرآن هو معجزة محمد - صلى الله عليه وسلم - لقريش وللعرب قاطبه حيث أعجزهم - رغم بلاغتهم وفصاحتهم - ببلاغته وفصاحته فقد كثرت النواحي البلاغية الرائعة فيه ومن ثم كثرت الأمثال في القرآن ودعا سبحانه الناس الى أن يستمعوا اليها ويتدبروها ويتفكروا في معانيها ويعقلوا ما توحي به من الحكم والمواعظ فقال جل جلاله : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له) (٣) وقال : (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم

---

(١) ص ١٠٩ من مقالة د . عبد المجيد قطامش / مجلة البحث العلمي والتراث الاسلامي العدد الرابع عام ١٤٠١ هـ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) آية ٧٣ سورة الحج ٢٢

يتفكرون)[1]

وقال : " وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون "[2]

وغير ذلك من الآيات التي أحدثت في النفوس الرغبة والشوق لسماع ما سيأتي من الأمثال في القرآن الكريم التي كان الهدف من ضربها هو هداية الحائر الضال وكشف الغشاوات عن البصائر والعيون والارشاد الى خير أو النهى عن شر أو كشف حقيقة يجهلها الانسان أو لا يدرى ما كنهها ، (فكل مثل من أمثال القرآن يشرح للناس حقيقة من حقائق الحياة أو ضربا من عجائب الطبيعة ، أو هو حجة دامغة لاثبات أمر ، أو تقرير مبدأ ، أو احقاق حق ، أو ابطال باطل)[3] .

وقد تمثل القرآن بالحيوان لمعالجة كثير من هذه الأمور ، ذلك أن القرآن يخاطب الناس - خاصة العرب - بما يفهمونه وبما يميلون اليه وبالأساليب التي يستعملونها هم في حياتهم وبما يألفون ومعروف أن (التمثل بالحيوان مسلك لغوى قديم ، سلكته الأمم في أمثالها وحكمها وأقوالها السائرة ، فقد تمثل به العرب في جاهليتهم واسلامهم ، وتمثل

---

(١) آية ٢١ سورة الحشر ٥٩

(٢) آية ٤٣ سورة العنكبوت ٢٩ .

(٣) ص ١١١ من مقالة د . عبد المجيد قطامش / مجلة البحث العلمي والتراث الاسلامي - العدد الرابع عام ١٤٠١ هـ .

به الفرس وغيرهم من الأمم ذات الحضارات العريقة . ولكن تمثل العرب بالحيوان بلغ شأوا بعيدا ، وفاقت أمثالهم فيه أمثال من عداهم من الأمم والشعوب ، كثرة وجودة معا - ذلك أن العرب كانوا في جاهليتهم أمة تغلب عليها البداوة ومن لوازم البداوة مخالطة الحيوان ومعايشته ، والاعتماد عليه في كثير من شئون الحياة ، ونتج عن ذلك تعرفهم على الكثير من صفات هذا الحيوان وغرائزه وطباعه (١) . ومن هنا فقد كان أقرب طريق لتصوير واقعهم وتذكيرهم ووعظهم وزجرهم هو ضرب الأمثال لهم من واقع بيئتهم من الحيوان . . ومن هنا فقد ضرب سبحانه لهم الأمثال بالحيوان ولم يفرق - سبحانه - بين الحيوانات المستحقرة والضخمة في ضرب الأمثال وانما ضربت الأمثال بالحيوانات حسب الحاجة لها في (كشف المعنى ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب وادناء المتوهم من المشاهد ، فان كان المتمثل له عظيما كان المتمثل به مثله ، وان كان حقيرا كان المتمثل به كذلك ، فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل اذا الا أمرا تستدعيه حال المتمثل له وتستجره الى نفسها ، فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضية ألا ترى الى الحق لما كان واضحا جليا أبلج كيف تمثل له بالضياء والنور ، والى الباطل لما كان بضد صفته تمثل له بالظلمة) (٢)

---

(١) ص ١١٢ من مقالة د . عبد المجيد قطامش / مجلة البحث العلمي والتراث الاسلامي ، العدد الرابع عام ١٤٠١ هـ

(٢) ١/ ٢٦٢ الكشاف الطبعة الأخيرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م

فالعبرة اذا ليست فى الحيوانات المستحقرة والضخمة فكلاهما يستويان فى دقة الخلق والاعجاز والذى خلق هذا خلق ذاك وما دام الأمر كذلك فقدرته اذا لا تقل فى ذاك عن هذا فليست العبرة فى ضخامة الهيكل وانما العبرة فى دقة الصنع فاذا تأملنا فى خلق الحيوانات الصغيرة والنظام الذى تسير عليه وكيف ركب جسمها بحيث يحمل كل الأعضاء التى تؤهلها لأن تكون كائن حى : أعين تبصر بها ، وفم تأكل به ، وأنف وأرجل وأيد وكيف وجد فيها هذا المخ الذى يسيّرها ، كل ذلك وغيره أدعى للتأمل والتعجب لدقته وصغره ويوحى بما وراءه من الدلالة ويجعل الانسان يزداد ايمانا بالله تماما كما يزداد ايمانه به حين يتأمل الحيوانات الكبيرة الضخمة مثل الفيلة والابل والأبقار وغيرها ولما رأى سبحانه حاجة الجهلة والسفهاء وأهل العناد والمراء من الكفار من قريش وغيرهم تستدعى ضرب المثل بالحيوان الحقير حيث جعلوا أندادا لله تعالى - لا حال أحقر منها وأخس قدرا - لهم ضرب المثل سبحانه بتلك الحيوانات الحقيرة كالذباب والعنكبوت فقال : سبحانه يبين بطلان الشرك الذى هم عليه ويسفه عقول المشركين :

١ - " يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا

لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب"(١).

يقول ابن قيم الجوزيه عن هذا المثل : (حقيق على كل عبد أن يستمع لهذا المثل ويتدبره حق تدبيره فانه يقطع موارد الشرك من قلبه وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على ايجاد ما ينفع عابده واعدام ما يضره والآلهة التى يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق ذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقه فكيف ما هو أكبر منه ، ولا يقدرون على الانتصار من الذباب ، واذا سلبهم الذباب شيئا مما عليهم من طيب ونحوه فيستنقذونه منه ، فلا هم قادرون على خلق الذباب الذى هو من أضعف الحيوانات ولا على الانتصار منه واسترجاع ما يسلبهم اياه ، فلا أعجز من هذه الآلهة ولا أضعف منها فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله . وهذا المثل من أبلغ ما أنزله - سبحانه - فى بطلان الشرك وتجهيل أهله وتقبيح عقولهم والشهادة على أن الشياطين قد تتلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة . .)(٢) (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له) انه نداء عام شامل للخليقة من خالقهم ، يعلن فى

---

(١) ٧٣ م الحج ٢٢

(٢) ص ٢٤٨ الآمثال فى القرآن الكريم لابن قيم الجوزية ، تحقيق سعيد محمد نمر الخطيب - دار المعارف .

الآفاق على الناس جميعا عن ضعف من يدعونهم من دون الله من الصور والتماثيل والأصنام والأوثان ، من أشخاص وقيم وأوضاع وغير ذلك مما تصفونه بالألوهية عظم أم صغر فما هو الا شيء حقير لا يذكر ولا حول له ولا قوة من دون الله ولا يدل اتخاذ مثل هذه الأشياء آلهة الا على حقارة وتفاهة عقول من يتخذونها آلهة ! لقد أعلن - سبحانه - عن هذا الضعف في صورة مثل معروض للأسماع والأبصار ، مصور في مشهد شاخص متحرك يرسم الضعف المزري ويمثله أبرع تمثيل : " يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له : ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له " ما أروعه من مثل - لمن يفقهه ويقدره - فهؤلاء الذين تدعونهم من دون الله وتطلبون منهم النصر والجاه من دون الله لن يستطيعوا افادتكم بشيء لماذا ؟ لأنهم : (لن يخلقوا ذبابا " لا يستطيعوا خلقه فخلق الذباب (١) - مع حقارته - (مستحيل كخلق الجمل والفيل ، لأن الذباب يحتوي على ذلك السر المعجز

---

(١) يقول القزويني عن خلق الذباب وطباعه :
هي أصناف كثيرة تتولد من العفونة لم يخلق لها أجفان لصغر حدقتها . ومن شأن الأجفان تصقيل الحدقة من الغبار فخلق لها يدان يقومان مقام الأجفان فلهذا ترى الذباب على الدوام يمسح بيديه حدقتيه وله خرطوم يخرجها اذا أراد مص الدم ويدخلها اذا روى ولها بطن وفيها يجري الصوت كما يجري في العصب من النفخ ولا يقدر على المشي اذ ليس له مفصل وخلق رؤوس أرجلها خشنة لئلا تنزلق اذا وقعت على الأشياء الملسة.
عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ص ٤٧٥ .

سر الحياة . فستمر في استحالة خلقه مع الجمل والفيل . . ولكن الأسلوب القرآني المعجز يختار الذباب الصغير الحقير لأن العجز عن خلقه يلقي في الحس ظل الضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل ! دون أن يخل هذا بالحقيقة في التعبير .

وهذا من بدائع الأسلوب القرآني العجيب !)[1] .

(ولو اجتمعوا له) عاجزين عن خلق هذا المخلوق (الذباب) الذي هو من أحقر وأذل الحشرات الصغيرة ومع ذلك لن يستطيعوا أن يخلقوا هذا الخلق الحقير ولو اجتمعت جميع هذه المعبودات التي تعبدونها من دون الله - مهما كانت - وتساندت فلن تستطيع أن تحصل على هذا السر العظيم (سر الخلق) سر الخالق وحده لا شريك له وجميع المخلوقات صغرت أم كبرت من خلقه وحده ، ودليل ألوهيته - سبحانه - هذا الخلق فما دام أنه خالقها فهو اذا الاله وحده وعجز غيره عن خلقها دليل على عدم ألوهيته وعدم استحقاقه لشيء من التعظيم بل دليل على تفاهته وحقارته . .

وبعد أن ضرب المثل - سبحانه - في (بطلان الشرك) باستحالة خلق الذباب يرينا صورة أعمق زيادة في تبكيتهم تبرز ذلك الضعف

---

(١) ١٢٣/١٧ في ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

المزرى الذى عليه المعبودات التى تعبد من دون الله فيقول جل جلاله " وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب" . صورة مضحكة حين نتصور هذه المعبودات ولديها شيء ما فيأتى الذباب - وهو من الحشرات الجرثيمة التى تقع على كل شيء - فتقع على هـــذه المعبودات وتخطف هذا الشيء من تلك المعبودات فلو كان لهـــذه المعبودات حول أو قوة - عدا عن حول الخلق - فلتجرى وراء الذبـاب وتأخذ ما سلبه الذباب منها !!

ويرى سيد قطب حقيقة أخرى يستخدمها الأسلوب القرآنى المعجز حيث يقول : (والآلهة المدعاة لا تملك استنقاذ شيء من الذباب حـــين يسلبها اياه ، سواء كانت أصناما أو أوثانا أو اشخاصا ! وكم من عزيـز يسلبه الذباب من الناس فلا يملكون رده ، وقد اختير الذباب بالذات وهو ضعيف حقير . وهو فى الوقت ذاته يحمل أخطر الأمراض ويسـلب أغلى النفائس : يسلب العيون والجوارح ، وقد يسلب الحياة والأرواح . . انه يحمل ميكروب السل والتيفود والدوسنتاريا والرمد . . ويسلـــب ما لا سبيل الى استنقاذه وهو الضعيف الحقير . . . ولو قال . وان تسلبهم السباع شيئا لا يستنقذوه منها . . . لأوحى ذلك بالقوة بدل الضعـف

والسماع لا تسلب شيئا أعظم مما يسلبه الذباب ! ولكنه الأسلوب القرآنى المعجز)(١)

ثم يختم سبحانه ذلك المثل المصور الموحى بهذا التعقيب : (ضعف الطالب والمطلوب) تسوية بين العابد والمعبود فى الضعف والعجز (قيل : الطالب والعابد والمطلوب والمعبود فهو عاجز متعلق بعاجز .. وقيل : هو تسوية بين السالب والمسلوب وهو تسوية بين الآلهة والذباب ، وفى الضعف والعجز ، وعلى هذا فالطالب الاله : الباطل والمطلوب الذباب يطلب منه ما استنقذه منه وقيل الطالب الذباب والمطلوب الآلهة ، فالذباب يطلب منه ما يأخذه منه عليه . والصحيح أن اللفظ يتناول الجميع فضعف العابد والمعبود والمستلب)(٢)

وان أردنا تحديد اثنين كما حدد القرآن الكريم فالأرجح - والله أعلم - أن يكون الطالب : هو الانسان الجاهل الذى يطلب العون من غير الله فهو ضعيف ولو لم يكن ضعيفا لما طلب العون . والمطلوب : هى تلك المعبودات التى يعبدونها من دون الله فهى ضعيفه ولو لم تكن ضعيفة لاستطاعت خلق ذبابا أو حتى لاستطاعت الانتصار منه لنفسها واسترجاع

---

(١) ١٢٣/١٧ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

(٢) ص ٢٤٩ - ٢٥٠ الآمثال فى القرآن الكريم لابن قيم الجوزية

ما سلبها اياه فضلا عن الانتصار لمن يطلب النصر منها !

والى جانب هذه التسوية في خاتمة المثل (ضعف الطالب والمطلوب) فان فيه تقريرا لما ألقاه المثل من ظلال وما أوحى به الى المشاعر والقلوب من الزراية والاحتقار لضعف الآلهة المدعاة وما كشف به من الغشاوه عن البصائر والعيون . . تقريرا للحقيقة الأزلية الأبدية حقيقة (توحيد الله) لا شريك له .

* * *

وفي معرض ضرب الأمثال بالحيوانات ولنفس الغرض ننتقل الى سورة أخرى ، سورة العنكبوت لنستمع الى الحق - سبحانه - وهو يضرب لنا مثلا آخر بحيوان آخر : ٢ - " مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون . ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم . وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون "(١).

انه تصوير عجيب لحقيقة القوى المتصارعة في هذا الوجود قوة الخلق الضعيفة الهزيلة الواهنه . فمن تعلق أو احتمى بأى قوة غير قوة الله فهو كالعنكبوت الضعيفة التي تنسج لها بيتا من خيوط مهلهلة رقيقة (٢) ،

---

(١) آية ٤١ - ٤٣ سورة العنكبوت ٢٩

(٢) العنكبوت : دويبه من رتبة العنكبيات ، لها أربعة أزواج من الأرجل ، تنسج نسيجا رقيقا مهلهلا تصيد به طعامها . (مؤنثة وقد تذكر)

(ج) عنكبوتات ، وعناكب ، وعناكيب ٦٣٢/٢ المعجم الوسيط .

لا تقيها حرا ولا بردا ولا عدوا ومع ذلك فهي تحتمي به ظنا منها أنه سيحميها فهي وما تحتمي به سواء ، وقد ضرب العرب المثل بالعنكبوت في الضعف والوهن والوهن فقالوا : " أوهى من بيت العنكبوت " و " أوهن من بيت العنكبوت " ولما كان القرآن - كما ذكرنا - يخاطبهم بلغتهم وبما يألفونه في حياتهم فقد ضرب لهم سبحانه هذا المثل ليبين لهم بطلان شركهم به وخسارة من يشرك به وحصوله على ضد مقصوده تماما كما هو حال العنكبوت : حين تتخذ بيتا من خيوطها المهلهلة الرقيقة وتظن أنها تحميها فيحدث لها ضد مقصودها . . . فقال سبحانه : " مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت) وزيادة في تبكيتهم يبين لهم - سبحانه - أن اتخاذهم أولياء من دونه جل جلاله كاتخاذ العنكبوت بيتا من الخيوط المهلهلة الرقيقة هذه هي الحقيقة (لو كانوا يعلمون) بها لما اشركوا بالله . فالغرض من قوله سبحانه (لو كانوا يعلمون) هو بيان مصير الفشل وخلاف ما قصدوا من اتخاذهم الشركاء من دون الله كمصير العنكبوت في اتخاذها بيتها لحمايتها وليس الغرض هو نفي علمهم بوهن بيت العنكبوت فهذه حقيقة معروفه عندهم وأمر معلوم لديهم ولا شك فهم يشاهدون العنكبوت وهو

ينسج بيته فى كل آونه ولكن الذى لا يعرفونه هو أمرهم مع من يتخذونه وليا من دون الله ويطلبون منه النصر والمنعه فربط لهم سبحانه حالهم هذه بحال العنكبوت مع بيتها المنسوج من الخيوط الرقيقة المهلهلة وضرب لهم هذا المثل الذى يكشف الغشاوه عن البصائر ويثبت الألوهية لله وحده .

يقول ابن الجوزيه عن قوله سبحانه (لو كانوا يعلمون) : (انه سبحانه لم ينف عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت وانما نفى علمهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه (كالعنكبوت اتخذت بيتا) فلو علموا ذلك لما فعلوا ولكن ظنوا ان اتخاذهم الأولياء من دونه يفيدهم عزة وقوة ، فكان الأمر بخلاف ما ظنوا)(١) .

فليست هنالك حماية الا حماية الله والا حماه والا ركنه القوى الركين فى كل زمان ومكان فى عصر قريش وفى عصر الذره الذى نعيشه الآن والذى كثرت فيه القوى المتجبره لكن قوة الله دائما هى الوحيدة التى تخلق سائر القوى وتملكها ، وتمنحها ، وتوجهها ، وتسخرها كما تريد ، حيثما تريد والالتجاء الى تلك القوى سواء كانت فى أيدى الأفراد ، أو الجماعات أو الدول . . كالتجاء العنكبوت الى بيت العنكبوت . . حشرة ضعيفة رخوة واهنه لا حماية لها من تكوينها الرخو ، ولا وقاية لها من بيتها

---

(١) ص ١٩٠ الأمثال فى القرآن الكريم لابن قيم الجوزية .

الواهن . وجميع القوى من عصر قريش حتى عصرنا الحاضر عصر العلم والاختراعات عاجزة عن خلق أضعف المخلوقات عاجزة عن أن تخلق ذبابا ولو اجتمعوا له . .هذه هي الحقيقة التي عنى القرآن بتقريرها في نفوس الفئة المؤمنة ، فكانت بها أقوى من جميع القوى التي وقفت في طريقها ، وداست بها على كبرياء الجبابرة في الأرض ودكت بها المعاقل والحصون .(١)

وهذا هو الغرض البياني والتربوي من ذكر الذباب والعنكبوت في الآيات الكريمة السابقة . علما بأن الذباب لم يذكر في القرآن الكريم في غير هذا المثل . وكذلك العنكبوت لم تذكر باسمها صراحة الا في هذا المثل في الآية الكريمة السابقة ولكنها ذكرت ضمنا في القرآن الكريم في الاشارات العامه في خلق الحيوان وذلك في قول الله تبارك وتعالى : " الا تنصروه فقد نصره الله . اذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار . اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم"(٢) .

---

(١) ٢٠/١٢٩ في ظلال القرآن لسيد قطب بتصرف .

(٢) آية ٤٠ سورة التوبة ٩

وذلك في معرض بيان نصرة الله - سبحانه - لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - في جميع الظروف والأحوال فما هو إلا رسول الله ونبيه وحاملا رسالته - سبحانه - ومعنى الآية : ان لم تنصره وقت حاجته لكم فسينصره الله الذى قد نصره في وقت ضرورة أشد من هذه المرة وذلك حين تسبب لخروجه الكفار من مكه فأذن الله له بالخروج منها مصطحبا معه صاحبه الصديق رضوان الله عليه واختبئا في غار ثور والغار ثقب في أعلى ثور وهو في يمنى مكه على مسيرة ساعة ومكثا في هذا الغار ثلاثة أيام (١) وقريش دائمة البحث عنهما ثم (طلعوا فوق الغار فأشفق أبوبكر رضى الله عنه على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال ان تُصب اليوم فقد ذهب دين الله فقال - صلى الله عليه وسلم - (ما ظنك باثنين الله ثالثهما) ومن يكن الله معه فلا خوف عليه ولا يحزن فقد بعث الله - سبحانه - مخلوقات من أضعف مخلوقاته لحمايته صلى الله عليه وسلم هو وصاحبه ليغيط قريش بعد ذلك اذا علمت أن الذى منعها عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه هى تلك المخلوقات الضعيفة انها حمامتان باضتا في أسفل الغار ثم جاءت العنكبوت الحشرة الضعيفة الواهنه

---

(١) المجلد ٢ جـ ٤/٦٦ تفسير ابى السعود بتصرف .

فنسجت خيوطها على الغار (وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم أعم أبصارهم فجعلوا يترددون حول الغار ولا يظنون قد أخذ الله تعالى أبصارهم عنه) (١) . وهكذا فان الله سبحانه اذا أراد شيئا بعث جندا من عنده لتنفيذ ما يريد فما تكون قوة قريش حين بعث محمد - صلى الله عليه وسلم - أو قوة الشرق أو الغرب في عصرنا الحديث أمام قوة الله جل جلاله الذى له ملك السموات والأرض وما فيها من جند :

(ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما) (٢) .

وما يهمنا في هذه النقطة هو : هل العنكبوت كانت من الجنود الذين أيّد الله بهم نبيه في الغار ؟ " وأيّده بجنود لم تروها "؟

يقول أبو السعود في تفسير قوله تعالى : " وأيّده بجنود لم تروها " عطف على نصرة الله والجنود هم الملائكة النازلون يوم بدر والأحزاب وحنين وقيل هم الملائكة أنزلهم الله ليحرسوه في الغار ويأباه وصفهم بعدم رؤية المخاطبين لهم) (٣) . ولم يذكر - أبو السعود - كيف كانت حماية الله لرسوله - صلى الله عليه وسلم - واختصر كما اختصر السياق حين قال : " فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها " ولم يذكر

---

(١) المصدر السابق ٦٦

(٢) آية ٧ م الفتح ٤٨

(٣) ٦٦/٤ تفسير أبي السعود المجلد ٢

بأن العنكبوت كانت من جند الله ـ سبحانه ـ . . وبما أنه لم تكن هناك حرب قد دارت بينه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين قريش فى الغار والاّ لعلم عنها ولذكرته الآية ولكن الذى علم أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد خرج من الغار بسلام بعد أن أعمى الله أبصار قريش ، فلابد أن يكون هناك جند من جنده ـ سبحانه ـ هم الذين تولوا الدفاع عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأعموا أبصار قريش وان لم تذكر الآيات ذلك صراحة لكنها ذكرت ذلك ضمنا فلا يبعد أن تكون العنكبوت هى جند من جنوده ـ سبحانه ـ :

" وما يعلم جنود ربك الاّ هو " (١) . . هذا اذا فسرنا الجنود التى ذكرها سبحانه ـ فى قوله : " وأيّده بجنود لم تروها " بأنهم هم الملائكة النازلون يوم بدر والأحزاب وليسوا جنودا آخرين من خلق ـ سبحانه ـ كالعنكبوت مثلا . .

ويؤيد قولنا ـ أن العنكبوت كان جند من جنود الله الذين دافعوا عن النبى فى الغار أو حتى شاركوا فى الدفاع عنه ـ كثير من الروايات فى السيرة والتاريخ حيث أثبتوا أن العنكبوت قد نسج على غار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما معنى أن ينسج العنكبوت الضعيف على الغار فى

---

(١) ٣١ ك المدثر ٧٤

ذلك الظرف وفي ذلك الوقت الذى دخل فيه - صلى الله عليه وسلم - الغار؟ الا أن تكون عناية من الله والا أن يكون العنكبوت جند من جند الله . .

وعلى لسان العنكبوت يقول أحمد بهجت (وما الذى حميته من نسيج

وتيه من نسيجات تخيره أقل هبة من هبات النبوة ، ورغم من الف

الف سيف وقف أمام حد السيف الكفرة التى ضربت عليه النبى ،

واعلن أن أمر بأمر أضعف الصراع بين جيوش العنكبوت الضعيف

وجنود السيوف عن هزيمة الجيوش بأمر الله الجبار أمام الحبور . .

وجلست في بيتها الذى ضرب به المثل في الضعف ان أوهن البيوت

لبيت العنكبوت جلست في بيت أحمى بيت الاسلام الكبير وأمر نبى

الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم) (١) بفضل من الله فما

أبا الا بجند من جنده - سبحانه - نعم ان العنكبوت والذباب والبعوض

كغيرها من مخلوقات الله التى نعلمها والتى لا نعلمها جميعها جند من

جنود الله ويؤيد ذلك قوله تعالى : " فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد

والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات " أى أن الله سبحانه أرسل هذه

المخلوقات (٢) على آل فرعون حين طغوا وبغوا فى أرض مصر فهى اذن من

جند الله ، كذلك العنكبوت والذباب والبعوض هم جند من جنده لأنهم

---

(١) [illegible] أحمد بهجت بدار الشعب

(٢) انظر ما كتب عن الجراد والقمل والضفادع فى هذا البحث .

خلق من خلقه - سبحانه - والا لما عجز أن يخلق مثلهم غيره ! ولأنها جند من جنده ضرب بها المثل سبحانه ولم يستح أن يضرب المثل بالبعوضه فقال سبحانه : " ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضه فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا "(١).

ومن هنا نصل الى ذكر البعوضه فى القرآن :

حيث ذكرها سبحانه فى كتابه العزيز وضرب بها المثل لأنها خلق من خلقه ولا فرق بينها وبين غيرها من ناحية الاعجاز فى الخلق . . وبما أن الخلق خلقه - سبحانه - فقد حق له أن يضرب المثل بما شاء من مخلوقاته الضعيفة منها والقوية حين تكون الحاجة الى ضرب المثل بها كما حق له أن يقسم بما شاء من مخلوقاته كالشمس والقمر والنجوم وغيرها . .

أما السبب فى نزول هذه الآية الكريمة فهى للرد على الجهلة والسفهاء وأهل العناد والمراء من الكفار الذين استنكروا واستغربوا من أن تكون المحقرات من الحيوان مثل الذباب والعنكبوت مضربا بها المثل ووجدوا منفذا من هذين المثلين اللذين ضربهما الله فتجرؤا وتعدوا حدود الله بقول فظيع لا يصدر الا عن جاهل لا يريد الا أن يعيش فى الظلم

---

(١) ٢٦ م البقرة ٢

والظلمات فقالوا : أما يستحي رب محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت؟

(وعن الحسن وقتادة لما ذكر الله الذباب والعنكبوت في كتابه وضرب للمشركين به المثل ضحكت اليهود وقالوا ما يشبه هذا الكلام كلام الله) (١) .

وقالوا أيضا : أى قدر للذباب والعنكبوت حتى يضرب الله تعالى بهما الأمثال ؟

لقد وجد هؤلاء الجهلة (في هذه المناسبة منفذا للتشكيك في صدق الوحي بهذا القرآن ، بحجة أن ضرب الأمثال هكذا بما فيها من تصغير لهم وسخرية منهم لا تصدر عن الله ، وأن الله لا يذكر هذه الأشياء الصغيرة كالذباب والعنكبوت في كلامه . . !

وغابت عنهم حقيقة كبرى وهي : أن من عظمة الخالق ألا ينسى خلقه مهما صغر وحقر حتى النملة ذكرها سبحانه وهي أصغر من البعوضه فهذا أعظم دليل على عظمته وعلى اطلاعه على خلقه وعلمه بهم . .

لقد كان غياب هذه الحقيقة عن الجهله هو السبب في اتخاذ المثل الذى ضربه - سبحانه - بالذباب والعنكبوت طرفا من حملة التشكيك والبلبلة التي يقوم بها المنافقون واليهود في المدينة ، كما كان يقوم بها المشركون في مكة فجاءت هذه الآيات دفعا لهذا الدس ، وبيانا لحكمة الله في

---

(١) ١/ ٢٦٣ الكشاف للزمخشرى الطبعة الأخيرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م

ضرب الأمثال ، وتحذيرا لغير المؤمنين من عاقبة الاستدراج بها ، وتضمينا للمؤمنين ان ستزيدهم ايمانا)[١] قال تعالى : " ان الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضه فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا " .[٢]

انه شروع في تنزيه ساحة التنزيل عن تعلق ريب خاص اعتراهم من جهة ما وقع فيه من ضرب الأمثال وبيان لحكمته وتحقيق للحق اثر تنزيهها عما اعتراهم من مطلق الريب بالتحدى والقام الحجر وافحام كافة البلغاء من أهل المدر والوبر)[٣] . ويتعجب الزمخشرى من تعجبهم بضرب الأمثال في القرآن بالمحقرات من الحيوان فيقول : (والعجب منهم كيف انكروا ذلك وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور وأحناش الأرض والحشرات والهوام ، وهذه أمثال العرب بين أيديهم مسيرة في حواضرهم وبواديهم قد تمثلوا فيها بأحقر الأشياء فقالوا : أجمع من ذرّه ، وأجرأ من الذباب ، وأسمع من قراد ، وأصرد من جرادة ، وأضعف من فراشة ، وآكل من السوس ، وقالوا في البعوضة : أضعف من

---

(١) ١/٥٧ في ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

(٢) آية ٢٦ سورة البقرة ٢

(٣) المجلد ١ جـ ١/٧١ تفسير أبي السعود .

بعوضة ، وأعز من مخ بعوضه ، وكلفتني مخ البعوض)[1] . ولهذا ضرب سبحانه لهم الأمثال بما يتخاطبون به في حياتهم ولكن كما قال الزمخشري أيضا هو (ديدن المحجوب المبهوت الذي لا يبقى له متمسك بدليل ولا متشبث بامارة ولا اقناع أن يرمي لفرط الحيرة والعجز عن أعمال الحيلة بدفع الواضح وانكار المستقيم والتعويل على المكابره والمغالطة اذا لم يجد سوى ذلك معوّلا)[2]

ومع ذلك فقد عالج القرآن هذه المغالطة وتلك المكابرة بأسلوب قوي رقيق لا يدع لهم مجالا بعد ذلك للمغالطة والمكابره ويوقظهم من غفوتهم ويكشف الغشاوه عن بصائرهم سواء كانوا متعمدين في صنع الأقنعه على أعينهم لتحجب عنهم النور والحق أم كانوا فعلا لا يرون النور والحق من عند الله اذ أن الأمثال التي ضربها سبحانه للناس لا (يعقلها الا العالمون) وعلى أي حال فقد جاء هذا المثل (مثل البعوضه) ردا على الجاهلين وتطمينا للمؤمنين بأنها ستزيدهم ايمانا قال سبحانه :

" إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة) أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضه ترك من يستحي أن يتمثل بها لحقارتها ، ويجوز أن تقع هذه العباره في كلام الكفره فقالوا : أما يستحي ربّ محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت ؟ فجاءت على سبيل المقابلة واطباق الجواب على

---

(١) جـ ١/ ٢٦٣ الكشاف للزمخشري الطبعة الأخيرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م

(٢) المصدر السابق .

السؤال ، وهو فن من كلامهم بديع وطراز عجيب)[1] .

وقوله سبحانه (ما) فهذه ابهامية اذا اقترنت باسم نكرة أبهمته ابهاما وزادته شياعا وعموما وقد اقترنت في الآية بنكره وهي (مثلا) دليلا على أنه سبحانه قد يضرب أي مثل بأي شيء ولا يكون في ذلك أي قيد أو شرط فهو خالق كل شيء فهي اذا للمبالغة (أي ان الله لا يستحي أن يضرب للأنداد ما شاء من الأشياء المحقرة مثلا بله البعوضة فما فوقها ، كما يقال : فلان لا يبالي بما وهب ما دينار ودينارات ، أو المعنى ان لله أن يتمثل للأنداد وحقارة شأنها بما لا شيء أصغر منه وأقل ، كما لو تمثل بالجزء الذي لا يتجزأ وبما لا يدركه لتناهيه في صغره الا هو وحده بلطفه ...[2]) وقوله سبحانه : (ان الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضه) زيادة في التبكيت فلم يقل سبحانه ان الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما ذبابة مثلا أو ما هو أكبر من البعوضة وانما قال جل شأنه (ان الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة) وزيادة أكثر في التبكيت قال : (فما فوقها) فقوله (فما فوقها) فيه معنان : (أحدهما فما تجاوزها وزاد عليها في المعنى الذي ضربت فيه مثلا وهو القلة

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق ٢٦٤ .

والحقارة نحو قولك لمن يقول : فلان أسفل الناس وأنذلهم هو فوق ذلك تريد هو ابلغ وأعرق فيما وصف به من السفالة والنذالة ، والثاني : فما زاد عليها في الحجم كأنه قصد بذلك رد ما استنكره من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت لأنهما أكبر من البعوضه كما تقول لصاحبك وقد ذم من عرفته يشح بأدنى شيء فقال فلان بخل بالدرهم والدرهمين هو لا يبالي أن يبخل بنصف درهم فما فوقه ، تريد بما فوقه ما بخل فيه وهو الدرهم والدرهمان كأنك قلت فضلا عن الدرهم والدرهمين)[1] .

وبعد أن بين - سبحانه - ان العبرة ليست في ضخامة المثل ولا حقارته وانما العبرة في أخذ المعنى المطلوب من المثل المضروب ، يبين سبحانه ان الفائدة من ضرب الأمثال هو التنوير والتبصير واختبار القلوب وامتحان النفوس : (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم " ذلك لأنهم يريدون أن يعرفوا كل ما يتعلق بأمور دينهم وما يقربهم الى الله ويتلهفون على ذلك لذا فهم (يتلقون كل ما يصدر عنه بما يليق بجلاله ، وبما يعرفونه من حكمته وقد وهبهم الايمان نورا في قلوبهم ، وحساسية في أرواحهم ، وتفتحا في مداركهم ، واتصالا بالحكمة الالهية في كل أمر وفي كل قول يجيئهم من عند الله)[2] .

---

(١) ص ٢٦٥ المصدر السابق

(٢) ١/٥٧ في ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

" وأما الذين كفروا فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ "

سؤال المغالط المكابر المبهوت ، (سؤال المحجوب عن نور الله وحكمته ، المقطوع الصله بسنة الله وتدبيره . ثم هو سؤال من لا يرجو لله وقارا ، ولا يتأدب معه الأدب اللائق بالعبد أمام تصرفات الرب . يقولونها في جهل وقصور في صيغة الاعتراض والاستنكار ، أو في صورة التشكيك في صدور مثل هذا القول عن الله !) .(١)

. . . . . .

---

(١) ١/٥٧ في ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

الغـرض البيانـي والتربـوي

من ذكر البعوضه في الآية الكريمة السابقه :

الرد على الكافرين الذين استنكروا من أن يضرب الله سبحانـه المثل بالذبابة والعنكبوت فضرب لهم المثل سبحانه بما هو أحقر مـن الذبابه والعنكبوت وهو البعوضة وبين لهم سبحانه أنه لا يستحى من ضرب المثل بالبعوضة أو ما هو أصغر منها أو ما هو أكبر منها فجميع هذه المخلوقات كبرت أم حقرت هي من خلقه وهي معجزة الحياة ومعجزة السر المغلق الذى لا يعلمه الا الله وحده .

كما أن ذكر البعوضة في الآية الكريمة كان دفعا للدين الذى قام به الجهلة والسفهاء وأهل العناد والمراء من الكفار حينما ضرب - سبحانه - المثل بالذبابة والعنكبوت . (وبيانا لحكمة الله في ضرب الأمثال ، وتحذيرا لغير المؤمنين من عاقبة الاستدراج بها ، وتطمينا أن ستزيدهم ايمانا)[1] .

---

*

---

(١) ١/٥٧ في ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

بـــاب التـــــاء

لم تذكر حيوانات في القرآن الكريم تبدأ بحرف التـــــاء .

بـــاب الثـــــاء

ذكر الثعبان في القرآن الكريم وتكلمنا عنه في قسم الحيوانات التي وقعت فيها معجزات .

بـــاب الجـــيم

أولا : الجمـــل (١)

ورد ذكر الجمل في قوله الله تبارك وتعالى :

" ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السمـــــاء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ، وكذلك نجزي المجرمين . لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين " (٢) .

---

(١) الجمل : الكبير من الابل - ومنه ما هو ذو سنامين - وفي المثل : " ما استتر من قاد الجمل " يضرب لمن يأتي أمرا لا يمكن اخفاؤه . و " اتخذ الليل جملا " يضرب لمن يعمل عمله بالليل ، كأنه ركب الليل ولم ينم فيه (ج) جُمل . واجمال ، وجمال ١٣٦/١ المعجم الوسيط ط ٢

(٢) ٤٠ ك الأعـراف ٧

في هذه الآية تقرير وتوكيد للمصير الذى لن يتبدل ، المصير الذى ينتظر كل من كفر بالله وكذّب برسالاته وخرج عن عبادته وعما خلقه لأجله - سبحانه - : " ما خلقت الجن والأنس الاّ ليعبدون " الى عبادة غيره وافترى عليه الكذب وتكبر على آياته . .

ذلك المصير هو أسوأ مصير يواجه الانسان منذ ولادته وبعد وفاته الى أن يرث الله الأرض ومن عليها . .

ذلك المصير هو الذى قال عنه سبحانه بأنه بئس القرار وبئس مثوى للكافرين . . انها النار - والعياذ بالله - التى لا تبقى ولا تذر لواحة للبشر عليها تسعة عشر ، سيخلد فيها بعد موته وبعد ما يلاقى من أهوال وعذاب وتعذيب : " انا اعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالا وسعيرا "(١)

ذلك أن مصير كل انسان اما الى جنة واما الى نار فما دام أن هؤلاء لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة اذا حتما سيكون مصيرهم - والعياذ بالله - النار سيخلدون فيها وقوله سبحانه : " لا تفتح لهم أبواب السماء " :

١ - اما أن يكون المراد هو قبل موتهم لا تفتح لهم أبواب السماء أى لا تقبل أدعيتهم ولا أعمالهم لغضب الله عليهم بخلاف المؤمنين فان دعاءهم وصالح أعمالهم يصعد اليه بدليل قوله تعالى : " اليه يصعد

---

(١) ٤ سورة الدهر ٧٦

الكلم الطيب " وقوله تعالى : " كلا ان كتاب الأبرار لفي عليين " .

٢ - وأما أن يكون المراد هو بعد موتهم فاذا ما عرج بروحهم الى السماء لا تفتح لهم أبواب السماء لغضب الله عليهم فيهبط بها الى سجين بخلاف المؤمنين فتفتح لهم أبواب السماء وتصعد أرواحهم الى السماء السابعة .

٣ - (وقيل ان الجنة في السماء السابعة ، فالمعنى لا يؤذن لهم في صعود السماء ولا يطرق لهم اليها ليدخلوا الجنة)[١]

وقد يقول قائل ما دام ان الجنة في السماء فقد تكون أيضا النار في السماء فكيف يدخلون النار وأبواب السماء لا تفتح لهم ؟ والجواب على ذلك - والله أعلم - أنه قد يكون المراد من قوله - سبحانه - لا تفتح لهم أبواب السماء أي لا يرون ما في السماء من ملكوت وجنان ونعيم ولا يتمتعون بما فيها وكل شيء مغلق في وجوههم وليس أمامهم الا طريق واحد لا محيد عنه هو جهنم يساقون اليها في أبشع صورة وأفظع منظر " انا اعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالا وسعيرا " .

وهذا هو معنى أن أبواب السماء لا تفتح لهم بخلاف المؤمنين الذين يتمتعون بكل ما أعد الله لهم من نعيم وكل شيء مفتوح أمامهم لأن

---

(١) ٢/٧٨ الكشاف للزمخشري الطبعة الأخيرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م

الخالق ـ سبحانه ـ راض عنهم فمتعهم بتلك الجنان وينظر اليهم وطوبى لمن ينظر الله جل جلاله اليه فقد فاز كل الفوز .

وقوله : " ولا يدخلون الجنة " أعطيت حكم الخبر لأن قوله : " لا تفتح لهم أبواب السماء " خبر فعطفت على الأولى لأن للأولى محلا من الاعراب هو الخبريه واريد اعطاء هذا الحكم للجملة الثانية فعطفت عليها . والواو هنا تفيد الترتيب على الأرجح لأن اغلاق أبواب السماء أمامهم حادث قبل الموت ـ فيما نميل اليه ـ وعدم دخولهم الجنة بعد الموت فالواو هنا ترتيبيه لأن الواو تصلح لعطف السابق على اللاحق ولعطف اللاحق على السابق وهذا هو الأصل فيها ، وعطف المتصاحبين لكنها هنا للترتيب ومهما اختلفت الأقوال فى قوله : " لا تفتح لهم أبواب السماء " الا انها جميعا كناية عن الحرمان والطرد من رحمة الله .

أما فى عدم دخولهم الجنة فكان هذا الجزاء صريحا وواضحا :

" ولا يدخلون الجنة " .

اذا فقد حرمت عليهم الجنة لأنهم كذبوا بآيات الله ودخولهم اليها مستحيلا استحالة أكيدة . . لذا فقد جاء هذا التشبيه الضمنى البليغ فى هذه الآية كما هو الحال فى بلاغة القرآن وعظمته ، حيث عقّب على عدم دخولهم الجنة واستحالته بقوله سبحانه : " حتى يدخل الجمل فى سم الخياط " .

فهذا تشبيه ضمنى حيث يشبه - سبحانه - استحالة افتتاح أبواب السماء ودخول هؤلاء الكافرين الجنة باستحالة دخول الجمل فى سم الخياط !!

لقد شبه لهم - سبحانه - استحالة دخولهم الجنة - اذ قد يظنون أنهم سيدخلونها كما يدخلها المؤمنون - بصورة معروفة عندهم ألا وهى :

" دخول الجمل سم الخياط " فهذا المشبه به يتكون من طرفين :

(الجمل - سم الخياط) وهذين الطرفين فيهما طباق : بين الكبر والضخامة والصغر والضآلة ، حيث أن الجمل فى هذه الآية قيلت فيه عدة أقوال : فمنهم من قال أنه الجبل ، ومنهم من قال :

الجمل : الحيوان ، وقد سئل ابن مسعود (عن الجمل فقال : زوج الناقة استجهالا للسائل ، واشارة الى أن طلب معنى آخر تكلف)[1] .

وفى كلا الحالين يقصد بالجمل الضخامة .

أما (سم الخياط) :

فان معنى (سم) هو ثقب ومعنى (الخياط) أى الابره التى يخاط بها فالخياط والمخيط واحد كالحزام والمحزم اذا فقد جىء بذكر ثقب الابرة كناية عن الصغر والضآلة فثقب الابرة معروف لديهم واستعمال الابرة هو ادخال الخيط فى ثقبها فالخيط وحده هو الذى يمكن أن يدخل فى ثقب الابرة . . أما أن يدخل شىء غيره فمستحيل وأما أن يكون ذلك الذى

---

(١) ٢/ ٧٨ الكشاف للزمخشرى الطبعة الأخيرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م .

يدخل ثقب الابرة شيء ضخم كالجمل مثلا أو الجبل فدونك (فقف بتصورك ما تشاء أمام هذا المشهد العجيب : مشهد الجمل تجاه ثقب الابرة - فحين يفتح ذلك الثقب الصغير لمرور الجمل الكبير ، فانتظر حينئذ - وحينئذ فقط - ان تفتح أبواب السماء لهؤلاء المكذبين فتقبل دعاءهم أو توبتهم - وقد فات الأوان - وأن يدخلوا الى جنان النعيم ! أما الآن ، والى أن يلج الجمل فى سم الخياط ، فهم هنا فى النار ، التى تداركوا فيها جميعا وتلاحقوا ، وتلاوموا فيها وتلاعنوا ، وطلب بعضهم لبعض سوء الجزاء ونالوا جميعا ما طلبه الأولياء للأولياء .

وهذا هو الغرض البيانى والتربوى من ذكر (الجمل) فى هذه الآية الا وهو استحالة دخول الكافرين الجنة كما تكون استحالة دخول الجمل وهو مطلق الضخامة فى ثقب الابرة وهى مطلق الضآلة .

---

*

ثانيا : الجمالـــــــــــــة

وقد ورد (الجمالة) بصيغة الجمع للجمل في قول الله تبـــارك وتعالى :

" انها ترمي بشرر بالقصر ، كأنه جمالة صفر " (١) .

ووروده أيضا في هذه الآية في مجال ذكر الحساب والجزاء للكافريـــن حيث يساق المجرمون الى جهنم : " انطلقوا الى ما كنتم به تكذبـــون . انطلقوا الى ظل ذى ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من اللهب . انهـــا ترمي بشرر كالقصر . كأنه جمالة صفر . ويل يومئذ للمكذبين " .

انطلقوا أيها المكذبين بالله وبالرسل وبآيات الله الى ما كنتم به تكذبـــون فها هو ذا أمامكم حاضر مشهود : " انطلقوا الى ظل ذى ثلاث شعب" أى ظل هذا الذى سيظلكم انه ظل لدخان جهنم تمتد ألسنته في ثـــلاث شعب ظل خير منه النار والوهج لأنه ليس ظلال : " لا ظليل ولا يغنى من اللهب " انه ظل خانق حار لافح (وتسميته بالظل ليست الا امتدادا للتهكم ، وتمنية بالظل تتكشف عن حر جهنم ! انطلقوا وانكم لتعرفون الى اين ! وتعرفونها هذه التى تنطلقون اليها . فلا حاجة الى ذكر اسمها)(٢) :

---

(١) ٣٣ ك المرسلات ٧٧

(٢) ٢٤١/٢٩ في ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

" انها ترمى بشرر كالقصر . كأنه جمالة صفر " ان السياق لا يذكر اسم جهنم وانما يذكر وصفها فهى ترمى بشرر يتتابع منها فى حجم البيت من الحجر . . الشرر الذى ينطلق من جهنم يشبهه بأنه كالقصر أى البيت (وقد كان العرب يطلقون كلمة القصر على كل بيت من حجر وليس من الضرورى أن يكون فى ضخامة ما نعهد الآن من قصور)[1] وعند تتابعه من جهنم بتلك الصورة يبدو وكأنه جمال صفر ترتع هنا وهناك فهذه الصورة يعرفها العرب حيث يعيشون مع الجمال ويشاهدونها وهى ترتع فى البرارى والصحارى لذا فقد شبه لهم صورة جهنم أو بالأحرى الشرر الذى يتطاير منها فقط بصورة الجمال وهى ترتع فكيف بنارها التى ينطلق منها هذا الشرر ؟

وهكذا فان الغرض البيانى والتربوى من ذكر (الجماله) فى هذه الآية هو تصوير جهنم والترهيب منها وان شررها كما ترون فيما ترعون من جمال لكم فى البرارى فكيف بها وبنارها التى لا طاقة لانسان بها فليرتدعوا وليتعظوا وليخافوا جهنم فويل يومئذ للمكذبين !

يختم السياق هذه الصورة المروعة لشرر جهنم بهذا التعقيب المعهود : " ويل يومئذ للمكذبين "!

ثالثا : الجـــــــراد

سبق الحديث عنه فى قسم المعجـــزات ..

بـــاب الحـــاء

١ - الحمـــــار

ذكر الحمار في قول الله تبارك وتعالى :

" مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين "(١).

الحمار حيوان بليد مهين ذليل يضرب به المثل في الذل ، اذ قال العرب في أمثالهم : (أذل من حمار مقيد) ...

كما يضرب به المثل في الجهل والغفله وفي قلة المعرفة وغلظ الطبيعة)(٢) .

ومن هنا فقد تمثل سبحانه به حيث أنه سبحانه يضرب لهم الأمثال من واقع حياتهم ومن ما يألفون وما يعرفون .

قال تعالى : " مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها "

ويقصد بهم اليهود الذين نزلت عليهم التوراة كتابا لموسى - عليه السلام - وكلفوا بتدبر آياتها والعمل بما فيها وتطبيقها ككتاب فيه دستور حياتهم

---

(١) ٥ الجمعه ٦٢

(٢) ١١٦ مجلة البحث العلمي والتراث الاسلامي ، العدد الرابع ١٤٠١هـ، د . عبد المجيد السيد قطامش .

لكنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك وكان همهم قراءتها وحفظها ليس غير وقراءة دون تطبيق لا تجدى نفعا : " حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها " جاءهم موسى بهذا الكتاب ولكنهم لم يكونوا أهلا له لم يحملوه لم يعرفوه لم يتدبروا ما جاء فيه فكانوا فى حالهم هذه أشبه بالحمار الذى يحمل أسفارا : " كمثل الحمار يحمل أسفارا " أى الحمار الذى يحمل الكتب الكبار من كتب العلم ويمشى بها وهى على ظهره قريبة منه لكنه لا يدرى ماذا بها على ماذا تحتوى جاهلا بها فهى كأى حمل آخر من سائر الأحمال فليس له مما يحمل سوى الثقل والتعب والكد : " بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين " .

فالغرض البيانى والتربوى من ذكر الحمار فى هذه الآية هو :

١ - ان من كلف أمرا يجب أن يكون أهلا له .

٢ - تنبيه لأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - وتحذير لهم من أن يكونوا مثل اليهود الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها .

وهكذا كان ذكر الحمار لتوضيح بشاعة وفظاعة اليهود فى عدم ادراكهم وتفقهم وفهمهم وتطبيقهم للكتاب الذى حملوه ألا وهو (التوراة) فشبه حالهم بحال الحمار .

---

٢ - الحمـــــــر

كما ذكرت الحمر الوحشية في قول الله تبارك وتعالى :

" كأنهم حمر مستنفره ، فرت من قسوره ". (١)

حيث أن الحمر الوحشية أشد أنواع الحيوان نفارا وأشدها سرعة في عدوها حين تحس بعدوها .. ومن هنا فقد اختار القرآن للكفار هذه الصورة - صورة الحمر المستنفره - في اعراضهم عن التذكرة وهي القرآن وصدودهم عن الذكر والموعظة فاذا ما ذكروا بالقرآن أو وعظهم واعظ نفروا منه وولوا الأدبار وكأن هذه التذكره هي أسد أو رماة وكأن هؤلاء الذين ينفرون من التذكر حمر وحشيه تفر من الأسد أو الرماة :

(وفي هذا مذمة بالغة لهم ، وشهادة عليهم بالبله والسفاهة وقلة العقل) (٢) .

فالغرض البياني والتربوي من ذكر الحمر في هذه الآية هي تهجين من يعرض عن ذكر الله وعن القرآن بتشبيهه بالحمر الوحشية التي تفر من القسوره أي الأسد أو الرماة .

---

(١) ٥٠ - ٥١ المدثر ٧٤

(٢) ص ١١٧ من مقالة للدكتور عبد المجيد قطامش / مجلة البحث العلمي والتراث الاسلامي ، العدد الرابع ١٤٠١ هـ .

٣ - الحمـــــــير

كما ذكرت الحمير في قول الله تبارك وتعالى :

" وأغضض من صوتك ان أنكر الأصوات لصوت الحمير "(١).

وذلك في مجال التشبيه بالحمار في مواطن الذم حيث انه - الحمار - أقوى مثل للذم البليغ والشتيمة وجميع جوانبه تصلح للذم وقد اختـــير جانب صوته في هذه الآية حيث أراد لقمان - عليه السلام - أن يوصي ابنه بأمور تقربه من الله وتبعده عن سخط الله ومنها خفض صوته فلم يجد أبلغ من أن يشبه رافع الصوت بالحمار فقال : " واغضض من صوتـــك ان أنكر الأصوات لصوت الحمير " فشبه الرافعين أصواتهم بالحمير ، وتمثيل أصواتهم بالنهاق ، ثم اخلاء الكلام من لفظ التشبيه ، واخراجه مخرج الاستعارة وان جعلوا حميرا ، وصوتهم نهاقا ، مبالغة شديدة في الذم والتهجين ، وافراط في التثبيط عن رفع الصوت ، والترغيـــب عنه ، وتنبيه على أنه من كراهة الله بمكان)(٢).

وهكذا فان الغرض البياني والتربوي من ذكر الحمير هنا هو : تعليم الاسلام الناس كيفية أدب الحديث وأدب المجادلة حيث ذم وهجن من يرفع صوته في الحديث وشبهه بالحمير التي هي أنكر الأصوات في خلـــق الله .

---

(١) ١٩ لقمان ٣١

(٢) ٣ / ٢٠٤ الكشاف للزمخشري الطبعة الأخيرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م

باب الخـــــاء

١ - الخيـــــل

ذكرت الخيل في قول الله تبارك وتعالى : -

" زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة "(١).

والشهوات المقصودة في الآية هي (شهوات مستحبه مستلذة وليست مستقذره ولا كريهة . والتعبير لا يدعو الى استقذارها وكراهيتها ، انما يدعو فقط الى معرفة طبيعتها وبواعثها ، ووضعها في مكانها لا تتعداه ، ولا تطغى على ما هو أكرم في الحياة وأعلى ، والتطلع الى آفاق أخرى بعد أخذ الضرورى من تلك (الشهوات) في غير استغراق ولا اغراق)(٢).

والاسلام يدعو الى التحصين بالزواج بل ويأمر به لكنه يحذر في نفس الوقت من فتنة النساء او الافتتان بالنساء وطغيان هذه الناحية على نواحي الحياة الأخرى .

وفي هذه الآية يبين ان هذه الشهوة موجودة في فطرة الانسان وقد زينت للنفس الانسانية وكذلك فان انجاب الاطفال والاكثار منهم هذه شهوة في النفس الانسانية : " زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين"

---

(١) ١٤ م آل عمران ٣

(٢) ١٥٤/٣ في ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

ويضيف الى هاتين الشهوتين شهوة حب المال الى درجة التهـــم :

" والقناطير المقنطره (ولو كان يريد مجرد الميل الى المال لقال : والأموال . أو الذهب والفضة ولكن القناطير المقنطرة تلقي ظلا خاصا هو المقصود . ظل النهم الشديد لتكديس الذهب والفضة . ذلك أن التكديس ذاته شهوة . بغض النظر عما يستطيع المال توفيره لصاحبه من الشهوات الأخرى)(١) .

ثم يقرن السياق القرآني الى النساء والبنين والقناطير المقنطرة مـــن الذهب والفضة (الخيل المسومة)(٢) فالخيل كانت وما تزال - فـــي العصر الحديث عصر السرعه والقاطرات والسيارات والطائرات - زينة محببة مشتهاة لما فيها من جمال وذكاء ومودة وألفة ولما توحي به من انطـــلاق وفتوة وقوة حتى من لا يركبها فروسية فانه يعجب بمنظرها ويحب أن يشاهدها . كما قرن السياق الى تلك الشهوات شهوة الأنعام والحرث لما فيها مـــن خير ومنفعة .

---

(١) ١٥٤/٣ في ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

(٢) انظر ما كتب عن الخيل في باب الباء مع (البغال) .

فالغرض البياني والتربوى من ذكر الخيل والأنعام هنا هو تنبيه الناس أن يقفوا عند الحد المعقول من اقتناء الخيل والأنعام وأن يهتموا بها فى الحدود المعقوله بشرط أن لا تطغى على ما هو أسمى وأكرم فى الحياة .

وقد كانت الخيل ابتلاء لسليمان - عليه السلام - وذلك فى قول الله تبارك وتعالى :

" ووهبنا لداود سليمان ، نعم العبد انه أواب ، اذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد فقال : انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب . ردوها علىّ فطفق مسحا بالسوق والأعناق " . (١)

ومعنى الصافنات أى الخيل ووصفها بأنها جياد وهى أحسن أنواع الخيل وقد قيل : (ان سليمان - عليه السلام - استعرض خيله بالعشى ففاتته صلاة كان يصليها قبل الغروب فقال ردوها علىّ فردوها عليه فجعل يضرب أعناقها وسيقانها جزاء ما شغلته عن ذكر ربه . ورواية أخرى أنه انما جعل يمسح سوقها وأعناقها اكراما لها لأنها كانت خيلا فى سبيل الله) . (٢)

---

(١) ٣١-٣٣ ص ٣٨

(٢) ٢٣/١٠٠ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

ويعقب سيد قطب على هاتين الروايتين بقوله : (وكلتا الروايتين لا دليل عليها . ويصعب الجزم بشيء عنها ، ومن ثم لا يستطيع مثبت أن يقول شيئا عن تفصيل هذين الحادثين المشار اليهما في القرآن .

وكل ما نخرج به هو أنه كان هناك ابتلاء من الله وفتنة لنبي الله سليمان - عليه السلام - في شأن يتعلق بتصرفاته في الملك والسلطان كما يبتلي الله أنبياءه ليوجههم ويرشدهم ويبعد خطاهم عن الزلل وأن سليمان أناب الى ربه ورجع) .(١)

ولما كانت الخيل هي التي يعتمدون عليها في الحروب وهي تعني القوة فقد دعا سبحانه الى الاهتمام بها وبرعايتها والعناية بها واعدادها للعدو حتى يرفعوا بها راية الاسلام ويكون النصر للمسلمين باذن الله فقال سبحانه : " واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم . . . ".(٢)

كما دعا الى ذلك في قوله تعالى :

" واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك " .(٣)

. . . . . .

---

(١) المصدر السابق

(٢) ٦٠ الأنفال ٨

(٣) ٦٤ ك الاسراء ١٧

٢ - الخنزيـــــــر (١)

ورد ذكر الخنزير في قول الله تبارك وتعالى :

١ - " انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله " . (٢)

وفي قول الله تبارك وتعالى :

٢ - "حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به " (٣)

وفي قوله تعالى :

٣ - "الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فانه رجس" . (٤)

وجميع هذه الآيات سبق شرحها في باب الهمزة مع الابل عند الحديث عن أنواع المحرمات من الطعام وما أحله الله .

فالخنزير حيوان لحمه رجس هكذا خلقه الله ابتلاء للناس ليرى من يأتمر بأمره ومن ينتهي لنهيه ، وقد حرم أكله على المسلمين لعلمه

---

(١) الخنزير : حيوان ثديي من الفصيلة الخنزيرية ورتبة مزدوجات الأصابع الجسئيات (ج) خنازير . ٢٥٩/١ المعجم الوسيط ط ٢

(٢) ١٧٣ البقرة ٢

(٣) ٣ م المائدة ٥

(٤) ١٤٥ ك الأنعام ٦

سبحانه بما فيه من ضرر على أجسادهم فهو اذن من المحرمات من الطعام على المسلمين الى أن تقوم الساعه ولا مبرر لمن يقول بأن فيه طهيه قتل للجراثيم أو الدودة الشريطية الموجوده في فمه فمن شيء يجوز أكله بعد طهيه فهذا افتراء ومراوغه عن نهي الله .

بـــاب الـــدال

١ - الدابـــة (١)

ورد ذكر الدابة في القرآن في أكثر من عشرين آية شرح بعضهـــا فيما سبق ونكتفي بذكر بعضها هنا وذلك كما في قوله تعالى :

١- " فاحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة " (٢)

وقوله تعالى :

٢ - " وما من دابة في الأرض الا على الله رزقها " . (٣)

وقوله تعالى :

٣ - " وما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم " . (٤)

وقوله سبحانه :

٤ - " ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكـــة وهم لا يستكبرون " . (٥)

---

(١) الدابة هي : كل ما يدب على الأرض ، وقد غلب على ما يركب من الحيوان (للمذكر والمؤنث) (ج) دواب وتصغيره (دويبة) . المعجم الوسيط ط ٢ ٢٦٨/١

(٢) ١٦٤ م البقرة ٢

(٣) ٦ ك هود ١١

(٤) ٥٦ ك هود ١١

(٥) ٤٩ ك النحل ١٦

فهذه الآيات التى تذكر الدابة تبين أنها خلق من خلقه سبحانه وأنها تمثل البراءه والضعف وأنها قد جعلها سبحانه منفعة للناس وخير وأن رزقها قد تكفل به سبحانه (وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها " وان الدواب يسبحون لله ويسجدون له وهم من آيات الله الدالة على قدرته وعلى خلقه وعلى عظمته سبحانه ..

بـــاب الـــــذال

١ - الذئـــب (١)

ذكر الذئب فى قصة يوسف - عليه السلام - ولم يتكرر ذكره فى غـير قصة يوسف ومما ذكر عنه قوله تعالى : -

١ - " قال انى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب "(٢).

وهذا قول يعقوب - عليه السلام - لأبنائه حين طغى الحســـد فى قلوبهم من أخيهم يوسف - عليه السلام - وفكروا فى التخلـص منه فآثروا عدم قتله واتفقوا على القائه فى الجب فجاءوا يطلبونـــه من أبيهم وأبيه يعقوب - عليه السلام - ولم يكونوا أخوة أشقـــاء له فخاف يعقوب من أن يلحق به مكروه وتمثل خوفه عليه فى أكـل الذئب له فأبدى لهم ذلك فقالوا له : " لئن أكله الذئب ونحن عصبة انّا اذا لخاسرون "(٣). أى أنهم سيحمونه ولن يستطيع أن يأكله الذئب وهم معه والا فانهم خاسرين أى لا يستحقـــون

---

(١) الذئب : حيوان من الفصيلة الكلبية ورتبة اللواحم ويسمى : كلـب البر (ج) أذوب وذئاب وذؤبان . .
وفى المثل أيضا : " من استرعى الذئب فقد ظلم " أى ظلم الغنم أو ظلم الذئب حيث كلفه ما ليس فى طبعه ، يضرب لمن يولى غير الأمين) ١/ ٣٠٨ المعجم الوسيط ط ١

(٢) ١٣ ك يوسف ١٢

(٣) ١٤ ك يوسف ١٢

أبيهم لأنهم ليسوا أهلا لحماية أخيهم . . وكان ذلك القول ستارا يخفون وراءه خطتهم للتخلص من أخيهم حتى وثق بهم أبوهم وسلمهم يوسف - عليه السلام - وفعلوا به مكيدتهم وألقوه فى غيابة الجب ورجعوا الى أبيهم " قالوا يا أبانا انّا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب " .(١) ثم كان ما كان من كشف خطتهم واخراج يوسف من غيابة الجب والتمكين له فى الأرض .(٢)

---

(١) ١٧ ك يوسف ١٢

(٢) انظر ما كتب عن تأويل يوسف - عليه السلام - رؤيا الملك فى البقرات .

بـــاب الســـــين

١ - الســـــبع (١)

ورد ذكر السبع في قول الله تبارك وتعالى :

" وما أكل السبع الاّ ما ذكيتم وما ذبح على النصب" (٢)

وقد جاء ذكر السبع في مجال تعداد ما حرم الله من الطعام حيـــث يقول سبحانه :

" حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع - الاّ ما ذكيتم - ".

أي أن من جملة ما حرم الله على المسلمين ما أكله السبع أي الفريســـة لأي من الوحش فهذه الفريسه تعتبر لحم ميت لا يحل للانسان أكله . لأنه قد سبق تحريم أكل الميت من الحيوان للانسان الاّ اذا أدركها الانسان - بعد افتراس الوحش لها - وذبحها وفيها الروح : " الا ما ذكيتم " فيجوز له الأكل منها اما اذا أزهق الوحش روحها قبل أن يصلها الانسان فلا تجوز له وتعتبر ميتة .

---

(١) السبع : يقصد به كل حيوان مفترس يأكل غيره من الحيوانـــات فهو من آكل اللحوم مثل الكلب والذئب وفصيلة الأسد وغيرهـا .

(٢) ٣ م المائدة ٥

فالغرض من ذكر السبع هنا هو بيان تحريم الأطعمة التى حرمها الله وقد وصل العلم الحديث الى حكمة تحريم ما حرم الله من الأطعمة (وسواء وصل العلم البشرى الى حكمة هذا التحريم أم لم يصل ، فقد قرر العلم الالهى أن هذه المطاعم ليست طيبة وهذا وحده يكفى . فالله لا يحرم الا الخبائث . والا ما يؤذى الحياة البشرية فى جانب من جوانبها سواء علم الناس بهذا الأذى أو جهلوه . . وهل علم الناس كل ما يؤذى وكل ما يفيد ؟) (١) .

وهذا الكلام يشمل كل ما جاء تحريمه فى هذه الآية والآيات السابقة (كالميتة ولحم الخنزير والمنخنقة والموقوذه والمتردية والنطيحة) فجميع هذه الحيوانات محرم أكلها .

٢ - السلوى

ذكرت السلوى فى قول الله تبارك وتعالى :

" يابنى اسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى " (٢) .

---

(١) ٦/ ٨٠ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

(٢) ٨٠ طه ٢٠

فالمن والسلوى هما : الترنجبين والطير السمانى بتخفيف الميم . .

وهذه الآية تبين فضل الله تعالى على بنى اسرائيل حيث نجاهم من عدوهم فرعون الذى كان يسومهم سوء العذاب ويذبح ابناءهم ويستحى نساءهم فنجاهم منه ومن ظلمه ونزل عليهم نعمة هى المن والسلوى ليأكلوا منها ولا يطغوا فيكون مصيرهم النار وهذا الخطاب لليهود زمن الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - يذكرهم بما أنعم على أجدادهم أيام موسى - عليه السلام وأنهم اذا آمنوا بالله ووحدوه فانه يغفر لهم سبحانه : " وانى لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى " .

بـاب العـــين

العجـــــل (١)

ذكر العجل فى مجال الحديث عن موسى - عليه السلام - مـــع قومه بنى اسرائيل وقد تكرر ذكره فى هذه الحلقة مرات كثيرة فذكر منهـا قول الله تبارك وتعالى :

١ - " واذ وعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعـــده وأنتم ظالمون ". (٢)

وهذا الحدث حدث بعد أن أنجا الله - سبحانه - بنى اسرائيل من فرعون وآله " واذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون " فقد وعد الله موسى بأن يعطيه التوراة بعد انقضاء أربعين ليلة وتركهم وهم مؤمنون به ثم عبدوا عجلا صاغه لهم السامرى الها : " ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون "

ظالمون بوضعهم العبادة فى غير محلها حيث تركوا البينات واتخذوا عبادة العجل الذى هو من صنعهم حيث صنعوه من الذهب " واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار " (٣) وقال سبحانه :

---

(١) العجل : ولد البقرة (ج) عجول .

(٢) ٥١ م البقرة ٢

(٣) ١٤٨ ك الأعراف ٧

" ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون "(١)

ويتوعد سبحانه بني اسرائيل باتخاذهم العجل فيقول :

" ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم "(٢)

فالغرض من ذكره - العجل - في هذه الآيات هو بيان ان العبادة لا تكون الاّ للّه وأن كل ما يعبد من دون الله فهو باطل وأن بني اسرائيل قد ظلموا باتخاذهم عبادة العجل : " قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين "(٣)

ويأتي ذكر العجل في قصة ابراهيم - عليه السلام - في قول الله تبارك وتعالى :

" قالوا : سلاما ، قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ "(٤)

وقوله تعالى :

" فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين "(٥) .

وذكر العجل في قصة ابراهيم - عليه السلام - هنا هو حين جاءت ابراهيم الملائكة رسلا من الله مبشرين له ببشارة : " ولقد جاءت رسلنا ابراهيم

---

(١) ٩٢ البقرة ٢
(٢) ١٥٢ الأعراف ٧
(٣) ٩٣ البقرة ٢
(٤) ٦٩ ك هود ١١
(٥) ٢٦ ك الذاريات ٥١

بالبشرى قالوا : سلاما قال : سلام . فما لبث ان جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قالوا : لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط ، وامرأته قائمه فضحكت ، فبشرناها باسحـــاق ومن وراء اسحاق يعقوب " .

لقد ظن ابراهيم أن الرسل الذين أرسلهم الله اليه ضيوفا حيث كانـــوا في صورة ضيوف فسارع الى اكرامهم وأعد لهم طعاما شهيا وهو عباره عـــن عجل حنيذ أى سمين مشوى على حجارة الرصف المحماة وذلك على عادة البدو في اكرام الأضياف حيث كان ابراهيم - عليه السلام - يعيش مع البدو في أرض كنعان بعد أن رحل من أرض الكلدانيين . . . .

وعندما قدم العجل الى أضيافه ودعاهم الى الأكل منه لم تمتد أيديهـم اليه لأنهم ملائكة والملائكة لا يأكلون طعـــام أهل الأرض : " فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة " فالذى لا يأكل الطعـام يريب ويعرف من هذا الموقف انه ينوى خيانة أو غدر بحسب تقاليـــد أهل البدو وقبل أن يزداد خوف ابراهيم - عليه السلام - كشف الملائكة له عن أنفسهم وهدؤا روعه : " قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط . وامرأته قائمة فضحكت . فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب " .

وهكذا فان الغرض من ذكر العجل فى هذه الآية هو أنه من الأطعمة التى أحلها الله حيث قدمه ابراهيم مشويا لأضيافه الكرام وأنه لا يتخذ لغير غرض الأكل كالعبادة مثلا كما فعل بعض الجهلاء من الناس.

باب الغـــين

١ - الغنـــم

سبق الحديث عنها مع البقر في بيان ما أحل الله وما حـرم .

٢ - الغـراب (١)

ذكر الغراب في قول الله تبارك وتعالى :

" فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه قـال : يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب " (٢)

وذكر الغراب في هذه الآيات يأتى على اثر قصة شخصين قتل أحدهما الآخر يذكرهما القرآن في قوله تعالى :

" واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق : اذ قربا قربانا ، فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال : لأقتلنك . قال انما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك ، انـى أخاف الله رب العالمين : انى أريد أن تبوء باثمى واثمك فتكون مـن

---

(١) الغراب : جنس طير من الجواثـم ، يطلق على أنواع كثيرة منها : الأسود ، والأبقع ، والزاغ ، والخداف والأعصم . والعـرب يتشاءمون به اذا نعق قبل الرحيل فيقولون : غراب البين ويضرب به المثل في السواد والبكور والحذر ، والبعد ٦٤٧/٢ المعجم الوسيط ط ٢

(٢) ٣١ م المائدة ٥

أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين . فطوعت له نفسه قتل أخيـــه ، فقتله ، فأصبح من الخاسرين . فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ، ليريه كيف يوارى سوأة أخيه . قال : يا ويلتا ! أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ، فأوارى سوأة أخى ؟ فأصبح من النادمين . . ."

فهذه القصة (تقدم نموذجا لطبيعة الشر والعدوان ، ونموذجا كذلك من العدوان الصارخ الذى لا مبرر له . كما تقدم نموذجا لطبيعة الخير والسماحة ، ونموذجا كذلك من الطيبة والوداعة وتقفهما وجهـا لوجه ، كل منهما يتصرف وفق طبيعته . . وترسم الجريمة المنكرة الـتى يرتكبها الشر والعدوان الصارخ الذى يثير الضمير ، ويثير الشعـــور بالحاجة الى شريعة نافذة بالقصاص العادل ، تكف النموذج الشريـــر المعتدى عن الاعتداء ، وتخوفه وتردعه بالتخويف عن الاقدام علـــى الجريمة . . .

ولا يحدد السياق القرآنى لا زمان ولا مكان ولا أسماء القصة . . وعلى الرغم من ورود بعض الآثار والروايات عن : (قابيل وهابيل) وأنهما هما ابنا آدم فى هذه القصة . . فاننا نؤثر أن نستبقى القصة - كما وردت - مجملة بدون تحديد (١) .

---

(١) سيد قطب ٦/١٣٥ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

وما يهمنا من هذه القصة هو الغراب حيث كان دليلا لابن آدم الذى قتل أخاه فى أول جريمة على الأرض لكى يوارى سوأة أخيه المقتول حيث أنه بعد أن قتله (ومثلت له سوأة الجريمة فى صورتها الحسية . صورة الجثة التى فارقتها الحياة وباتت لحما يسرى فيه العفن فهو سوأة لا تطيقها النفوس.

وشاءت حكمة الله أن تقفه أمام عجزه - وهو الباطش القاتل الفاتك - عن أن يوارى سوأة أخيه . عجزه عن أن يكون الغراب فى أمة الطير)(١) .

" فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه . قال : يا ويلتا ! أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى ؟ فأصبح من النادمين "

(وتقول بعض الروايات : ان الغراب قتل غرابا آخر ، أو وجد جثة غراب أو جاء ومعه جثة غراب ، فجعل يحفر فى الأرض ، ثم واراه وأهال عليه التراب. . فقال القاتل قولته . وفعل مثلما رأى الغراب يفعل . . كما أن دفن الغراب لأخيه الغراب ، قد يكون من عادات الغربان كما يقول بعض الناس وقد يكون حدثا خارقا أجراه الله . . وهذه كتلك

---

(١) ٦/١٣٨ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

سواء . . فالذى يودع الأحياء غرائزهم هو الذى يجرى أى حدث على يد أى حى . . .

هذا من قدرته وهذا من قدرته على السواء . .) (١) .

فالهدف البيانى والتربوى هو أن الله سبحانه جعل فى الحيوان ما لم يجعله فى الانسان فلا نستهين بالحيوان حيث من الحيوان تعلم الانسان كيف يوارى أخيه الانسان وكم من الناس فى كل يوم يموتون ويوارون تحت التراب كما فعل الغراب بأخيه الغراب .

---

(١) ١٣٩/٦ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

بـاب الفـــاء

الفـــــراش

ورد ذكر الفراش فى قول الله تبارك وتعالى :

" يوم يكون الناس كالفراش المبثوث " .(١)

وهذا وصف لحال الناس يوم القيامه قبل الحساب فهم كفوغاء الجـــراد المنتشر يموج بعضهم فى بعض انه مشهد تطير له القلوب شعاعا ، وترجف منه الأوصال ارتجافا ، ويحس السامع كأن كل شىء يتشبث به فى الأرض قد طار حوله هباءا (٢) ومن ثم يكون هو كالفراش المبثوث .

والغرض من ذكر الفراش هنا لبيان حال الناس يوم القيامـــــة وما يكونوا عليه من فزع وخوف ورجف وأهوال الا من آمن فسيكون بعيـــدا عن هذا الهول والفزع " فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأمـــا من خفت موازينه فأمه هاويـــة " .

---

(١) ٤ القارعة ١٠١

(٢) ٣٠/٢٣١ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

بـــاب القـــــاف

القـــــــــردة (١)

ورد ذكر القردة في قول الله تبارك وتعالى :

١ - ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم : كونـــــوا قردة خاسئين (٢) ".

وقوله تعالى :

٢ - " قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل (٣) ".

وفي قول الله تبارك وتعالى :

" فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين (٤) "

وهذه الآيات جاءت في مجال ذكر نعم الله على بني اسرائيـــل ونكثهم وتحللهم من العهد والعجز عن الاستمساك به .

---

(١) القرد : نوع من الحيوانات الثديية ذوات الأربع ، مولع بالتقليد وهو أقرب الحيوان شبها بالانسان (ج) أقراد وقرود ، وقردة المعجم الوسيط ط ٢ ٧٢٤/٢

(٢) ٦٥ البقرة ٢

(٣) ٦٠ المائدة ٥

(٤) ١٦٦ الأعراف ٧

(وقد فصل القرآن حكاية اعتدائهم فى السبت فى موضع آخر فقال :

" واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم " فلقد طلبوا أن يكون لهم يوم راحة مقدس ، فجعل الله لهم يوم السبت راحة مقدسا لا يعملون فيه للمعاش ثم ابتلاهم بعد ذلك بالحيتان تكثر يوم السبت ، وتختفى فى غيره ! وكان ابتلاء لم تصمد له يهود ! وكيف تصمد وتدع هذا الصيد القريب يضيع ؟

أتتركه وفاء بعهد واستمساكا بميثاق ؟

ان هذا ليس من طبع اليهود) (١)

وهكذا فقد نكثوا واعتدوا فى السبت بأن راحوا يحوطون على الحيتان فى يوم السبت ويمنعونها من التسرب الى البحر بحاجز ويتركونها دون صيد حتى اذا انقضى يوم السبت الذى وعدوا فيه بعدم العمل انتشلوا الحوت الذى كان قد حجزوه يوم السبت فحق عليهم سخط الله حيث يخبرنا سبحانه عن جزاءهم بقوله فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين " أنزلهم الى عالم الحيوان لأنهم لم يلتزموا بشرف الانسان ووعده فالأفضل لهم أن يكونوا فى عالم (الحيوان الذى لا ارادة له والبهيمة التى لا ترتفع

---

(١) ١/٩٧ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

على دعوة البطون ! انتكسوا بمجرد تخليهم عن الخصيصة الأولى التى تجعل من الانسان انسانا . خصيصة الارادة المستعليه المستمسكة بعهد الله) .

وليس من الضرورى أن يستحيلوا قردة بأجسامهم ، فقد استحالوا اليها بأرواحهم وأفكارهم وانطباعات الشعور والتفكير تعكس على الوجوه والملامح سمات تؤثر فى الشحنة وتلقى ظلها العميق) (١) .

وهكذا فان الغرض من ذكر القردة فى هذه الآيات هو :

ان هذه الحادثة عبرة رادعة للمخالفين فى زمانها وفيما يليه وموعظة نافعة للمؤمنين فى جميع العصور حيث بين سبحانه ان مسخ هؤلاء المعتدين الى قرده هو نكالا كما قال :

" فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين " .

---

(١) ١/ ٩٨ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ٢

بـاب الكـــاف

الكلـــــب

ورد ذكر الكلب - في غير قصة أهل الكهف - في قول الله تبـارك وتعالى : " فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث "(١)

ومن بلاغة القرآن أنه حين اتخذ الحيوان مادة لأمثاله انتقى من كل نوع منه الصفة التي يختص بها ، ويشتهر بها أيضا وتكون فيه أوضح مما هي في سواه ، بحيث اذا ضرب المثل به أعطاك صورة واضحة كل الوضوح ودليلا ساطعا كفلق الصبح .

فالكلب مثلا من أخبث الحيوانات وأخسها نفسا ، وأوضعها قدرا ، وأشدها لؤما وشرها ، ومن حرصه أنه لا يمشي الا وخطمه في الأرض يتشمم ويستروح واذا رميت له اليه بحجر رجع اليه يظنه طعاما . . .

أما أبرز صفات الكلب ، وأخصها به وأخسها جميعا اللهاث الدائم المتصل)(٢) وهذه الصفة هي التي اختارها السياق القرآني وشبه بها من انسلخ عن آيات الله بعد أن آتاه الله اياها حيث أخبر عنه سبحانه : " واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه " .

---

(١) ١٧٦ك الأعراف ٧

(٢) ص ١١٤ من مقالة د . عبد المجيد قطامش بتصرف ، مجلة البحث العلمي والتراث الاسلامي ، العدد الرابع ١٤٠١ هـ .

وقد اختلف المفسرون فى اسم هذا الرجل وجنسه كما اختلفوا فـــى الآيات التى آتاه الله اياها ويمكن تلخيصها بما يلى : -

(الأول انها اسم الله الأعظم والثانى أنها كتاب من كتب الله عز وجل والثالث انها النبوة والرابع انها حجج التوحيد وفهم أدلته والخامس أنها العلم بكتب الله عز وجل)(١) .

أما اسمه فانه من مبهمات القرآن الكريم وليس ذكره مهما لأخـذ العبره والاّ لذكره القرآن الكريم .

ولكن المهم هو أن هذا الرجل آتاه الله آياته فانسلخ منها فجعل - سبحانه - مثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث "(فهبط به من مكان الانسان الى مكان الحيوان بل مكان الكلب .، ولقد كان لـــه من آيات الله التى أوتيها جناح يستطيع أن يطير به الى أعلى عليين ، ولكنه هبط الى أسفل سافلين فظل يلهث وراء أغراض الدنيا لهاثا قلقا لا يطمئن أبدا ، لهاثا لا يترك صاحبه سواء أوعظته أم لم تكن مـــن الواعظين)(٢) .

والغرض البيانى والتربوى من ذكر الكلب هنا فى هذه الآية هو تحذير لأولئك الذين آتاهم الله نصيبا من العلم فاتخذوه سبيلا الى الدنيا ،وجمع حطامها فليخشوا عذاب الله وسخطه عليهم وليتذكروا هذا الذى مثله بالكلب.

(١،٢) ص ١١٥ المصدر السابق .

بـــاب النـــون

النعـــــم

النعم والأنعام بمعنى واحد وقد تكرر ذكرها كثيرا فى القرآن ونكتفى بذكر بعض الآيات منها قول الله عز وجل :

(والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع،ومنها تأكلون ولكم فيها جمـــال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيـــه الا بشق الأنفس ، ان ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون) .

سيقت هذه الآيات الكريمة فى الجزء الأول من سورة النحل ضمـــن مجموعة من آيات الخلق وآيات النعمة وآيات التدبير وكان الغرض من ذكرها هو (توحيد الله الواحد الأحد وتنزيهه سبحانه وتعالى عما يشركون) لأن هذه الآيات دلت على قدرة الله وتعدد نعمائه ودلائل وحدانيته .. وفى معرض آيات الخلق قال سبحانه : (خلق السموات والأرض بالحـــق تعالى عما يشركون ، خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين ، والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون) .

فبعد أن أشار سبحانه الى صنعة الكلى - السموات والأرض - المنطوى على

تفاصيل مخلوقاته في شرع سبحانه في تعداد هذه المخلوقات ، أى أن السموات والأرض التى خلقها - سبحانه - باتقان وحكمة تضم جميع مخلوقاته سبحانه ومن هذه المخلوقات وأهمها (الانسان) الذى خلقه من نطفة عجيبة هى جماد لا حس له ولا حراك سيال لا يحفظ شكلا ولا وضعا وبقدرته - سبحانه - أوجد الانسان من عدم لأنه - سبحانه - هو الذى أوجد تلك النطفة من عدم ثم أوجده من تلك النطفة وصوره فأحسن صورته (فتبارك الله أحسن الخالقين) وجعله خليفة له فى الأرض ورفعه فى المكانه على سائر خلقه وجعل له العقل الذى يميز به دون سائر المخلوقات وخصه بنعم كثيره ليست لباقى الحيوانات ولم يكن قبل ذلك شيئا مذكورا فى هذا الوجود ، فاذا بهذا الانسان الكفور يصبح خصيم مبين !

لمن ؟ لمن خلقه ؟

على ماذا يخاصم الله سبحانه ؟

شاكا فى قدرته سبحانه على أن يحيه بعد اذ يميته ونسى أو تناسى أنه سبحانه قد أوجده من عدم أى خلقه ولم يكن شيئا (أليس ذلك بقادر على أن يحى الموتى بلى وهو الخلاق العليم) (١)

---

(١)

ويخبر الله - سبحانه - وتعالى عن جهل الانسان فى موضع آخر وعن قصته هذه العجيبه فيقول سبحانه : (أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحى العظام وهى رميم ، قل يحيها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم)(١) .

لأن من خلق الخلق أول مرة أسهل عليه اعادته أو احياءه مرة أخرى .

(روى أن أبىّ بن خلف الجمحى أتى النبى - صلى الله عليه وسلم بعظم رميم فقال يا محمد أترى الله يحى هذا بعد ما قد رم فنزلت (والأنعام)(٢) فالآيات كما نرى مرتبطه ببعضها ومترتبة على بعضها ففى هذا المجال الواسع - مجال الكون : السماوات والأرض - الذى يقف فيه الانسان يأخذ السياق فى استعراض خلق الله الذى سخره للانسان ويبدأ بالأنعام)(٣) والأنعام المتعارف عليها فى الجزيرة العربية هى الثمانية أزواج التى سماها سبحانه فى سورة الأنعام فى قوله تعالى : (ومن الأنعام حمولة وفرشا ، كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين ، ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين

---

(١) آية ٧٧ - ٧٩ من سورة يسن

(٢) ٩٦/٥ تفسير أبى السعود المجلد الثالث

(٣) ٤٦/١٤ فى ظلال القرآن لسيد قطب ط ١

أمّا ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبئونى بعلم ان كنتم صادقين ، ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين)[1] . أما الخيل والبغال والحمير فللركوب والزينة ولا تؤكل .

اذا ارتباط آية خلق الانسان بآية خلق الأنعام هو ان كليهما من خلق الله فى الأرض فهذه الأنعام هى آية من آيات الله الدالة على قدرته سبحانه فى الخلق والابداع فقد خلقها سبحانه كما خلق السموات والأرض والانسان والمخلوقات الأخرى ان الله سبحانه حين خلق الانسان - رحمة به - خلق من أجله الحيوانات الأخرى وأهمها نفعا له تلك الأنعام ، وقد بين سبحانه ذلك النفع فى قوله تعالى : (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ان ربكم لرؤف رحيم)[2] .

فقوله سبحانه (ان ربكم لرءوف رحيم) دليل على أنه ما أوجد تلك الأنعام الا رأفة بالانسان والا لولا الأنعام فمن أين يأكل ؟

ومن أين له تلك المنافع من حليب وركوب وحمل وحراثة وما الى ذلك ؟

---

(١) آية ١٤٢ - ١٤٣ من سورة الأنعام ٦

(٢) آية ٥ - ٧ من سورة النحل .

من أين له أن يصنع تلك الملابس التى تقيه البرد القارس ؟

وفى بيئة (كالبيئة العربية التى نزل فيها القرآن أول مرة ، واشباهها كثير ، وفى كل بيئة زراعية والبيئات الزراعية هى الغالبة حتى اليوم فى العالم فى هذه البيئة تبرز نعمة الأنعام التى لا حياة بدونها لبنى الانسان)(١) .

وكلمة الأنعام فى الآية الكريمة جاءت بالنصب أما بمضمر يفسره قوله تعالى (خلقها أى خلق الأنعام ، واما منصوبه بالعطف على الانسان أى خلق الانسان والأنعام . أما تقديم الدفء على المنافع فى قوله تعالى : (لكم فيها دفء ومنافع) فلرعاية أسلوب الترقى الى الأعلى (ومنها تأكلون) أى تأكلون من لحومها وشحومها وغير ذلك مما يؤكل ، وتقديم الظرف (ومنها) على قوله (تأكلون) :

(للايذان بأن الأكل منها هو المعتاد المعتمد فى المعاش لأن الأكل مما عداها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر من قبيل التفكه مع أن فيه مراعاة للفواصل ، ويحتمل أن يكون معنى الأكل منها أكل ما يحصل بسببها فان الحبوب والثمار المأكوله تكتسب باكراء الابل وباثمار نتاجها وألبانها وجلودها)(٢) .

---

(١) ١٤/٤٦ فى ظلال القرآن لسيد قطب .

(٢) ٥/٩٧ تفسير أبى السعود المجلد الثالث .

وكما منّ الله سبحانه بالانتفاع بهذه الأنعام منّ كذلك على الانسان بأن له فيها جمالا أى شعور بالجمال والسرور عند رؤيته لها .

وهذا الجمال اما أن يكون لمن يملكها لأن التجمل بها من أغراض أصحاب المواشي بل هو من معاظمها لأن العرب كانت - ولا زالت - تهتم وتفخر باقتناء الأنعام والاعتناء بها ، ومن يقتنيها يكون فى عداد الأثرياء ويحق له أن يشعر بالجمال والراحة والسرور عند رؤيته له .

واما أن يكون هذا الجمال الذى يشعر به الانسان هو لجمال منظرها اذ هى ليست من الحيوانات القبيحه بل جميعها من الحيوانات الوديعه الأليفة (الضأن - المعز - الابل - البقر) فيحق للانسان عند رؤيته لها أن يشعر بالجمال والراحه النفسية .

وهذه اللفته فى قوله تعالى (ولكم فيها جمال) (لها قيمتها فى بيان نظرة القرآن ونظرة الاسلام للحياة . فالجمال عنصر أصيل فى هذه النظرة وليست النعمة هى مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب بل تلبية الأشواق الزائده على الضرورات تلبية حاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الانسانى المرتفع على ميل الحيوان وحاجة الحيوان)[1] .

---

(١) ٤٧/١٤ فى ظلال القرآن لسيد قطب .

أما اختصاص هذين الوقتين (المساء والصباح) بأن يشعر الانسان فيهما بالجمال اذا ما نظر الى تلك الأنعام فى قوله تعالى (حين تريحون وحين تسرحون) أى وقت الرواح أى العودة فى المساء الى الحظائر ووقت الذهاب الى المراعى فى الصباح وبمعنى آخر : لماذا يفرح الانسان ويشعر بالجمال حين يروح مع الأنعام وحين يسرح أى حين تعود هذه الأنعام فى المساء الى حظائرها وحين يسرح بها الى المراعى فى الصباح ؟ لماذا خص الله سبحانه وتعالى هذين الوقتين دون باقى اليوم ؟

الجواب :

لأن الأنعام أجمل ما يكون منظرها حين عودتها الى حظائرها فتبدو فى منظر جميل ورائع وقد تمتعت برعى الحشائش والأعشاب وانطلقت فى المراعى تسرح وتمرح كما يحلو لها وشبعت بل واختزنت من تلك الحشائش والأعشاب ما يكفيها لليلها . فتبدو فى حركات بطيئة متئدة ونشيطة مرحة فى نفس الوقت لأنها ملأى البطون حافلة الضروع وقد جدد نشاطها فى مرعاها وليس هناك ما يجبرها على الركض والاسراع فالوقت وقت مساء وأشعة الشمس تبعث الدفء والحنان وهى تجرر أذيالها نحو

المغيب ، والراعى يحاول الاسراع بتلك الأنعام الى حظائرها حتى يطمئن عليها ومنظرها وهى على هذه الحال جميل رائع يدخل السرور الى قلب صاحبها أو من يرعاها وحق له ذلك . كذلك حين خروجها من حظائرها فى الصباح الى المراعى يكون لها نفس الوضع أو بمعنى آخر يختلف وضعها عن باقى اليوم فعندما يفتح لها باب الحظيرة تنطلق كالسهام مسرعة فى منظر جميل فهى تحاول أن تسرع الى المراعى لتأكل ما تريد وتمرح كما تريد فتبدو فى حركات نشيطه مرحه تتمايل ذات اليمين وذات الشمال كما لو أنها ترقص أو أنها كذلك والراعى يحاول ضبطها حتى يوصلها الى مرعاها والسعادة تملأ قلبه والفرحة تغمر نفسه .

فهذه الأنعام باراحتها فى العشى وتسريحها فى الصباح تزين الأفنية وأصواتها تتجاوب فيها بالثغاء والرغاء فتسعد أهلها وتفرح أربابها وتجليهم فى عيون الناظرين اليها وتكسبهم الجاه والحرمة عند الناس .

وهذا هو سر سعادة الناظر اليها وجعلها له جمالا حين يريح وحين يسرح .

وأهل الريف يدركون هذا المعنى بأعماق نفوسهم ومشاعرهم أكثر مما يدركه أهل المدينة وذلك لمعايشة أهل الريف لتلك الأنعام ومراقبتهم لها فى حركاتها وسكناتها فى جوعها وشبعها فى مرحها وغضبها .

أما تقديم الاراحة على السرح فى قوله تعالى (حين تريحون وحين تسرحون) أى تقديم وقت المساء على وقت الصباح (فلتقدم الورود على الصدور ولكونها أظهر منه فى استتباع ما ذكر من الجمال وأتم فى استجلال الأنس والبهجة اذ فيها حضور بعد غيبه واقبال بعد ادبار على أحسن ما يكون ملأى البطون مرتفعة الضلوع حافلة الضروع) (١) .

أى أن صورة الأنعام وهى عائده من مرعاها الى حظائرها فى المساء أجمل وأتم فى استجلاب الأنس والبهجة من صورتها وهى ذاهبة من حظائرها الى مرعاها فى الصباح ، وهذا هو السبب فى تقديم (تريحون) على (تسرحون) ، وصورتها وهى ذاهبه وهى عائده أجمل وأتم فى استجلاب الأنس والبهجة من باقى اليوم كله كما سبق ومزيد من المنافع أو النعم التى يمن الله بها على الانسان والتى جعل الأنعام مصدرا لها (حمل الأثقال) قال سبحانه : (وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ان ربكم لرءوف رحيم) .

فبالاضافة الى أن حمل الأنعام للأثقال هى نعمة للانسان فهى أيضا رحمة به ، ذلك أن الانسان لا طاقة له على السفر من بلد الى بلد دون استخدام وسيلة لذلك فكانت رحمة الله به أن جعل له الأنعام وسيلة تنقله من بلد الى بلد ليس فقط تنقله بمفرده ولكن معه أثقاله . ونلاحظ أن

---

(١) ٥/٩٧ تفسير أبى السعود المجلد ٣

القرآن قد استخدم لفظ (أثقالكم) ولم يقل (متاعكم) لأن المتاع مثل الزاد والعصا وغير ذلك من الأشياء الخفيفة من الممكن أن يحملها الانسان لكن الأثقال هى الحمل الثقيل كالتجارة مثلا لا طاقة له بحملها وهو يقطع المسافات الطويلة من بلد الى بلد ولولاها لما استطاع أن يقطع من المسافات الا النذر اليسير واذا حمل متاعه فلا يستطيع أن يحمل الاّ القليل الذى يكفى لسد حاجته من طعام وشراب ومن هنا فقد كانت الأنعام رحمة للانسان اذ سهلت له تلك المهمة وأصبح يتنقل من بلد الى بلد فى سهولة ويسر لطلب العلم أو التجارة والمقاصد الدنيوية الأخرى ، أما قوله تعالى : (الى بلد) فاما أن يكون المقصود بها بلد بعينه أو الى أى بلد دون تحديد (قال ابن عباس رضى الله عنهما أريد به اليمن ومصر والشام ولعله نظر الى أنها متاجر أهل مكة ، وقال عكرمة أريد به مكه ولعله نظر الى أن أثقالهم وأحمالهم عند القفول من متاجرهم أكثر حاجتهم الى الحموله أمس والظاهر انه عام لكل بلد سحيق)[١] .

فهذا أقرب الى الصواب لأن القرآن كما نعلم صالح لكل زمان ومكان فلا يحدد بلد ولا زمان بعينه لأن استخدام الأنعام لم يكن مقصورا

---

(١) ٥/٩٧ تفسير ابى السعود المجلد ٣

على حمل الأثقال الى اليمن ومصر والشام بل لقد كان للعرب رحلات الى غير تلك البلاد وحتى لو لم تكن لهم فقد كانت لغيرهم فى غير زمانهم عندما تغيرت طرق التجارة ثم ان الحجاج الذين يأتون من كل فج عميق حاملين معهم أثقالهم على أنعامهم قاصدين البيت الحرام لا يعمهم ذلك الخطاب اذا حددنا البلد ثم ان المقام مقام امتنان والامتنان يناسبه العموم لا الخصوص ، والواقع يؤيد ذلك لأن فائدة الأنعام التى ذكرها القرآن عامه فى جميع الناس . وقوله سبحانه (لم تكونوا بالغيه) أى لولا الابل لما استطعتم أن تصلوا الى البلد الذى تقصدونه الا بجهد ومشقة فضلا عن أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم ، لكن هذه الابل قد سهلت تلك المهمة فحملت الانسان هو وأثقاله وسارت به عبر الطرق الوعره لا تعوقها الرمال ولا تثنيها الحجارة بل تسير بقوة وعزيمة كالسفينة التى تمخر عباب البحر فاستحقت بذلك أن تسمى سفينة الصحراء دون منافس لها من سائر الحيوانات المستأنسه وكان الله (رءوف رحيم) لأنه سخر لنا تلك السفينة العظيمة وهيأها جسمانيا لأداء وظيفتها اذ قد تستطيع أن تصبر على الجوع والعطش العشر فصاعدا وهذا يساعدها على أداء مهمتها عبر الصحراء حيث لا يحتاج صاحبها الى أن يحمل لها طعاما وشرابا أو يبحث لها عن طعام وشراب بل هى تحمله وطعامه

وشرابه بل وأثقاله !! وتكتفى هى بما اختزنت من طعام وماء .

ونقف لحظة عند هذا التعبير الرقيق وما يحمل من معان عميقة وجميلة تجعل الانسان يشعر بالأمان والمحبه لخالقه لأنه رءوف رحيم ، فالرحمة متولده من الرأفه ، والرأفة معناها الشفقة ، أى أن الله عز وجل عندما يشفق علينا فى أمر من الأمور ويعطف علينا ويرأف بنا يرحمنا يجعل رحمته تشملنا لأن رحمته واسعه وسعت كل شىء - سبحانه - وهذا هو السبب فى تقديم الرأفة على الرحمة فى قوله سبحانه :

(رءوف رحيم) .

---

*

القسم الرابـــــــع

الاشارات العامه الى خلق الحيوانـات

تقدم شئ كثير من الآيات التي وردت فيها اشارة عامة الى خلق الحيوان لذا فاننا نكتفي بذكر بعض الآيات كما في قوله تعالى :

١ - " وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرّم عليكم الّا ما اضطررتم اليه " (١) .

فهذه الآية تبين ان الأصل في الطعام الاباحه وأنه سبحانـه قد فصل ما حرم على المسلمين وذلك : كالميتة والدم ولحم الخنزير والمخنقه والموقوذه والمتردية والنطيحة (٢) .

وقوله تعالى :

٢ - " قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين " (٣) .

فهذه الآية أيضا فيها تهجين لأولئك الذين حرموا ما أحل الله افتراء عليه .

---

(١) ١١٩ الأنعام ٦

(٢) سيتم شرح المحرم والذي أحله الله في باب الهمزة عند الكلام عن الابل .

(٣) ١٤٠ الأنعام ٦

وكذلك قوله تعالى :

٣ - قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل الله اذن لكم أم على الله تفترون ". (١)

وقوله تعالى :

٤ - " ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا " (٢)

ففى قوله " ورزقناهم من الطيبات " اشارة الى الحيوانات التى أباح أكلها لهم .

وقوله تعالى :

٥ - " ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض الا باذنه ان الله بالناس لرءوف رحيم ". (٣)

فقوله تعالى : " سخر لكم ما فى الأرض " فيه اشارة الى بعض الحيوانات التى سخرها للمسلمين واباحها لهم .

---

(١) ٥٩ يونس ١٠

(٢) ٧٠ الاسراء ١٧

(٣) ٦٥ الحج ٢٢

وقوله تعالى : -

٦ - " وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا . . . "(١)

فقوله " ومن كل تأكلون لحما طريا " اشارة الى الأسماك والحيتان وغيرهما من الحيوانات المائية التى أباح - سبحانه - أكلها .

وقد بين سبحانه أن جميع ما ذكر من حيوانات أصلها الاباحه الا ما ذكر تحريمه كما فى قوله تعالى :

٧ - " وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل . . "(٢)

وقوله تعالى :

٨ - " وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر . . . . "(٣)

وقوله تعالى :

" وفديناه بذبح عظيم "(٤) .

اشارة الى الكبش الذى فدى به الله اسماعيل - عليه السلام -

وقوله تعالى :

٩ - " ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون "(٥) .

فيه اشارة الى خلق الحيوان وانها زوجين من كل نوع .

---

(١) ١٢ فاطر ٣٥

(٢) ١١٨ ك النحل ١٦

(٣) ١٤٦ الأنعام ٦

(٤) ١٠٧ ك الصافات ٣٧

(٥)

وقوله تعالى :

" يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض " (١)

فيه اشارة الى أن الحيوان يسبح لله لأنه من خلق الله ـ سبحانه ـ

وكذلك قوله تعالى :

١٠ ـ " تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا " . (٢)

فيه اشارة الى تسبيح الحيوان لله .

وقوله تعالى :

١١ ـ " واذا العشار عطلت ، واذا الوحوش حشرت " (٣)

اشارة الى أن الوحوش تحشر يوم القيامه كحشر الناس .

وقوله تعالى :

١٢ ـ " الا تنصروه فقد نصره الله ، اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا "

فيه اشارة الى العنكبوت والى جنود الله الذين حموا نبيه بأمر منه ـ سبحانه . كما وردت كثير من الآيات التى تشير الى عصا موسى ـ عليه السلام ـ ذكرت فيما سبق .

---

(١) ١ الصف ٦١
(٢) ٤٤ الاسراء ١٧
(٣) ٤ - ٥ كورت ٨١

الفصل الرابع

أثر التناول القرآنى لموضوع الحيوان

فى

كتابات اللاحقين

بمقارنة تناول موضوع الحيوان فى العصر الجاهلى بتناول القرآن له فى العصر الاسلامى نجد فرقا كبيرا فى ذلك ، فقد كان تناول القرآن للحيوان نقلة عظيمة وتحولا كبيرا للحيوان ومكانته بين الناس وكيفية التعامل معه ، فحيث كانت نظرتهم للحيوان فى العصر الجاهلى تعتمد على الناحية النفعيه - كما مر بنا فى الفصل الأول - كان تناولهم لموضوعه أيضا كذلك وكانت نظرتهم له كذلك - نظرة سطحية ، وصفوا الحيوان الذى يعتمدون عليه فى حياتهم ، وصفوا الشكل الخارجى عضوا عضوا كما هو أمامهم ، تغنوا بالصفات الحسنه فيه ، لم يفكروا فى هذا الخلق العظيم الدقيق الذى أمامهم ، من خلقه ؟ لم يفكروا فيمن وراء هذا الخلق . . فعندما نزل القرآن وشملت تعاليمه أمور حياتهم شملت أيضا هذا الجانب الحى فى حياتهم (الحيوان) ولفت أنظارهم الى أشياء أهم وأعمق من نظرتهم السطحية للحيوان : " أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ؟ " (١) .

---

(١) ١٧ ك الغاشية ٨٨

" ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس "(١)

" وفى خلقكم وما بث من دابة آيات لقوم يوقنون "(٢).

فكانت هذه النظرة الى جانب كونها نقلة وتحولا فى مجالات كثيرة فى حياتهم التى كانت ترتبط بالحيوان ارتباطا مباشرا وتعتمد عليه حيث غيرت أسلوبهم فى تعاملهم مع الحيوان ونظرتهم له . .

الى جانب ذلك كانت تعالج أهم قضية أقلقت حياتهم . . قضية البعث ، فقد أراد القرآن من طريقة هذا التناول لموضوع الحيوان أن يدعوهم الى الايمان بالله بطريق غير مباشر لأنهم اذا تأملوا خلق الحيوان وما فيه من عظمة وقدرة آمنوا بأن له خالقا ، واذا آمنوا بأن له خالقا آمنوا بأن هذا الخالق هو الذى خلقهم ، واذا آمنوا بأن الذى خلقهم وخلق الحيوان هو الخالق والمعبود الحق آمنوا بالله ، واذا آمنوا بالله فى خلقهم آمنوا بأن الذى خلقهم ابتداء قادرا على احيائهم ثانية يوم البعث . .

وهكذا فان منهج القرآن الكريم فى ذكر الحيوان هو :

---

(١) ١٨ م الحج ٢٢

(٢) ٤ ك الجاثيه ٤٥

ان الحيوانات آية من آيات الله وأنها ليست حيوانات دنيا كما كانوا يعتبرونها ولكنها مخلوقات عجيبه أودع الله فيها من الأسرار الدالـه على قدرته وحكمته ما لو تأمله ملحد ما وسعه الا الايمان بالله - سبحانه - وتعالى الى درجة اليقين . . وهو - أى القرآن - ان كان قد سمـى بعض الحيوانات لتكون محل تأمل ونظر : " أفلا ينظرون الى الابـل كيف خلقت " (١) . فالمقصود من ذلك هو سلكة الحيوانات كلها والدعوة الى التأمل فيها بأسرها فذكر الابل كمثل للمملكة الحيوانية كلها . . . صحيح أن الدراسات والتحريات التى بحثت فى السبب الذى مـن أجله خصت الابل بالدعوة الى التأمل فى خلقها أثبتت أن للابل مزايا فى خلقها تجعل المتأمل لها يقف مبهورا أمام عظمة خالقها فهـى لا تضجع وانما تأكل وهى واقفه وقد اهتدى أحد الباحثين (٢) المتأملين فى خلق الابل الى مزايا جديدة فى الابل وخلقها من حيث طريقـة سيرها ، اذ لاحظ أن الحيوانات كلها التى تمشى على أربع تنقـل يدها اليمنى الأمامية مع رجلها اليسرى الخلفية ويدها اليسرى الامامية

---

(١) انظر القسم الثالث : حيوانات أخرى ورد ذكرها فى القرآن ، والغرض البيانى والتربوى من ذكرها " الابل " .

(٢) الاستاذ حسن الحفناوى فى حديث له اذاعته اذاعة القرآن الكريم بالقاهرة .

مع رجلها اليمنى الخلفية الا الابل فان لها طريقة خاصة فى السير تختلف عن بقية الحيوانات التى تمشى على أربع . . فهى تنقل اليد اليمنى مع الرجل اليسرى واليد اليسرى مع الرجل اليمنى فى مشيها ، فكشف هذا التنبه نتيجة التأمل فيها سرا جديدا من أسرار الدعوة الى التأمل فيها وفى خلقها ، ولعل هنالك أسرارا أخرى يتنبه اليها الباحثون والمتأملون فى خلقها وفى خلق الحيوانات الأخرى التى أشار الله سبحانه اليها فى مواضع كثيرة من كتابه العزيز وبين قيمتها للانسان وانه لا غنى له عنها مهما تقدم فى علمه ومهما تطورت الأساليب العلمية الحديثه فان قيمة الحيوان للانسان ستظل كبيره فهى العماد الذى تقوم عليه حياته وتقوم عليه كثير من صناعاته . .

وأهم من ذلك وأعظم من ذلك هو ما هدف اليه القرآن من ذكر الحيوانات التى ذكرها ألا وهو ما فيها من ابداع فى الخلق ودقة فى التركيب حتى الضعيفه منها فان الهدف من ذكرها كان أعظم لما فيها من اعجاز فى الخلق ودقة فى التركيب: " يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له : ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب " فالذباب ضعيف فى قدرته لكنه عظيم[1] فى خلقه لن يستطيعوا ان يخلقوه ولو اجتمعوا

---

(١) انظر القسم الثالث : حيوانات أخرى ورد ذكرها فى القرآن والغرض البيانى والتربوى من ذكرها فى باب الباء .

له ! وكيف لهم أن يعملوا النظام الذى تسير عليه ؟ والجسم الذى ركبت عليه بحيث يحمل كل الأعضاء التى تؤهلها لأن تكون كائن حى : أعين تبصر بها ، وفم تأكل به ، وأنف وأرجل وأيد والمخ الذى يسيرها ؟ لن يستطيع خلق كل ذلك الا من خلقها سبحانه فتدبر خلقها ! وتدبر خلق الحيوانات الأخرى التى قد يجد المتأمل فى خلقها أسرارا أعظم وعجائب أكبر : تدبر قول الله تبارك وتعالى حين يقول :

" والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ان ربكم لرؤوف رحيم " .(١)

وقوله سبحانه :

" ومن الأنعام حمولة وفرشا " .(٢)

وقوله جل شأنه :

" وان لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين " .(٣)

---

(١) ٥ - ٧ النحل ١٦

(٢) ١٤٢ الأنعام ٦

(٣) ٦٦ النحل ١٦

وقوله سبحانه في آية أخرى :

" وان لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون "(١) .

" والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ، لتستوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين "(٢) .

وتفكر في قوله سبحانه :

" وأوحى ربك الى النحل ان اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون "(٣) .

وقوله سبحانه :

" والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون "(٤) .

وتأمل خلق الحشرة الصغيرة الضعيفة(٥) حيث لم يستحى سبحانه أن يضرب بها مثلا لعظم خلقها واحكامه ودقته :

---

(١) ٢١ ك المؤمنون ٢٣
(٢) ١٢ - ١٣ ك الزخرف ٤٣
(٣) ٦٨ - ٦٩ النحل ١٦
(٤) ٨ ك النحل ١٦
(٥) ٢٦ م البقرة ٢ وانظر القسم الثانى : حيوانات أخرى ورد ذكرها في القرآن والغرض البياني والتربوى من ذكرها

" ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها " . (١)

وما أكثر الأسرار وما أكثر العبر فى التأمل فى آيات الله . . فى (الحيوان) ولا غرو فان المتدبر فى خلقها يصل الى عظمة خالقها سبحانه وقد ظهر أثر هذا التناول القرآنى لموضوع الحيوان جليا فى العصر العباسى الأول حيث ألف الجاحظ كتابه (الحيوان) الذى يعتبر أول دراسة أدبية اسلامية عربية تعبر عن موقف الفكر العربى من هذا الجانب من جوانب الطبيعه ، أما ما سبقه من نثر أدبى فى هذا الموضوع فلا يرقى الى مرتبة الدراسة ولا يحمل طابع التأمل (وان اندفاع الجاحظ الى دراسة هذا الموضوع كان عن شعور دينى وفكرى ينتسب الى التطور الذى أحدثه الاسلام فى الفكر العربى ومواقفه من الكون والحياة) . (٢)

وسواء كان كتاب الجاحظ تقليد لليونان أو تأثرا بقراءة كتاب أرسطو (الحيوان) الذى نقله من اليونانى الى العربى ابن البطريق والذى يعتبره بعض المحققين مصدرا ثالثا لكتاب الحيوان للجاحظ

---

(١) ص ٥٤ الدراسات الأدبية فى موضوع الحيوان د . مصطفى عبد الواحد

(٢) عبد السلام هارون محقق كتاب الجاحظ جـ ١ ص ٢٠

بعـــــــد القرآن والشعر العربى فان كتاب الجاحظ يظهر فيـــه ذلك الأثر الذى أحدثه القرآن بمبادئه وتوجيهاته فى نقل هذا الفكر من حال الى حال بدليل استقلاليته بالرأى ورده على أرسطو فـــى مواضع كثيرة وعدم قبوله نصوص أرسطو بعلاتها وقلما ترك واحدا منهـــا الا تكلم فيه ، وعرضه على الحجة .

ويمكن القول : (أن الجاحظ أول واضع لكتاب عربى جامع فى علـــم الحيوان . وقد كان قبله وفى عصره محاولات شتى لطائفه من العلمـــاء يتحدثون فيها عن الحيوان) (١) .

ومن هذه الكتب التى ألفت قبل كتاب الحيوان للجاحظ : كتب الابل : لابى حاتم السجستانى وللأصمعى ولأبى عبيده وللنضر بن شميل ولأبـــى زياد الكلابى ولأحمد بن حاتم الباهلى .

كتب الخيل : لابن قتيبة وابن الأعرابى وابى عبيدة وابى جعفر محمد بن حبيب البغدادى وابى محلم محمد بن هشام الشيبانى ولأحمد بن حاتم .

---

(١) ص ١٤ تقديم كتاب الحيوان جـ ١ دار احياء التراث العربى . تحقيق وشرح عبد السلام هارون .

كتب الغنم والشاء :

لابى الحسن الأخفش وللنضر بن شميل وللأصمعى .

كتب الوحوش :

للأصمعى ، ولأبى زيد استاذ الجاحظ ولأبى حاتم السجستانى .

كتب الطير :

لأبى حاتم السجستانى ، وللنضر بن شميل ، وأحمد بن حاتم الباهلىّ .

كتب البازى والحمام والحيات والعقارب :

لأبى عبيدة .

كتاب الفرس :

للأصمعى .

كتابا النحل والحشرات :

لأبى حاتم السجستانى . وللأصمعى كتاب فى النحل والعسل (١)

---

(١) انظر ص ١٤ - ١٦ تقديم كتاب الحيوان للجاحظ تحقيق وشرح عبد السلام هارون جـ ١ دار احياء التراث العربى .

(وهذه الكتب لم تؤلف للقصد العلمىّ الخاص، وانما أريد بها أن تكون باحثة فى اللغة أولا ، فهى بمثابة معجمات لغوية خاصة بما ألفّت له ، فهى لا تبحث فى طبع الحيوان وخصائصه بحثا ، ولا تعنى بدقائقه وغرائزه وأحواله وعادته ، وانما تجعل همّها الأول والثانى هو اللغة ، وقد يكون منها أن تبحث البحث العلمى ، ولكن على سبيل الاستطراد ومشايعة القول) .(١) ولهذا انفرد كتاب الحيوان للجاحظ بخصائص لم تتوفر فى غيره من الكتب التى سبقته وعاصرته فى بحث موضوع الحيوان فظل (فذا فى اتجاهه متميزا فى خصائصه مؤثرا فيمن جاء بعده ، ولم يتناول هذا الموضوع بالنظر من بعد الجاحظ الا نفر قليل وان اختلفت دوافعهم فى هذا النظر : ففى القرن السابع ألف القزوينى كتابه (عجائب المخلوقات) وتناول فيه موضوع الحيوان بايجاز متجها به الى جانب الغرابة وان كان فى كتابه طابع العلم فى ذلك الزمان . وفى القرن الثامن ألف الدميرى كتابه " حياة الحيوان " وهو كتاب يغلب عليه الطابع التعليمى ، ويعبر عن موقف ذلك العصر من الفكر والأدب - وما بين هذه الكتب لا يعد نظرا فى الحيوان فهو

---

(١) ص ١٦ من تقديم كتاب الحيوان للجاحظ جـ ١ تحقيق وشرح عبد السلام هارون .

اما خرافه ووهم واما رمز وموعظه ، كالمناظره التى أجراها اخوان الصفا في رسائلهم بين الانسان والحيوان ، أمام ملك الجان ، وكتاب الطيور والأزهار للمقدسى ، وتحفة العجائب لابن الأثير (١) ، وكتاب كليله ودمنه لابن المقفع وسنجتزء أمثلة من بعض هذه المؤلفات لنرى فيها ذلك الأثر العظيم الذى أحدثه القرآن فى كتابات اللاحقين لموضـــوع الحيوان :

١ - موضوع الحيوان فى كتاب الحيوان للجاحظ :

عاش الجاحظ فى العصر العباسى الأول ١٥٠ - ٢٥٥ هـ وألف ثلاثمائة وستين مؤلفا فى ألوان شتى من المعرفة من بينها كتاب (الحيوان) الذى يعتبر أطول هذه الكتب وينطق بالقصـــد العلمى التفصيلى للحيوان جميعا (ولكل مملكة من ممالكه ، ولكل جنس من أجناسه . وهو فضل للجاحظ على جميع من سبقه أو عاصره ممن كتب فى الحيوان . وان اعوزه بعض الترتيب والتهذيب فهو شأن كل كتابة جديدة ، فى أمر متشعب الأطراف ممتـــد النواحى (٢) .

---

(١) ص ٥٧ الدراسات الأدبية فى موضوع الحيوان د . مصطفى عبد الواحد

(٢) ص ١٨ تقديم كتاب فى كتاب الحيوان للجاحظ جـ ١ دار احياء التراث العربى ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون .

ومع ان اسم الكتاب يوهم بأنه قد خصص بالحيوان الا أنه معلمة واسعة وصورة ظاهره لثقافة العصر العباسى المتشعبه الأطراف فى المعارف الطبيعية والمسائل الفلسفية وسياسة الأقوام والأفراد ونزاع أهل الكلام وسائر الطوائف الدينية وفى كثير من المسائل الجغرافية والطب وأمراض الحيوان والانسان الى غير ما هنالك من معارف وعلوم . .

وما يهمنا من محتويات هذا الكتاب هو : طريقة تناول الجاحظ لموضوع الحيوان فيه ومدى تأثره بطريقة تناول القرآن لموضوع الحيوان : اذا ما نظرنا فى هذا الكتاب الذى يقع فى سبع أجزاء وتصفحنا نواحيه بالدرس والتبّين نجد أثر القرآن ظاهرا بتعاليمه ومبادئه على فكر الجاحظ فى مواضع كثيرة لموضوع الحيوان ، حيث صحح كثيرا من المفاهيم عن أنواع الحيوان وتكلم عن طباعها وعن الناحية الطبية والنفسية للحيوان وهذه الطريقة كشفها له ودفعه اليها القرآن الكريم الذى تكلم عن الحيوان صغيره وكبيره ضخمه وحقيره ودعا الناس الى التأمل فيه ، فكانت نتيجة هذه الدعوة من القرآن بالتأمل فى الحيوان : كتاب الجاحظ وغيره من الكتب التى توالت تتحدث عن الحيوان وتعنى به وتفرد الأبواب لطباعه وسلوكه ودائه ودوائه . . . أصبح مخلوق له كيان ، تعرف طباعه ويعرف سلوكه وما الذى يحبه وما الذى يكرهه

وكيف يعالج وكيف يعامل بعد أن كانت الأوهام والخرافات والشـــعوذات تحيط بالحيوان قبل نزول القرآن وتناوله لموضوعه واهتمامـــه به ولفـــت الأنظار والدعوة الى التأمل فيه ، وأنه آية من آيات الله فى الخلق والابداع حيث تتجلى فيه وفى تركيبه وشكله وطباعه وسلوكه قدرة الخالق وانه يحـــس ويتألم . . فكان هذا التناول القرآنى العظيم بنظرته العميقه لموضـــوع الحيوان دافعا للجاحظ دفعة لتناول تلك النواحى فى الحيوان ، وأفرد الأبواب التى يبين فيها أنواع الحيوان ، وقسم الحيوان حين قسم الكائنات الى جماد ونامى ثم قسم النامى الى حيوان ونبات وقسم الحيوان الى أربعة أقسام : شئ يمشى وشئ يطير ، وشئ يسبح ، وشئ ينساح الا أن كل طائر يمشى وليس الذى يمشى ولا يطير يسمى طائرا .

والنوع الذى يمشى على أربعة أقسام : ناس ، وبهائم ، وسباع ، وحشرات. على أن الحشرات راجعة فى المعنى الى مشاكلة طباع البهائم والسبـــاع. الا أننا فى هذا كله نتبع الأسماء القائمه المعروفة ، البائنات بأنفسها ، المتميزات عند سامعيها ، من أهل هذه اللغة وأصحاب هذا اللسان ، وانما نفرد ما أفردوا ونجمع ما جمعوا .(١)

---

(١) ص ٢٦ - ٢٧ الحيوان للجاحظ جـ١ تحقيق وشرح عبد السلام هارون - دار احياء التراث العربـــى .

ثم ألف القزوينى كتابه (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات (١)) فى القرن السابع الهجرى متأثرا بتناول القرآن لموضوع الحيوان فى كتابه . .

وفى القرن الثامن ألف الدميرى كتابه " حياة الحيوان الكبرى " وهو كتاب يغلب عليه الطابع التعليمى ، ويعبر عن موقف ذلك العصر من الفكر والآدب والدارس لهذا الكتاب يجد التأثير الكبير والتحول العظيم الذى أحدثه القرآن فى كتابات اللاحقين فقد رتب الدميرى أبواب الكتاب ترتيبا أبجديا وتكلم عن كثير من الحيوانات فى كل باب ولكن ما يهمنا مما تكلم عنه هى الحيوانات التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ومن ذلك أنه تكلم عن الابل فى باب الهمزة وأورد كل ما يتصل بها من آيات وما ورد فيها من أحاديث . . . وتكلم عن الأفعى وعن البعوض وعن البعير والبغل كما تكلم عن بقرة بنى اسرائيل وهى أول مادة أدبية بعد القرآن فى بقرة بنى اسرائيل حيث وجد الدميرى هذه المادة من القرآن الكريم ، كما تكلم عن الجراد والجمل والحمار والحية والحوت والخنزير والخيل كل فى بابه .

---

(١) انظر التمهيد فى هذا البحث .

وهكذا فقد لفتت هذه الآيات أنظار الكُتّاب لفتا قويا وحولت موضوع الحيوان من مادة للتسلية والتلذذ الى مادة للدراسة والعظة والاعتبار . .

وما زالت تلك المادة أو ذلك الموضوع (موضوع الحيوان) يكبر ويتشعب ويتفرع نتيجة تلك الانطلاقة التى أحدثها القرآن فى موضوع الحيوان . . فكانت هذه الثروة العظيمة من المؤلفات ومن العلوم التى خصصت لها الكليات فى الجامعات وأصبحت علوم مستقلة تدرس وتؤلف فيها المؤلفات التى تهتم بالحيوان وتقسمه الى فصائل وأجناس ، وقد تناول البحث المعاصر كل ما عدا الانسان من الحيوانات باختلاف أجناسها وأنواعها وأحجامها وطبائعها ولا ننسى أن نشير - هنا - الى البرنامج التليفزيون الشهير " العلم والايمان " الذى يقدمه الطبيب مصطفى محمود فان جل مادته العلمية من الحيوانات العجماوات وقد لقى هذا العمل العظيم رواجا كثيرا بين مشاهدى التلفاز فى الوطن العربى وأرسخ العقيدة الصحيحة فى قلوب كثير من الناس .

---

*

نتائج البحث

من خلال بحثنا فى موضوع الحيوان فى القرآن الكريم

اتضحت لنا الحقائق الآتية :

١ - لفت القرآن الكريم الأنظار لفتا قويا الى قدرة الله الفائقة فى خلق الحيوانات وطباعها وتصرفاتها وبخاصة الابل ، والطير التى تطير بين السماء والأرض يبسطن أجنحتهن ويقبضها والباسط والقابض فى الحقيقة هو الله " ما يمسكهن الا الرحمن " والقرآن يثيرنا كثيرا نحو هذه الظاهرة : " ألم يروا الى الطير مسخرات فى جوّ السماء ما يمسكهن الا الله ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون"(١) " أولم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن انه بكل شيء بصير ".

فالطير حيوان أرضى فضائى يسعى فى الأرض ويسبح فى الجو كما تسبح الحيتان فى الماء ، فأين ظاهرة الطيران الحديث من هذه القدرة الهائله التى نراها تسبح فى الأفق القريب والبعيد دون الاستعانة بأجهزة تحكم أو توجيه الا ما حباه الله اياها من قدرة والهام.

---

(١) النحل ٧٩

٢ - يضع القرآن أضعف مخلوقات الله - فى نظرنا - موضع التحدى أن يأتى أحد من الخلق بمثلها ولو تضافرت كل القوى على ايجادها ، وذلك واضح فى آية الذباب : " يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له : ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وأن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب "(١).

٣ - استثمر القرآن طبائع الحيوانات وخصائص فى ضرب الأمثال وتوضيح الأحوال حسب طبيعة كل حيوان . فالحمار لما كان غاية فى البلادة شبه به اليهود فى حفظهم للتوراة وترك العمل بها . " مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا " .

ولما كان الكلب مثلا فى الخسه شبه به الذى اشترى الضلال بالهدى " فمثله كمثل الكلب أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث " .

٤ - ولما كانت الأنعام - عموما - غاية فى عدم الادراك ولا همّ لها الا أن تأكل وترتع وتشرب شبه بها الكفار فى الضلال فقال : " أولئك كالأنعام بل هم أضل " ثم شبه بها الذين ينغمسون فى الشهوات والملذات

---

(١) ٧٣ الحج ٢٢

ولا يرجون لقاء الله فقال : " يأكلون كما تأكل الأنعام والنـــار مثوى لهم . "

٥ - أكثر من ذكر الأنعام في معرض الامتنان على خلقه تذكيرا لهـــم بما يجب عليهم نحو مولى النعم وهذا كثير في القرآن مثل :

" والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكـــم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكـــم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ان ربكم لرؤوف رحيم" .

" والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون "

ومثل : "وان لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين " .

ومثل : " أو لم يروا انا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعامـــا فهم لها مالكون ، وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون " .

ومثل : " والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلـود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن أصوافهـــا وأوبارها واشعارها أثاثا ومتاعا الى حين " .

٦ - شغلت الحيوانات جزءا خاصا من حديث القرآن عنها فى مجال التشريع مثل : أحلت لكم بهيمة الأنعام " .

ومثل : " فجزاءه مثل ما قتل من النعم " .

ومثل : " قل آلذكرين حرم أم الأنثيين " .

٧ - كما شغل جانبا كبير من حديث المعجزات كبقرة بنى اسرائيل وناقة صالح وحوت موسى وحية موسى وجراد وقمل وضفادع فرعون وطير ابراهيم وطير عيسى وحمار المارّ على القرية .

٨ - كما شغل جانبا كبيرا من الخوارق كفيل أبرهة وطير أبرهة وكلب أهل الكهف وهدهد ونملة سليمان .

٩ - هذا بالاضافة الى الاشارات العامة التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم مثل ذبح اسماعيل عليه السلام والدابة وغير ذلك .

١٠ - ونتيجة النتائج :

ان الحيوان فى القرآن الكريم لم يذكر عبثا ولا للتسلية وانما جاء ذكره فى كل موضع ذكر فيه للدلالة على معنى تشريعى، أو بيانى بلاغى ، أو تربوى مما لفت أنظار العالم أجمع الى أهمية هذه المخلوقات الدنيا وما استودعه الله فيها من حكم

وقدرات تدل دلالة قاطعة على قدرة الخالق العظيم وحسن خلقه وبديع صنعه فتبارك الله أحسن الخالقين . .

نسأله التوفيق والسداد فى بحثنا . . !

---

*

مراجع البحث

أولا : المراجع الدينية :

١ - القرآن الكريم

٢ - الكشاف — لأبى القاسم الزمخشرى الخوارزمى - الطبعة الأخيرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م.

٣ - تفسير أبى السعود — لأبى السعود محمد بن محمد العمارى - دار احياء التراث العربى - بيروت . لبنان .

٤ - روح المعانى — لأبى الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى البغدادى - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م - دار الفكر - بيروت .

٥ - تفسير القرطبى — لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصار القرطبى

٦ - جامع البيان فى تفسير القرآن - لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى - دار المعرفة - بيروت . لبنان .

٧ - فى ظلال القرآن — سيد قطب - الطبعة الأولى والثانية - دار احياء الكتب العربية .

٨ - تفسير النسفى — عبد الله النسفى - دار احياء الكتب العربية .

٩ - البحر المحيط — محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان الأندلسى الغرناطى .
الناشر : مكتبة ومطابع النصر الحديثة .

١٠ - الأمثال فى القرآن الكريم - لابن قيم الجوزيـــــة
تحقيق سعيد محمد نمر الخطيب .
دار المعرفة - بيروت . لبنان .

ثانيا : المعاجـــم :

١ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن - محمد فؤاد عبد الباقى
دار احياء التراث العربى - بيروت . لبنان .

٢ - المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية
الطبعة الثانية .

ثالثا : كتب علميـــة :

١ - المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام .
الدكتور جواد على
دار العلم للملايين - بيروت
الطبعة الثانية ١٩٧٦ .

٢ - الحيـــــوان للجاحظ .. تحقيق وتقديم فوزى عطوى .
دار صعب بيروت
تحقيق وشرح عبد السلام هارون
دار احياء التراث العربى .

٣ - حياة الحيوان الكبرى كمال الدين الدميرى
الناشر : المكتبة الاسلامية .

٤ - عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات - زكريا القزويني

قدم له وحققه فاروق سعد

الطبعة الثالثة - دار الآفاق الجديدة - بيروت .

٥ - دواوين شعراء المعلقات

٦ - شرح المعلقات السبع للزوزني

دار القاموس الحديث - بيروت.

٧ - الصورة في الشعر العربي - دكتور علي البطل

دار الأندلس - الطبعة الأولى - ١٩٨٠م

٨ - الدراسات الأدبية في موضوع الحيوان

دكتور مصطفى عبد الواحد

١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩م

٩ - قصص الحيوان في القرآن - أحمد بهجت - ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م .

١٠ - عبقرية العربية في مروية الانسان والحيوان والسماء والكواكب .

د . لطفي عبد البديع ١٩٧٦م .

١١ - مجلة البحث العلمي والتراث الاسلامي - جامعة أم القرى

العدد الرابع عام ١٤٠١ هـ .

. . . . . .

فهـــــرس

الحيوانات التى وقعت فيها معجـــــزات

صفحـــة

١ - بقرة بنى اسرائيل	٩٨ - ١٢٤
٢ - ثعبان موســـى	١٢٥ - ١٦٥
٣ - الجـــــراد	١٦٦ -
٤ - القمـــــل	
٥ - الضفـــــادع	١٨٢
٦ - حوت موسى وفتاه	١٨٣ - ٢٠٠
٧ - حوت يونـــــس	٢٠١ - ٢١٧
٨ - حمـــار العـــزّ	٢١٨ - ٢٥٢
٩ - حيـــة موســـى	٢٥٣
١٠ - طير ابراهـــيم	٢٥٤ - ٢٧٢
١١ - طير عيســـى	٢٧٣ - ٢٨٧
١٢ - ناقـــة صـــالح	٢٨٨ - ٣٤٣
١٣ - نملـــة ســـليمان	٣٤٤ -
١٤ - هدهد سليمان	٣٧٦

. . . . . .

فهـــــرس

الحيوانات التى وقعـــت فيهـا خـــوارق

	صفحـة
١ - دابة الأرض	٣٧٧ - ٣٨٧
٢ - الطير الأبابيـــل	٣٨٨ -
٣ - فيـــل أبرهـــة	٤٠٥
٤ - الذبح العظـــيم	٤٠٦ - ٤١٨
٥ - كلب أهل الكهف	٤١٩ - ٤٤٣

. . . . . .

فهـــرس

الحيوانات الأخـــرى التى ذكرت فى القـرآن

	صفحـــة
١ - الابـــل	٤٤٤ - ٤٦١
٢ - البقـــر	٤٦٢ - ٤٨٢
٣ - البغـال	٤٨٣ - ٤٩٠
٤ - البـدان	٤٩١ - ٤٩٥
٥ - البعـير	٤٩٧ - ٥٠٨
٦ - البعوضة	٥٠٩ - ٥٣٤
٧ - الجمـل	٥٣٥ - ٥٤٢
٨ - الجراد	٥٤٢
٩ - الحمـار	٥٤٣ - ٥٤٦
١٠ - الخيـــل	٥٤٧ - ٥٥٠
١١ - الخنزيـر	٥٥١ - ٥٥٢
١٢ - الدابـــة	٥٥٣ - ٥٥٤
١٣ - ذئب يوسف	٥٥٥ - ٥٥٦
١٤ - الذبـــاب	٥٠٩ - ٥٣٤
١٥ - الســـبع	٥٥٧ - ٥٥٨
١٦ - الســـلوى	٥٥٨ - ٥٥٩
١٧ - الصافنات	٥٤٧ - ٥٥٠
١٨ - الضـــأن	٤٤٤ - ٤٦١
١٩ - العجـــل	٥٦٠ - ٥٦٣

	صفحة
٢٠ - العنكبوت	٥٠٩ - ٥٣٤
٢١ - العاديات	٥٤٧ - ٥٥٠
٢٢ - الفنم	٥٦٤
٢٣ - الغراب	٥٦٤ - ٥٦٧
٢٤ - الفراش	٥٦٨
٢٥ - القردة	٥٦٩ - ٥٧١
٢٦ - الكلب	٥٧٢ - ٥٧٣
٢٧ - النعم	٥٧٤ - ٥٨٥

. . . . . .

الفهـــــرس

	صفحة
١ - المقدمـــــة	أ - د
٢ - تمهيـــــد	١ - ٦
٣ - الفصل الأول :	
الحيوان فى العصور القديمة	٧ - ١٥
الحيوان فى الأدب الجاهلى	١٦ - ٦٥
٤ - الفصل الثانى :	
معجم مفهرس للحيوان فى القرآن	٦٦ - ٩٣
٥ - الفصل الثالث :	
أ - القسم الأول :	
الحيوانات التى وقعت فيها معجزات والأغراض البيانية والتربوية من ذكرها .	٩٦ - ٣٧٦
ب - القسم الثانى :	
الحيوانات التى وقعت فيها خوارق والأغراض البيانية والتربوية من ذكرها	٣٧٧ - ٤٤٣
جـ - القسم الثالث :	
حيوانات أخرى ورد ذكرها فى القرآن الكريم والأغراض البيانية والتربوية من ذكرها .	٤٤٤ - ٥٨٥
د - القسم الرابع :	
الاشارات العامة الى خلق الحيوان	٥٨٦ - ٥٨٩

تابع الفهـــــرس

	صفحـــة
٦ - الفصل الرابع :	
أثر التناول القرآنى لموضوع الحيوان فى كتابات اللاحقين	٥٩٠ - ٦٠٤
٧ - نتائج البحث	٦٠٥ - ٦٠٩
٨ - مراجع البحث	٦١٠ - ٦١٢
٩ - فهرس الحيوانات التى وقعت فيها معجزات	٦١٣
١٠ - فهرس الحيوانات التى وقعت فيها خـــوارق	٦١٤
١١ - فهرس الحيوانات الأخرى التى ذكرت فى القرآن	٦١٥ - ٦١٦
١٢ - الفهـــــرس	٦١٧ - ٦١٨

*